ذكريات عشناها.. وأحلام مشيناها

سعيد الشحات

نجيب محفوظ مع خالد عبد الناصر
بهاء طاهر | عبد الرحمن منيف
محمود درويش مع سميح القاسم
جلال أمين | أسامة أنور عكاشة



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : ذكريات عشناها .. وأحلام مشيناها

المؤلف : سعيد الشحات

رقم الإيداع :

رقم الإيداع :

٢٠١١/٨٨٤٢

الطبعة الأولى ٢٠١١



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

....

إلى .. زوجتي هايمة

وأبنائي ..زياد وفيروز وحنين ..منكم الأمل ولكم كل الحب .

وإلى أخي محمد .. سندا.. وعونا أتمنى أن يدوم .

مقدمة

عشقت شعر محمود درويش وسميح القاسم ، وأحببت أدب نجيب محفوظ وبهاء طاهر وعبد الرحمن منيف ، وجذبني جلال أمين مفكرا وإنسانا ،وكلما كان ينتهي عمل درامي لأسامة أنور عكاشة ، كنت أعد الأيام شوقا إلى عمله التالي .

حلمت قبل أن أكون صحفيا بلقاء هؤلاء ، ثم تحققت الأمنيات تباعا.

جلست أنا وصديقي الصحفي الراحل مجدي حسنين ، مع محمود درويش وسميح القاسم ساعات قليلة ،لكنها كانت عميقة ،كانت الجلسة في ليلة قاهرية اندمج الاثنان خلالها في سرد الذكريات التي جمعتهما في فلسطين المحتلة ، وزادت الجلسة تألقا بانضمام يوسف القعيد والفنان الراحل كرم مطاوع والشاعران الفلسطينيان أحمد دحبور،وهارون هاشم الرشيد .

عشت مع أسامة أنور عكاشة أياما كثيرة ،وكنت شاهدا ومشاركا في ندوات جماهيرية معه حول مسلسله الرائع « ليالي الحلمية » ،وتواصل الحوار بيني وبين جلال أمين سنوات طويلة، زادتني معرفة بعالمه وفكره وبعائلة والده المفكر الكبير أحمد أمين .

انفعلت برواية « الحب في المنفى » لبهاء طاهر فكتبت عنها ، وقادتني الكتابة إلى لقاءات متعددة معه ، وقراءات متكررة لكل رواياته الجميلة وقراءات متكررة لكل رواياته الجميلة ، لأجد فيها شجنا نبيلا ، وحزنا مقيما علي أحلامنا الضائعة ، ورغم أنه كتب رواية «واحة الغروب » بعد رواية «الحب في المنفي» بأكثر من عشر سنوات ، إلا أنني وجدت علاقة قوية بين الروايتين .

غضبت من مذكرات نجيب محفوظ التي كتبها الناقد والكاتب الراحل رجاء

النقاش ، لما احتوته من هجوم متعسف وغير موضوعي علي جمال عبد الناصر ، فذهبت إلى نجله الدكتور خالد ليرد عليها ، فجاء رد خالد مفاجئا لنجيب كما أبلغني الروائي والكاتب جمال الغيطاني أحد تلاميذ محفوظ ، الذي سألني :« ما رأيك في لقاء يجمع بين الاثنين ؟» وتم اللقاء .

لم تجتمع كل هذه الأسماء في أرشيفي الصحفي فحسب ، بل شكل كل واحد منها علامة كبيرة في حياتي الصحفية ، ولما عدت إلى ما دار بيني وبينهم اكتشفت أن هناك خيطا ممتدا في أقوالهم ، رغم اختلاف نوعية إبداعهم ..وهو الحديث عن الأحلام الوطنية الكبيرة التي ضاعت ، وكيف ترك ضياع هذه الأحلام تأثيرا بالغا على الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج ، فبقدر ما كان توهج الأحلام العامة ، بقدر ما كان التوهج في الأحلام الخاصة.

ضاعت الأحلام الوطنية الكبيرة التي تمجرت في طول الوطن العربي وعرضه في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي ، فبدا الأمر كما لو أننا محكمون بالمزيمة والخراب والدمار، ومحكمون بما يمليه الحكام العرب الذين تسببوا وصنعوا هذه الكوارث دون حساب أو عقاب من شعوبهم ، وانعكست هذه الحالة على صنوف الإبداع العربي، الذي برع في تصوير حالة الانكسار التي لم تتوقف عند الهزائم العامة ، وإنما امتدت إلى الهزائم الشخصية .

ظل المشهد العربي قاتما ، وبدا أفق التغيير مسدودا ، حتي تفجرت الثورة التونسية ، ومن بعدها ثورة ٢٥ يناير في مصر ، ونجحت الثورتان في اقتلاع حاكمين من نادي الرؤساء العرب الذين برعوا في تقديم الهزيمة وراء الأخرى ، وانتقلت عدوى الثورة إلى أقطار عربية أخري ،وأدت الثورتان إلى توقفي أمام نسيج هذا الكتاب من زاوية ، هل يصلح أن أدفع به أم لا؟، ،وذلك بعد أن كنت انتهيت من صياغته الجديدة التي تختلف عن تلك التي تم نشرها من قبل في صحف

ومجلات عربية مختلفة ، وتوسعت بالقدر الذي يعطي صورة أكثر شمولية عن الأحداث والمواقف والأشخاص وحكايات التاريخ التي وردت في هذه اللقاءات.

جاء سؤال :« الدفع بالكتاب أم لا » ، على خلفية أننا أمام حالة ثورية جديدة تهب على الوطن العربي وفي قلبه مصر ،وهي حالة مشرقة تبعث على الأمل ،في حين إن موضوع الكتاب فيه ما يكفي من حكايات الأحلام الضائعة التي قد تثير الإحباط أكثر مما تفتح الشهية للأمل .

وفي النهاية وجدت أن الدفع به سيحتوي على فائدة أساسية تكمن في أنه يعكس بصورة ما حالة تاريخية عاشتها مصر والمنطقة العربية ، وبالتالي فهو يعد نوعا من الشهادة على ماضي تصلبت شرايينه ، حتى ثارت الجماهير على هذا التصلب كي تعاود العيش بكرامة ، افتقدتها سنوات طويلة .

وأخيرا يبقى واجب الشكر لأصدقاء شجعوني على إصدار هذا الكتاب ، وأخص في ذلك الصديق والكاتب اللامع حلمي النمنم رئيس مجلس إدارة دار الهلال ، الذي كان يحرضني كثيرا علي إصداره ، كلما كان يقرأ بعضا من موضوعاته في الصحف حيث كنت أنشرها باختصار ، وكذلك فعل الصديقان الشاعران والكاتبان ماهر حسن ووائل السمري الذين أطلعتهما على الصياغات الأخيرة .

طوخ - قليوبية - ١٤ مارس ٢٠١١.



بعد ثورة الأديب على الزعيم

لقاء العوامة بين
نجيب محفوظ وخالد عبد الناصر

«أهلا ،أهلا،شرفتني قوي يا غالي يا بن الغالي».

كان الأديب الكبير نجيب محفوظ يجلجل بالضحك وهو يردد هذه الكلمات ، ترحيبا بالدكتور خالد نجل الزعيم الراحل جمال عبد الناصر.

عانقه خالد بحرارة ،وعلى رأسه طبع أكثر من قبلة وهو يرد: «ازيك يا أستاذنا، وازي صحتك ،انت اللي غالي عندنا ،واحنا كلنا بنحبك».

كنا في السادسة والنصف من مساء منتصف شهر يونيه عام ١٩٩٩ ،وكانت مركب « ليلة » الراسية على شاطئ النيل بالقرب من السفارة الروسية،ومنزل الرئيس الراحل أنور السادات ،هي مكان هذا اللقاء النادر بين نجيب محفوظ سيد الرواية العربية ،و خالد نجل الزعيم الراحل جمال عبد الناصر.

لم يكن اللقاء صدفة وإنما جاء بعد ترتيبات بيني وبين الأديبين الكبيرين جمال الغيطاني ويوسف القعيد،وذلك على خلفية الضجة الكبيرة التي أثارها كتاب«نجيب محفوظ ..صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته»،والذي كتبه الناقد رجاء النقاش على أنه سيرة أدبية وسياسية وشخصية لأديب نوبل .

احتوى الكتاب على هجوما ضاريا من نجيب محفوظ ضد جمال عبد الناصر وثورة يوليو ١٩٥٢، وشمل الهجوم كل شيء تقريبا،قال نجيب : إن علاقته الوجدانية بالثورة ،تنقسم مابين التأييد والحب من جهة ،والنقد الشديد بسبب تجاهلها للديمقراطية وللوفد ،وميلها إلى الفردية والصراع على السلطة من جهة أخرى، وأنه لم يتعاطف كثيرا مع عبد الناصر عندما جرت محاولة اغتياله في ميدان المنشية بالإسكندرية عام ١٩٥٤ ،وتألم لقرار الثورة بإعدام العاملين خميس والبقري، وأضاف : إنه لا يوجد أحد من جيله إلا وشعر بصدمة شديدة من انفصال السودان عن مصر.

أما عن قرار تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ ورغم تعبيره عن الإرادة الوطنية في أعظم تجلياتها ، وكذلك الانتصار على العدوان الثلاثي إلا أن نجيب محفوظ قرأه على نحو مختلف ،فتأميم القناة حسب قوله :«كان خسارة فادحة لمصر ،لأنه أدخلها في صدام مباشر مع القوى الكبرى، كما أن موعد عودة القناة إلى مصر كان يحل في عام ١٩٦٨ ،ولو انتظرنا إلى هذا التاريخ ما اضطررنا إلى دفع تعويضات»

شمل هجوم نجيب محفوظ على عبد الناصر قضايا أخرى مثل صفقة الأسلحة التشيكية التي جعلت مصر تحول اتجاهاتها إلى الكتلة الشرقية،وقال عنها:«في اعتقادي أن هذه الخطوة رغم أننا أيدناها عن جهل أضرت بمصر ،ولم يسلم أيضا مشروع السد العالي من الهجوم،ومجانية لتعليم من الانتقاد،أما عن السياسة الخارجية فقال محفوظ : «عبد الناصر أدارها بأسلوب حماسي ،وتحول إلى محرر عالمي وفارس مغوار يقف إلى جوار الدول التي تجاهد في سبيل الحرية والاستقلال،واكتسب عبد الناصر شعبية هائلة في دول العالم الثالث ،ومازالوا حتى اليوم يتذكرونه ويتغنون باسمه،وحقق مجدا شخصيا لم يسبقه إليه زعيم آخر ،ولكن مصر خسرت الكثير من جراء هذه السياسة»

.ويضيف نجيب :«لم أكن لألوم عبد الناصر على سياسته لو كانت لديه القدرة العسكرية والاقتصادية التي تمكنه من مجابهة القوي الاستعمارية الكبرى وتحديها،أما وأنه لا يملك هذه القوة،فكان ينبغي له السير على المثل الشعبي المصري :«على قد لحافك مد رجليك».

مضى أديب نوبل في هجومه على عبد الناصر وثورة يوليو في قضايا أخري مثل،الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ،وقرارات يوليو لاشتراكية عام ١٩٦٢ ،ومساندة ثورة اليمن عام ١٩٦٣ ، ثم نكسة ٥ يونية ١٩٦٧ قائلا عنها:«لم يحدث لي ذهول وانكسار في النفس مثلما حدث في تلك اللحظة.وما تلاها،حيث

أصابتني حالة فظيعة من الحزن والاكتئاب وعدم التصديق، كنت كمن يعيش في حلم جميل،وفجأة سقط من فراشه على أرض صلبة».

ويتحدث عن يوم تنحي عبد الناصر بسبب النكسة ومظاهرات الجماهير في ٩و١٠ يونية التي طالبته بالعودة،وكيف أنه ثار على فكرة التنحي ورفضها :«كان عبد الناصر هو رمز الأمل في حياة جيلنا ،وهو الزعيم الذي تعودنا أن نحصل منه على الأمل ،ولما أذيع بيان التنحي تأكدنا أننا وصلنا إلى القاع ،ومع ذلك ثرت على فكرة التنحي ورفضتها».

وفي تقييمه لمرحلة التالية لنكسة ٥ يونية ١٩٦٧ قال :«الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن عبد الناصر بذل جهدا كبيرا في السنوات الثلاث الأخيرة في حياته ، وهي السنوات التي تلت النكسة وحتى يوم وفاته،لإعادة تنظيم الجيش والدولة ، واستطاع بهذا الجهد خاصة مع ما تحقق من إنجازات في حرب الاستنزاف أن يسترد كثيرا من هيبته ،ومن الأمل في استعادة الكرامة المهدرة ساعده على ذلك الشعور الذي ترسخ لدي الناس بأن القوى الكبرى تآمرت عليه،وأنه لم يهزم من إسرائيل وحدها».

ويتذكر يوم رحيل عبد الناصر قائلا:«تم الإعلان عن أن أنور السادات (نائب الرئيس جمال عبد الناصر) سوف يلقي بيانا إلى الأمة،ولما أطل السادات بوجهه على شاشة التليفزيون قلت لزوجتي:جمال عبد الناصر مات».

يضيف نجيب:«كان وجه السادات عندما ألقى البيان مرهقًا ومكتئبًا،وكانت عيناه شاردتين ،وفي تلك اللحظة بالذات خطر لي شعور غريب جدا ليس له علاقة بما نحن فيه،فقد أفقت على حقيقة ربما غابت عن ذهني،وهي أن الناس جميعا ستموت ،كان عبد الناصر يعطيني شعورا خرافيا بالخلود ،فلم أتصور أن يأتي يوم يموت فيه كما يموت البشر ،أما وقد رحل وفارق الدنيا فمن المؤكد أننا جميعا

راحلون ،وأفقت على صوت زوجتي وهي تقول:يلا خلينا نتنفس ،وأحزنني قولها مع خلوه من الشماتة ،فرغم أخطاء عبد الناصر الكبيرة ،ورغم أن هناك قدرا من السخط الذي كان يعتمل داخلنا ضده ،إلا أن رحيله كان مؤثرا للغاية ،لأن الرجل أعطانا من الآمال والأحلام ما لم نشعر به من قبل ،وسيطر على تفكيري نفس السؤال الذي راودني يوم تنحي عبد الناصر،وهو :من في مصر يمكن أن يخلف عبد الناصر؟».

في مقابل الهجوم على عبد الناصر تحدث نجيب محفوظ في مذكراته بالتقدير والتبجيل عن سعد زغلول:«هو أكثر زعماء مصر المعاصرين قرب من نفسي،عندما اندلعت أحداث ثورة ١٩١٩ ،كان عمري لا يتجاوز سبع سنوات،ومع ذلك كان وجداني كله مع الوفد وزعيمه».

ويصل نجيب محفوظ في درجة محبته لسعد زغلول حد أنه يرفض القول بأن جنازة جمال عبد الناصر أضخم جنازة في تاريخ مصر كله قائلا:«في رأيي أن جنازة سعد زغلول لا تقل عنها ،بل ربما تزيد»، وسنده في ذلك ،أن سكان القاهرة عند وفاة عبد الناصر كانوا يزيدون عدة أضعاف عنهم يوم وفاة سعد زغلول،وأن سعد مات في العاشرة مساء ،وخرجت جنازته في اليوم التالي ،أما عبد الناصر فظل عدة أيام(ثلاثة) بدون دفن حتى يحضر سكان الأقاليم إلى القاهرة،وكذلك زعماء العالم للمشاركة في الجنازة،هذا بالإضافة إلى أن وسائل الإعلام الحديثة لعبت دورا كبيرا في حشد الجماهير لجنازة عبد الناصر ،في حين لم تكن تلك الوسائل متوافرة يوم جنازة سعد زغلول.

عواصف الرفض

أثارت هذه الآراء من سيد الرواية العربية عاصفة هائلة توزعت بين الرفض والقبول،ومع حدة الهجوم عليه،اضطر وقتها إلى الإدلاء بأكثر من حوار صحفي ،

يوضح فيه بعض الالتباسات،ويذكر ايجابيات عبد الناصر التي لم يأت عليها ذكر في الكتاب ،مثل انحيازه للفقراء،وسياساته من أجل إحداث عدالة اجتماعية ،أما رجاء النقاش فذكر ضمن ردوده على المنتقدين «بأن آراء نجيب محفوظ هي تطوير للناصرية» ، فسخر البعض من هذا الرأي ، وكان في مقدمتهم جلال عارف الكاتب الصحفي ونقيب الصحفيين المصريين (٢٠٠٤- ٢٠٠٧) ،قائلا:«عشنا وشوفنا نجيب محفوظ يطور الناصرية».

ظل الوضع على هذا الحال لفترة ،يدلو فيه سياسيون ومفكرون وكتاب وصحفيون، بدلوهم حول ما إذا كان سيد الرواية العربية مخطئًا أم مصيبًا، لكن بقيت أسرة الزعيم الراحل بعيدة عما يحدث، تسير بذلك على النهج الذي قطعته على نفسها ، منذ أن بدأت حملة الهجوم على الرجل في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، ولم تشذ عنه إلا مرات قليلة،انتقل فيها الهجوم من السياسة إلى الذمة ، ومن العام إلى الخاص.

مرت شهور حتى هدأت العاصفة،وجددت طلبي للدكتور خالد عبد الناصر،بإجراء حوار صحفي شامل،كان يؤجله حتى ينتهي الكلام حول ما ذكره نجيب محفوظ، وأجرينا الحوار الذي تم نشره على ثلاث حلقات في جريدة البيان الإماراتية،وحلقة مختصرة في جريدة العربي لسان حال الحزب الناصري

تعرض الحوار لذكريات عن علاقة جمال عبد الناصر بالفن والثقافة، وكيف غرس في أبنائه حب قراءة الأدب ،وتحدث خالد عن كوكب الشرق أم كلثوم بوصفها«طنط» إلى جانب كونها فنانة كبيرة،وتحدث عن صداقة عبد الحليم حافظ وحب الوالد له، وحب والدته السيدة الجليلة تحية كاظم لصوت فريد الأطرش بالإضافة إلى صداقتها العميقة لأم كلثوم،وتحدث بإجلال وتقدير عن الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين ،والكاتب الكبير محمد حسنين هيكل ،والمفكر القومي

الراحل دكتور عصمت سيف الدولة.

والمفارقة أن الحوار تعرض إلى نجيب محفوظ ،و تعرض أيضا إلى الأديب الكبير الدكتور يوسف إدريس ،أي تعرض لقيمتين عظيمتين في عالم الكلمة والأدب ،والاثنان كان لهما رأيان سلبيان ،محفوظ فيما ذكره في مذكراته،وإدريس في قضية لم يعلق عليها أحد من أبناء عبد الناصر باستفاضة قبل حواري معه .

تسامح خالد مع نجيب رغم «وفديته »المعادية تاريخيا لجمال عبد الناصر،لكنه لم يتسامح مع إدريس رغم «يساريته » المؤيدة لجمال عبد الناصر، والمدافعة عنه وقت اشتداد حملة الهجوم عليه في السبعينيات من القرن الماضي ، وكان ممن يعادون السادات وألف كتابا ضده بعنوان « البحث عن السادات »، كما لم يكن بعيدا عن تقدير السلطة الناصرية ،ومما يرويه سامي شرف مدير مكتب عبد الناصر،أن الزعيم الراحل انزعج عندما قرأ مقالا له في مجلة «حوار »اللبنانية التي كانت تابعة للمخابرات الأمريكية،يقول سامي:«طلبت يوسف إدريس للتحدث معه في هذا الشأن، واستقبلته وشرحت له المسألة بعد أن نقلت له تحيات الرئيس عبد الناصر،فانزعج وأخبرني أنه لا يعرف حقيقتها ،وأن معلوماته عنها لا تتجاوز كونها مجلة ثقافية ، وكتب لها بهذه الكيفية، وعلى الفور رد المكافأة التي تقاضاها نظير المقال ،كما رفض الجائزة التي رشحته المجلة لها» .

يوسف إدريس

ماذا قال خالد جمال عبد الناصر عن محفوظ وإدريس؟

عن يوسف إدريس قال:بعد وفاة الوالد أصدر مجلس الشعب قرارا ببقاء المنزل الذي كنا نقيم فيه في منشية البكري ،وكابينة المعمورة بالإسكندرية للأسرة مدى الحياة ،ونحن من جانبنا أبناء جمال عبد الناصر تعاملنا مع هذا القرار على أنه تكريم للوالدة أكثر من أي شيء آخر،علي أساس أن كل واحد من الأبناء سيشق طريقه،

ويكون له في النهاية مسكنه الخاص .

يضيف خالد:من أهم الأشياء التي أثرت فينا كأسرة ،وأثلجت صدورنا ، وأحيي فيها مصر شعبا وحكومة،أن أحدا لم يترك أمي بعد رحيل الوالد في حاجة إلى شيء، كانت أمي من طراز السيدات اللاتي تعيشن على القليل،وكانت في حالة رضا كامل بذلك،و بيتها هو أحب ما عندها،كانت تقول دائما عن منزل منشية البكري: «ده بيتي » رغم أنه بيت الحكومة،لكن تعبيرها هذا كان يحمل دلالة الارتباط بالبيت الذي عاشت فيه مع الوالد منذ أن كان ضابطا في الجيش ، وشاهدت فيه كل شيء ،الزواج،الأمومة، السياسة ،النضال،رؤساء دول العالم وزوجاتهم،كل شيء،كان تاريخا بالنسبة لها مليء بالأفراح ،والأحزان ،والذكريات.

يواصل خالد:أذكر أن شقيقتي مني كانت تلح عليها للذهاب إلى لندن حيث تقيم مع زوجها دكتور أشرف مروان، لكنها كانت ترفض وبإصرار غريب، ونجحت مرة واحدة في إقناعها بالذهاب معها إلى أسبانيا ،وبعد أربعة أيام فقط بكت وأصرت على العودة،كانت تقول أن الشعب كرمني ولم يتركني لأحد .

وكشف خالد عن أن معاشها الشهري كان ٥٠٠ جنيه،بالإضافة إلى أنه وطبقا للقانون الذي صدر من مجلس الشعب،كان لها مخصصات أخرى من رئاسة الجمهورية ليصل إجمالي المبلغ التي كانت تتقاضاه شهريا ٩٥٠ جنيها ، وكان المبلغ كافيا بالنسبة لها،بالإضافة إلى بيت منشية البكري وكابينة المعمورة،ولا يجعلها في احتياج لأحد.

ما علاقة يوسف إدريس بكل ذلك؟

يجيب دكتور خالد عبد الناصر:خرج يوسف إدريس فجأة وبلا مقدمات بمقال في صحيفة الأهرام يقول فيه : إن أسرة جمال عبد الناصر تعيش في المعمورة في مساحة ٥٠٠فدان، ويقدر ثمن متر الأرض فيها ٢٠٠٠ جنيه ،ولوتم بيع هذه

الأرض سيصل سعرها إلى مائة مليار جنيه ،يمكن سداد ديون مصر بها !،(كان ذلك متزامنا مع حملة شعبية لجمع التبرعات من أجل ديون مصر).

يواصل خالد :أخطأ يوسف إدريس في هذه المسألة مرتين .الأولي أن المساحة الحقيقية هي خمسة أفدنة ،وليست ٥٠٠ فدان،وأخطأ في حساباته حين توصل إلى أن ثمنها مائة مليار جنيه،كانت الحسبة أقرب إلى الكوميديا،وكان الأفضل والأكرم له أن يقول «بلاش تقضي هذه السيدة المصيف »،وكان رد فعلها على الفور:«يا جماعة إذا كانت الأرض دي تسدد ديون مصر يأخذوها»....وأرسلت خطابا إلى صحيفة الأهرام ردا على ذلك تعلن فيه تنازلها عن الكابينة بالأرض التبعة لها،وقالت في الخطاب : إنها لا تريد شيئا من الدنيا وعاشت حياتها مع جمال عبد الناصر الذي أخلص لمصر،وأضافت :«انتظر اليوم الذي أقابل فيه ربي ،وأدفن فيه إلى جوار جمال عبد الناصر ».

حكى خالد هذه القصة بتأثر بالغ وحزن بدا على وجهه إلى درجة أنه قال لي : «قلبت على المواجع،ليه تقلب على المواجع ،حزنت أمي ليس على الأرض والكابينة،فأسرة عد الناصر تركت البيت للحكومة ،وإنما تألمت لأن هناك من ظن أنها تطمع في شيء، عادت الكابينة ولم تسدد ديون مصر،وكل هذا الموقف المؤلم لم يجعلني أسامح يوسف إدريس».

انتقل حواري مع الدكتور خالد إلى رأيه في الآراء السلبية التي ذكرها نجيب محفوظ في مذكراته ضد جمال عبد الناصر، وهنا جاءت المفارقة فبرغم قسوتها إلا أن خالد تعامل معها بطريقة مختلفة عن تلك التي تعامل بها مع يوسف إدريس ، قال خالد :

«أنا تعاملت مع ما قاله نجيب محفوظ بالطريقة التي تعاملت معها أمي مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ،كانت هي تحب الاستماع لأحاديثه في

التليفزيون بعد صلاة كل جمعة،وحريصة كل الحرص على ذلك ،سألتها مرة عن سبب هذا الحرص رغم أن الشيخ هاجم أكثر من مرة جمال عبد الناصر، ووصل في هجومه إلى حد قوله صراحة أنه صلي ركعتين شكر حين وقعت نكسة ٥ يونية ١٩٦٧، فلم تعطيني إجابة وظلت على عادتها،وتركتني في حيرة،حتى توصلت إلى تفسير لذلك ثبت لي صحته فيما بعد وهو ، أنها فصلت بين كون الشعراوي شيخا جليلا في مسائل الدين وتفسير القرآن،وبين رأيه السياسي ،في الأولى يحبه الناس ، وفي الثانية يختلفون معه، وهناك فرق شاسع بين الاثنين،وطبقا لهذا أقول حين يكتب نجيب محفوظ في الأدب ،له كل التعظيم ،أما حين يتحدث في السياسة بالشكل الذي تحدث به في مذكراته،نقول له نحن نختلف معك يا أستاذ نجيب ،وأنا كابن لجمال عبد الناصر أقول له : إن كل ما قلته في حق الوالد أنا أغفره لك ،وأعتقد أن الكل تعامل معه على هذا النحو».

وبحكم خبرتي بالدكتور خالد ومعرفتي به، هو يفرق بين جمال عبد الناصر كزعيم سياسي ثائر ، وجمال عبد الناصر كأبًا عطوفًا حنونًا، وعانى كثيرًا حتى وصل إلى هذه الدرجة، في الأولى هو ملك للتاريخ والشعب ،أما الثانية فهو ملك لعائلته، على هذه القاعدة تعامل خالد وأشقائه مع حملات الهجوم ضد الوالد ،في السياسة فليدافع الآخرون ، أما في غيرها فهم يتصدون ، خاصة في تلك المتعلقة بالسمعة والنزاهة التي تميز بها الرجل، وهذا ما حدث مع الدكتور يوسف إدريس.

على هذا النحو كان مفاجئا لي أن يقول خالد:«أنا كابن لجمال عبد الناصر أقول للأستاذ نجيب محفوظ : إن كل ما قلته في حق الوالد أنا أغفره لك»،المفاجأة أن التسامح هنا امتد إلى كل شيء ،ومع من ؟ مع من قال : «أن كل ما فعله جمال عبدالناصر خطأ».

لماذا؟..سؤالي كان للدكتور خالد ،والإجابة كانت:

«نجيب محفوظ أديب كبير،أنا لا أتعامل معه أو مع آرائه بوصفه حاصلا على جائزة نوبل للآداب، وإنما أنا ورثت حب أدبه من الوالد الذي كان يحب أدبه كثيرا،وكان دائم القراءة لإنتاجه الروائي الجديد،بالإضافة إلى مشاهدة الأفلام السينمائية لرواياته، ولن أتحدث عن تدخله المباشر في بعض الأحيان لصالح هذه الأعمال الروائية أو السينمائية لأن آخرين تحدثوا فيها».

يضيف خالد :«أؤكد أننا كأبناء جمال عبد الناصر،تعلمنا في منزلنا من الوالد حب نجيب محفوظ.وحين نجا من محاولة اغتياله الآثمة وتم نقله إلى المستشفي كنت من أوائل الناس الذين توجهوا إليه للاطمئنان على سلامته، لم أنس مشهده حين أبلغه الطبيب بقدومي ،هب بصوته:ابن الزعيم..ابن الزعيم،كان فرحا بزيارتي إليه ،وكنت فرحا بنجاته فهو قيمة لمصر لا تعوض،مرة أخري أقول : إن آراءه السياسية هي كلام في غير اختصاصه».

كانت محاولة اغتيال نجيب محفوظ مساء يوم الجمعة ١٤ أكتوبر١٩٩٤ ، واهتزت مصر والعالم كله من هذه الحادثة الآثمة الفاشلة ، والتي حاولت فيها عناصر متطرفة من الجماعة الإسلامية قتل محفوظ بسكين في رقبته ، والمثير أن من أقدموا علي هذه الجريمة البشعة ، قالوا في التحقيقات أنهم لم يقرأوا رواية « أولاد حارتنا » لنجيب محفوظ ، وهي الرواية التي قيل أن محاولة الاغتيال تمت بسببها.

بعد نشر حواري مع الدكتور خالد.فوجئت باتصال تليفوني من الكاتب والأديب جمال الغيطاني يخبرني فيه بأن الأستاذ نجيب يريد إبلاغ خالد شكره على ما قاله في حقه،وقال لي : إن يوسف القعيد قرأ له ما جاء في حواري معه وتأثر جدا برأي خالد فيه خاصة المقطع الذي يقول فيه:«أنا كا ابن لجمال عبد الناصر أقول للأستاذ نجيب :كل ما قلته في حق الوالد أنا أغفره لك».

سألت يوسف القعيد عما جرى فأجابني:«فور أن علم الأستاذ نجيب أن

الدكتور خالد تكلم عنه،كان مشتاقا كثيرا إلى معرفة طبيعة هذا الكلام،متوقعًا أن يكون عبارة عن مذبحة ،لكنه فوجئ بنبل ما قاله النجل الأكبر لجمال عبد الناصر».

القعيد أضاف:نجيب محفوظ وفدي الهوى ، وهذا معروف عنه بحكم تكوينه قبل ثورة يوليو١٩٥٢ ،لكنه حقق نفسه في مشروع عبد الناصر وليس فترة السادات، ثم جاءت إليه جائزة نوبل في فترة مبارك،والجائزة نالها من أيديولوجية تعادي فكر الغرب،هو له بعض الاختلافات مع المرحلة الناصرية ،لكنه ليس ضدها بالشكل الجازم .

القعيد يواصل:نجيب محفوظ حدثني أكثر من مرة في جلساتي معه:«عمري يا يوسف في أدبي اللي كتبته في الخمسينات والستينات ما طالبت ببديل لعبد الناصر، أقول له خليك لكن حقق كل اللي كان بينادي به الوفد» .

أبلغت خالد رسالة نجيب محفوظ التي حملني أمانتها جمال الغيطاني ،وما ذكره بالضبط يوسف القعيد، كان وقعها طيبا عليه ،وأعاد تأكيده على نفس ما ذهب إليه: «الأستاذ قيمة كبيرة»،لكنه زاد :«أنا مستعد أن أزوره في أي مكان».

التقطت الخيط:«فكرة عظيمة يا دكتور خالد فلتسمح لي أن أسعى إلى تنفيذها».

رد:« توكل على الله ،أنتظر الموعد الذي يحدده الأستاذ وأنا تحت أمره».

خالد يحدثني مرة أخري:«لي شرط واحد في هذه المقابلة».

أرد:ما هو؟.

خالد:أنا لأريد أن يتم اللقاء تحت أي مسمي سياسي،حتي لا يتهمنا البعض بالسعي إلى تأويله وتوظيفه،الأستاذ نجيب يقول كما يحب ،واللقاء معه تعبير عن المحبة الخالصة ،والتقدير الكريم لشخصه،أريد أن يكون الكل على تلقائيته الإنسانية،وأنا تحت أمر الأستاذ نجيب

تحدثت تليفونيا مع الأستاذين جمال الغيطاني ويوسف القعيد،فرحبا على الفور

مؤكدين أنها رغبة الأستاذ نجيب أيضا

صيف القاهرة كان حارا ،وأنا والصديق أمين اسكندر الباحث والقيادي الناصري المعروف كنا في صحبة الدكتور خالد إلى مركب «ليلة»، وكان في الانتظار عدد ممن يحرصون على حضور جلسة نجيب محفوظ الأسبوعية في نفس المكان ، ومنهم الكاتب الروائي جمال الغيطاني ، والإعلامية المعروفة فريدة الشوباشي ، وزوجها الكاتب على الشوباشي،والشاعر السيناريست هشام السلاموني ، والأديب نعيم صبري،وذكي سالم سكرتير نجيب محفوظ،وحضر فيها بعد الكاتب الروائي يوسف القعيد الذي ترك منذ البداية اعتذ را عن التأخير لأسباب قهرية.

الكل يلتف حول الأستاذ،فنجان القهوة «السادة» أمامه، والسيجارة «الكنت» في يده ، ومن يراه وهو يتنفسها سيتأكد كم كان الرجل يأخذ الدخان في فمه ثم يخرجه باستمتاع بالغ، رغم سنواته التي كانت تقترب من نهاية الثمانينات.

دخل خالد فأخبره الغيطاني الجالس بجواره بصوت عالي : « الدكتور خالد وصل يا أستاذ» ، فقام الأستاذ يقاوم شيخوخة الجسد متجها نحو ضيفه والضحكة تكاد تزغرد من وجهه،تعانق الاثنان بحرارة،يقبله خالد من وجهه،وعلي رأسه قائلا:

«شرف لي يا أستاذ هذا اللقاء،كلي سعادة أن اطمئن عليك وأشوفك ،وتأكد أن كلنا بنحبك».

يستجمع الأستاذ قوة الصوت قائلا :«أهلا ، أهلا ، انت اللي شرفتني قوي يا غالي يا بن الغالي ،آي والله».

جلس خالد بجواره، وخيم الصمت للحظات،وتأملت العيون وجه نجيب محفوظ المبتسم ،وخالد المترقب ،الذي يوزع ابتسامات ترحيب للحاضرين ، ويلقي نظرة إلى النيل عبر نافذة المركب.

خالد لو صادفك ورأيته وقتئذ، (٥٠ عاما) ،كان سيعطيك هيئة شخصية تقترب من شكل والده ،هيئة قد تصل حد التطابق في الطول الفارع ،والأنف المميزة ،وتقسيم الوجه، فإن رأيت نصفه من إحدى اتجاهين ،يمينا أو يسارا، تشعر أنك تشاهد جمال عبد الناصر،ويقفز إليك سؤال :«لماذا هو بالتحديد الذي أن رأيته من كل أبناء عبد الناصر،تشعر بهيبة الحضور وعاطفة الوجدان ، إن كنت تحب، أو حتى تكره والده ؟ ».هل لأن بعض الأغاني الوطنية التي اشتهرت في فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي،حملت اسم ،«يا بو خالد»،«هل لأن العرق دساس»،و« هل ابن الوز عوام»،و«هل «هذا الشبل من ذاك الأسد»؟،هل كل تلك الأسئلة تحمل ظلا من الحقيقة ؟

خالد الأستاذ في كلية الهندسة جامعة القاهرة والحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كمبردج البريطانية، سعي لأن يكون مشروعا سياسيا لكنه توقف،خطب أكثر من مرة في ذكري رحيل جمال عبد الناصر،في نقابة المحامين عام١٩٨٤ تحدث ما يقرب من ساعة أمام أكثر من ١٥ ألف ،وبعدها بعام خطب أمام ما يقرب من عشرة آلاف، في احتفال نظمته منظمة التضامن الأفرو آسيوي ،وخرج في مظاهرة مع المئات من القوي السياسية ورموزها من أمام جامعة القاهرة احتجاجا على ضرب مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس ، وكان من ضمن ضحاياها أبو إياد الرجل الثاني في المنظمة ،و خرج في مظاهرة أخرى احتجاجا على محاكمة الجندي سليمان خاطر الذي قتل عدد من الجنود الإسرائيليين أثناء نوبتجية حراسته على الحدود في سيناء، حين شاهدهم يدنسون علم مصر،وفي عام ١٩٨٧ كان المتهم الثاني في قضية تنظيم ثورة مصر المسلح الذي تزعمه الراحل محمود نور الدين، واستهدف عناصر من الموساد الإسرائيلي الذي كان يتواجد في مصر تحت غطاء دبلوماسي ، تحت غطاء دبلوماسي ، وفي عملية رابعة للتنظيم في ٢٦ مايو ١٩٨٧

استهدفت ثلاثة عاملين في السفارة الأمريكية ،تصادف يوم تنفيذها وكان في الثامن والعشرين من رمضان ، أن خالد كان ضيفا علي الإفطار في قريتي « كوم الآطرون – طوخ قليوبية » ، تلبية لدعوة وجهتها له ،واختار هذا اليوم بالتحديد دون أخري اقترحناها عليه ، واصطحبته يومها أنا والصديق أمين اسكندر من القاهرة إلى قريتنا .

في الطريق إلى القرية الذي استغرق نحو ساعة لم يتوقف خالد عن طرح الأسئلة حول العملية ورأينا فيها ، وظل ينتقل بين محطات الراديو العالمية والمحلية في السيارة لمعرفة ردود الفعل ، وعلي مدي ساعتين ونصف قضاهم بيننا ، ظل يتابع نشرات الأخبار عبر الراديو ليقف عند ما تذكره عن العملية ، وصمم خالد على الانصراف فجأة ، بالرغم من أنه في الأصل كان سيقضي السهرة في القرية حتى السحور للقاء وفود شعبية كانت قادمة من قري مجاورة .

صمم خالد علي الانصراف متعللا بأن هناك ظرف طارئ ، يتمثل في أن أحد تلاميذه في كلية الهندسة جامعة القاهرة ، سيناقش رسالة ماجستير وعليه أن يكون إلى جواره ، ودارت الأيام ، وبعد شهور تم الكشف عن التنظيم ، وإعلان اسم خالد كمتهم ثاني فيه ،والقول بأنه هو قائده السياسي ، أما قائده العسكري فهو محمود نور الدين ، والذي عمل في مكتب المخابرات العامة بالسفارة المصرية في لندن ، وتخصص في متابعة النشاط الصهيوني في بريطانيا ، وقدم نور الدين خدمات هامة لمصر من خلال موقعه الوظيفي خاصة في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، لكنه استقال من عمله احتجاجا علي زيارة السادات إلى القدس عام ١٩٧٧ ، وأسس بالاشتراك مع الكاتب الساخر الراحل محمود السعدني مجلة في لندن باسم ٢٣ يوليو مناهضة لسياسة السادات ، ولم تستمر طويلا .

فور أن تم الكشف عن « ثورة مصر » وإعلان اسم خالد كمتهم ثاني فيه ، استرجعت يوم إفطاره في قريتنا ، وفهمت أن اختيار خالد لهذا اليوم كان مقصودا

منه ، وأن إصراره علي ألا يواصل السهرة الليلية معنا والعودة إلى القاهرة ربما كان من أجل مقابلة محمود نور الدين ،كما تبين بعد الكشف عن التنظيم ، أن الأجهزة الأمنية التي عرفت بزيارة خالد إلى قريتنا وأرسلت مخبريها السريين لمتابعته ، لم تجتهد في ربط هذه الزيارة بعملية استهداف المسئول الأمريكي ، ولو فعلت ذلك كنت سأتعرض وزملائي للاعتقال.

المهم وقبل الكشف عن التنظيم، طار خالد إلى يوغسلافيا قبل تفككها ، وبقي في بلجراد في رحلة منفى اختياري ،استمرت ما يقرب من ثلاث سنوات، قرأ فيها مؤلفات في تاريخ مصر،وشعر أمل دنقل وحفظ قصيدته الخالدة «لا تصالح»،و قرأ روايات أكثرها لنجيب محفوظ ،وهناك سافر إليه عشرات من الشخصيات السياسية المصرية والعربية،وهاتفه بعض الزعماء العرب، ودعاه ياسر عرفات (الرئيس الفلسطيني الراحل) إلى حضور مؤتمر منظمة التحرير الفلسطينية في الجزائر عام ١٩٨٨ الذي أعلن فيه عرفات دولة فلسطين المستقلة ، وقيل وقتها إن زعماء عرب تحدثوا مع القيادة السياسية في مصر بشأنه ،ولما عاد خضع لمحاكمة حصل منها على البراءة ،استنادا على ما ذكره محمود نور الدين أمام المحكمة وفي التحقيقات بأن خالد ليس له علاقة بالتنظيم.

أحدثت القضية بكل ما حملته، وما سبقها من ممارسات تراكم في النظر إلى خالد بأنه لا يتواجد في الساحة بوصفه ابن جمال عبد الناصر وفقط ،وانما هو يحاول نحت تجربة سياسية خاصة به .

ابتعد خالد بعد حكم البراءة عن العمل السياسي لفترة،كان يعود بين الحين والآخر إليه في ممارسات بسيطة خاصة بعد ظهور الحزب الناصري عام ١٩٩٣، رغم عدم انضمامه إلى عضويته ، ومع ضعف الحزب وتمزقه شعر بخسارة فادحة ، فالحزب في حالة قوته كان يمكن أن يوفر غطاء شرعيا لطموحه، فكر في خوض

انتخابات مجلس الشعب،وعدل لأنه اكتشف أن دور البرلماني لا يتناسب معه،وتدريجيا خفت حضوره السياسي،إلا أنه بقي على عهده في التكوين الفكري والخط السياسي الذي وضع أسسه جمال عبد الناصر ،وأبرز خطوطه العريضة «أن الصراع مع إسرائيل صراع وجود وليس صراع حدود » ،وأن أمن مصر يبقى في التمسك بقوميتها العربية،وأن العدالة الاجتماعية هي رسالة أي نظام حاكم في مصر،والسبب بسيط وهو أن الغالبية العظمى من الشعب المصري فقراء.

وقائع الجلسة

بهذه الخلفية وتلك الخلطة ذهب خالد إلى نجيب محفوظ، والكثير مما سبق ذكره كان ماثلا في أذهان الذين استقبلوه ،رغم أن كيمياء الجلوس معه يتغلب فيها شطر معادلة أنه ابن جمال عبد الناصر،وهذا الشطر هو الذي قاد حديث الجميع في الجلسة التي دارت على النحو التالي :

خالد:يا أستاذ نجيب..شرف كبير قوي أن أقابل حضرتك ،وأشوفك وأطمئن عليك.

نجيب محفوظ:انت اللي شرفتني قوي ..أي والله.

خالد:انت أستاذنا ،وانت روائي عظيم ،وأعمالك كلها في قلبي وقلوب كل الشعب المصري والعربي،وبالمناسبة جمال العيطاني من جيلي واعتبره أخي وأستاذي.

جمال الغيطاني :هذه لحظة مهمة مملوءة بالأحاسيس الفياضة والمشاعر الجميلة لأنها تجمع أستاذنا العظيم نجيب محفوظ ،والدكتور خالد الذي نحبه ونقدره كما نحب ونقر والده العظيم جمال عبد الناصر

خالد :انت معزتك كبيرة عندنا يا أستاذ نجيب والمؤكد أننا نحبك.

نجيب محفوظ :انا اللي شجعني يا خالد انك قلت أنا غفرت له ..(مشيرا إلى ما قاله خالد في حواره لي :«باعتباري ابن لجمال عبد الناصر أغفر لأستاذنا الكبير كل

ما قاله في حق الوالد»).

ضحك الجميع على لقطة نجيب محفوظ ، ثم قال خالد :انت تقول يا أستاذ نا ويا عمنا الكبير زي ما انت عايز تقول.

نجيب محفوظ :والله القلوب عند بعضها يا خالد يا غالي يا بن الغالي.

خالد:علي فكرة ابنتي تحية «كبري بناته» أنهت رسالة الماجستير في الأدب المقارن بالجامعة الأمريكية عن أديب أمريكا الجنوبية ماركيز،وتمنت أن تحضر معي هذا اللقاء ،وان شاء الله تحضر مرة ثانية.

نجيب محفوظ:ما شاء الله ..ما شاء الله..أدب أمريكا الجنوبية عظيم ،وأدب ماركيز عظيم، وبعد حصوله على نوبل نقل أدب أمريكا الجنوبية إلى العالم،وابنتك اختارت صح هو يستحق رسائل كثيرة وأهلا بها في أي وقت.

يلتقط جمال الغيطاني خيط الحوار الذي كان في مرحلة ترحاب ومجاملات قائلا:

تزاملت مع دكتور خالد في منظمة التضامن الآفرو آسيوي في مرحلة السبعينات.

خالد:نعم يا جمال كانت أيام هامة وفيها تواصل جيد ، لكن أنا حريص طبعا على متابعة كل أخبارك ،وبالمناسبة يا جمال إنت كنت وقت زمالتنا في منظمة التضامن ،كنت تكتب أجزاء رواية «التجليات»،فاكر يا جمال كنت بتكتبها وقتها جزء جزء،وأنا كنت أنتظر كل جزء بفارغ الصبر لقراءته،هو عمل روائي عظيم ، وفيه جهد منك جبار في الحبكة الروائية والحدوتة نفسها وفي استخدامك للتراث،وعلي فكرة يا جمال،تعرف أن أحلي قصة قرأتها لك هي «أتحاف الزمان»..الله ..الله ..يا جمال عمل أدبي عظيم.

نجيب محفوظ:ما شاء الله يا خالد..أنت بتعز جمال قوي زي ما هو بيعزك ،وكمان أنت قارئ ممتاز لأعماله .

خالد:طبعا يا أستاذ، بس أنت الأصل، وأنت أعمالك في القمة ،وهي علمتني حب الأدب وقراءة الروايات،وعرفت منها قيمة الكلمة العظيمة،وإذا كان هناك فضل لحبي لقراءة أعمال جمال الغيطاني ،فالفضل يعود لك أنت.

جمال الغيطاني:علي فكرة،قصة «اتحاف الزمان»،هي نواة رواية «الزيني بركات» التي كتبتها فيما بعد، وعلى فكرة « الزيني بركات» أخذت جهدًا كبيرًا في كتابتها

خالد: تعرف يا جمال أن « الزيني بركات » رغم أنها بتتناول فترة تاريخية معينة هي نهاية المماليك والانتقال للعثمانيين ، لكن تشعر أنها رواية كل زمان ومكان .

أثار هذا الرأي انتباه نجيب محفوظ . فعلق :« الله ..الله ..يـ خالد أنت بتقول حاجة مهمة في الرواية ، ومعك حق في أن من يقرأها يشعر أنها رو ية كل زمان ومكان ».

كانت الإعلامية فريدة الشوباشي تتابع المناقشات باهتمام حتى قالت :التجليات تشتمل على وجدان هائل،وشجن كبير ،فيها المزج بين الوالد..(والد جمال الغيطاني)،والحسين بن على ،وجمال عبد اناصر،أنا قرأت أدب جمال الغيطاني كله وأحببته،لكن التجليات وحدها هزتني و بكتني.

جمال الغيطاني: يا تري يا دكتور خالد..هل ذهبت إلى منطقتي نجيب محفوظ.. الجمالية،والحسين.

خالد:لا..لا..لم أذهب إليهما كثيرا ،أو بمعني أدق لم أذهب لمشـهدتها بتأمل كمناطق قديمة،وبالمناسبة كلما يصيبني بالضيق أذهب إلى منطقة الحسين ،أشوف الناس وهي تضحك ومبسوطة وبترمي الدنيا ورا ضهرها،وتعيش عيشة البساطة ، اللي ماشي مبسوط ،واللي قاعد مبسوط، الي نايم مبسوط ، والي بياكل مبسوط ، الكل في حاله وفي ملكوته ، ورامي حموله ورا ضهره .. في الحسين أشعر أني عايش وشايف الناس بجد.

جمال الغيطاني:كل المعاني التي تذكرها يا دكتور خالد موجودة في روايات وحكايات الأستاذ نجيب.

خالد:صحيح هي موجودة في أدب الأستاذ،والمدهش أنك حين تقرأ رواياته تشعر كأنك تعيش في هذه المنطقة.

يدخل الأستاذ يوسف القعيد وبعد سلام وعناق مع الدكتور خالد،يترك خالد له مكانه بجوار نجيب محفوظ،ويقول خالد:

تأذن لي يا أستاذ نجيب،بالانتقال من مكاني وأؤكد لك من تاني ،أنا فرحان بوجودي بجوارك،واحنا أولادك ،وتحياتي للمدام هي زارت أخي عبد الحميد في المستشفي .

نجيب محفوظ:والله يا خالد يا ابني أنا فرحان..ولولا أني خجلان كنت أبقي فرحان ،فرحان قوي ..قوي.. قوي.

*يجلس يوسف القعيد بجوار نجيب محفوظ ،وتسود حالة من الحوارات الجانبية بين الحاضرين.. تحدثت فريدة الشوباشي مع دكتور خالد :«علي فكرة يا دكتور خالد قضية ثورة مصر اللي كنت متهما فيها كانت من أسباب فصلي من إذاعة مونت كارلو فيما بعد بسنوات ،بعد أن قمت بتغطية وقائع القضية ،ومتابعة المحاكمة إذاعيا بوضوح، هم قاموا بتخزين هذه المسألة حتى قرروا الاستغناء عني وقالوا في أسباب الاستغناء :«اني ناصرية ومعادية لإسرائيل»،وعلي فكرة كلامك في الحوار مع سعيد لابد أن يتطور إلى كتاب لأن فيه أشياء جديدة عن جمال عبد الناصر أول مرة نعرفها.

يلتقط نجيب محفوظ الكلام مؤكدا مطلب فريدة الشوباشي ،ويقول :يا خالد الفكرة دي ممتازة وتستحق الاهتمام والتنفيذ،فيرد خالد بأن أبناءه قالوا له نفس الرأي ،ويعلق نجيب:«مهم يا خالد تقول الحقيقة ،وكل الكلام اللي عندك».

جمال الغيطاني :علي فكرة يا دكتور لما قرأنا الحوار للأستاذ نجيب قال لنا أشياء أول مرة نعرفها منها أنه كان في العباسية وجار لوالدتك السيدة الفاضلة تحية كاظم،وكان صديقا مباشرا لأخيها مصطفى كاظم ،وكان يسمع عن أن لها أختا لكن لم يشاهد السيدة تحية أبدا.

نجيب محفوظ:آه ..هو كان من شلة العباسية وهي كانت أول شلة في حياتي،وكنا نتقابل في مقهي عرابي في العباسية،وهذه الشلة لم تتكون لأسباب أدبية ،يعني كانت للتسلية والمرح،وتفرقت كلها ،وأغلبها متي من العباسية ،وكان منهم مصطفي كاظم.

د.خالد:الوالدة كانت تعيش عند شقيقها خالي عبد الحميد كاظم الله يرحمه .

جمال الغيطاني :انت يا أستاذ كتبت عن أحد أفراد هذه الشلة؟

نجيب محفوظ:كان فيها واحد اسمه نجيب الشويخي،هو لم يكمل تعيمه ،وكان شرير يستطيع عمل أي شئ،ويحصل على أي عمل بسبب شره ،لو طلب منه رئيسه في العمل أن يأتي له بالنساء العاهرات يلبي الطلب فورا،وهذه الشخصية كتبتها في رواية«المرايا».

يلتفت خالد إلى نجيب محفوظ قائلا:يا أستاذ نجيب أتمني أن أحصل منك على الثلاثية «بين القصرين ،السكرية ،قصر الشوق »وعليها إهداء بخط إيدك.

نجيب محفوظ:عيني ،عيني ،يا سلام،اعتبر الثلاثية موجودة عندك وعليها الإهداء.

كانت سيرة جمال عبد الناصر تفرض نفسها على الجلسة، رغم حرص خالد من البداية على أن تكون إنسانية وحميمية،وليست سياسية،فقال هشام السلاموني:

دكتور خالد ابن جيلي وهو كان زميل في جامعة القاهرة يدرس الهندسة، والحقيقة أنه اشترك معنا في المظاهرات التي خرجت من الجامعة احتجاجا على

الأحكام الصادرة ضد قادة الطيران الذين تسببوا في نكسة يونية ١٩٦٧ .

فريدة الشوباشي:المخابرات الأمريكية والبريطانية والموساد كانوا يتكلمون عن الحراسة على جمال عبد الناصر،وأنها هي التي كانت تحميه ،وتأكدت من كذب هذا الكلام بل وتفاهته في جنازة الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة بعد استشهاده على الجبهة يوم ٩ مارس١٩٦٨ ،كنت واحدة من مئات الآلاف خرجوا بعفوية في ميدان التحرير وشوارع القاهرة نشارك في الجنازة، أنا كنت في ميدان التحرير عند مسجد عمر مكرم ،شاهدت عبد الناصر في مقدمة الجماهير الحاشدة،وفي لحظة وجدته يذوب في وسط الناس ،الكل يتدافع إليه ويقترب منه ليقول له «البقية في حياتك يا ريس،ولا يهمك يا ريس »،وكان أكثر شئ هز أعماقي أنني رأيته يهتف معنا كل هتاف نردده:«التار ..التار..التار».

كادت الدموع تفر من فريدة الشوباشي التي كانت تحكي بتوحد عن جنازة عبدالمنعم رياض ومشاهدتها لجمال عبد الناصر فيها حتى وصلت إلى قولها:«ما فيش حراسة كانت حول الرئيس كلهم ذابوا وسط الناس ..الناس هي التي تحولت إلى حرس لزعيمهم».

جمال الغيطاني : فريدة تحكي عن لحظة مؤثرة في تاريخنا المعاصر ،عبد المنعم رياض أحد أهم رموز العسكرية المصرية والعربية،والجنازة كانت شيئا خرافيا ، شعب كان ينتفض غضبا ويطالب بالثأر، هي كانت لحظة توحد بين عبد الناصر والشعب،وحكاية الحراسة، عمرها ما زادت على ثلاثة أفراد،أنا كنت أشاهده مباشرة في الشارع ،وهو يأتي إلى مسجد الحسين ،حراسة بسيطة ،موتوسيكلين مثلا أو ثلاثة.

كان خالد عبد الناصر يسمع كلام فريدة والغيطاني باهتمام ،حتى دخلت بسؤال إليه :هل كنت تمارس حريتك الطبيعية وأنت ابن رئيس جمهورية بحجم وقيمة جمال

عبد الناصر؟

أجاب :إلى حد ما وأنا طول عمري كنت أحب أن أكون مواطنا عديا،والوالد كان يمارس دور الأبوة ،يعني مثلا لو تأخرت خارج المنزل ليلا يسألني أين كنت،ويتابع كلما أمكن دراستي ،هو كان حريص على ألا نعامل أحدًا بوصفنا أبناء جمال عبد الناصر ، هذه المنطقة كانت محرمة عنده ليس فيها فصال.

حديث خالد أعاد الجلسة إلى الجماعية بعد أن ظلت لدقائق ثنائية وثلاثية،ومما لفت الانتباه حرص الأستاذ نجيب عى أن يسأل يوسف القعيد عن آخر الأخبار ، كان القعيد تحديدا ، هو مصدره الإخباري الأول في جلسته الأسبوعية،في الأدب والسياسة وكل شئ ، ومن خلال عمله الصحفي وعلاقاته الممتدة ،يحكي للأستاذ ما يتوفر عما وراء الخبر،يقرأ له ما يحمله من صحف تحتوي على القضايا التي يحب الأستاذ الإطلاع عليها، كان القعيد يفعل ذلك بمحبة التلميذ لأستاذه،كما أن العشرة والمودة جعلت منه واحد ممن يفهمون شفرات الأستاذ خاصة في مثل سنه المتقدم .

مارس القعيد دوره في هذا اليوم بإطلاع الأستاذ على بعض الأخبار المحلية التي وقعت، والعالمية التي بثتها وكالات الأنباء العالمية .. قال القعيد :

-«كرواتيا يا أستاذ قررت ترجمة رواية من تأليفك لكنها لم تستقر حتى الآن على اسم الرواية ،المهم أنهم قرروا الترجمة».

يقاطعه نجيب محفوظ:هم يا يوسف ،قالوا سبب اختياري للترجمة.

يوسف:ذكروا انك اكبر أديب عربي ومن كبار أدباء العالم وحامل نوبل.

يواصل القعيد إطلاع الأستاذ على باقي الأخبار التي بحوزته:

-«حزب العمل المعارض برئاسة المهندس إبراهيم شكري،قرر فريق منه فصل فريق آخر،والفريق المفصول قرر فصل الفريق الذي فصله،وإبراهيم شكري رئيس

الفريقين»

نجيب محفوظ:مين يا يوسف اللي عمل كده .

يوسف:جناح في الحزب يا أستاذ.

نجيب محفوظ:فيهم حد تيار ديني

أكثر من صوت في الجلسة:كلهم يا أستاذ رغم أن الحزب اسمه «العمل الاشتراكي».

نجيب محفوظ يهز رأسه :معقول ،معقول.

يعاود يوسف القعيد إطلاع الأستاذ على باقي الأخبار التي بحوزته،فيحدثه عن انتخابات نقابة الصحفيين..فيسأله، عما إذا كان هناك انتخابات في نقابات أخري، فيجيبه القعيد بالنفي،ثم يقول له :

آخر خبر، وتعمدت تأجيله هو الجديد في مسألة الجائزة،يضيف يوسف :«أنت يا أستاذ مرشح عن جائزة جديدة في الأدب تحمل اسم الرئيس مبارك ،ومرشح معك الدكتور شوقي ضيف ،والدكتور عبد القادر القط» .

يستكمل يوسف القعيد خبر الجائزة بإبداء الرأي :«أنا رأيي يا أستاذ تعتذر عنها»،فيبادر الأستاذ بالسؤال:«ليه يا يوسف»؟.

يرد يوسف:بعد نوبل أي جائزة ليس لها قيمة،والمنافسون أقل منك في المستوي ، والمؤكد أنك ستكسبها.

نجيب:لا..لا.. ممكن يا يوسف واحد من المنافسين، وبعدين لا يصح أن أرفض جائزة تحمل اسم الرئيس مبارك ، الحقيقة أن الرئيس بيشجع المناخ الثقافي دائما بهذه الخطوات، ولما أرفضها يكون أنا أقلل من هذه الجهود،لا..لا..يا يوسف.

يوسف القعيد:علي فكرة ثروت أباظة مرشح للجائزة لكن هو قال :«مادام أستاذي نجيب مرشح للجائزة أنا أتنازل عنها».

تسود لحظة صمت يترقب خلالها الكل رد الأستاذ نجيب الذي قال :

علي فكرة صبري قرأ لي قائمة الترشيح وفيها فعلا اسم ثروت أباظة ،ويمكن يكون هو بالفعل اعتذر لكنه مازال مرشحًا ، وأنا أصلا اعتزلت الكتابة ، والسبب ده ممكن يعطي فرصة المكسب لثروت أباظة.

كان خالد عبد الناصر والمشاركون في الجلسة يتابعون حوار الأستاذ ويوسف القعيد ،ويأخذ ثروت أباظة حيزا من الكلام فيما يتعلق بهجومه الدائم على جمال عبد الناصر،تسأل فريدة الشوباشي الدكتور خالد عن رأيه في ذلك ،فيرد خالد باقتضاب:

«أنا لا أقرأ له».

ينتقل طرف الحديث إلى نجيب محفوظ:«الاعتذار فيه تجريح للجائزة ،وليس معني حصولي على نوبل أن أعتذر..لا ..لا .. وبعدين يا جماعة الجائزة مصرية ولها احترامها وتقديرها ،وأنا أشك في حصولي عليها وعندي أسبابي الخاصة ولن أتحدث عنها .

يلتفت يوسف القعيد إلى نجيب محفوظ ويقترب من أذنه قائلا:نحن سعداء بلقائك بابن جمال عبد الناصر ، الدكتور خالد ،وأنت يا أستاذ صحيح وفدي ،لكن بداخلك جزء ناصري لا تنكره .

نجيب محفوظ:آه طبعا ..ولا أنكر، وكل كلام خالد عني في منتهي النبل.

يوسف القعيد مداعبا الأستاذ:إيه رأيك نستغل وجود الدكتور خالد ونأتي لك استمارة عضوية في الحزب الناصري.

يسرع خالد بالتدخل قائلا:لا .لا.يا أستاذ أنا أصلا مش عضو في الحزب الناصري .

نجيب محفوظ مندهشا :معقولة يا خالد ، أنا أحسبك كتبت استمارة معاهم .

خالد:انت يا أستاذ نجيب ملك مصر كلها ولا يستطيع تيار سياسي واحد ادعاء انك تابع له ،أنت فوق كل الأحزاب،وفوق التيارات السياسية ،وأقوي بأعمالك الأدبية التي يخلدها التاريخ ،رواياتك هي الباقية ،أما الأحزاب فهي بقرار سياسي يمكن إلغائها ،ممكن أن يكون هذا القرار من الحكومة ،أو حتى من أعضاء الحزب نفسهم ،المهم أنه قابل للإلغاء أما أعمالك الأدبية فلا تستطيع أي حكومة أو أي قرار سياسي صادر من أي جهة أن يشطبها ،ويا أستاذ أنا أقول لك بكل صدق:«الأحزاب هي التي تسعي إليك وليس العكس».

كان خالد يذكر رأيه والحاضرون يستمعون اليه باهتمام ،ونجيب محفوظ ينصت ويهز رأسه حتى قال :الله ..الله ..يا خالد ..هو الأدب صح زي ما إنت بتقول هو الباقي ،وفيه ناس تانيه لهم أعمال أدبية تستحق كلامك

كان جمال الغيطاني يتابع أستاذه الكبير أولا بأول،ويلتفت إلى صديقه خالد مرحبا ،وحين أنهي خالد مداخلته السابقة أبدي جمال إعجابه الشديد بها قائلا:

الحقيقة أن الدكتور خالد قال كلاما هاما ويفتح الشهية لكلام آخر يمكن أن يقال،وبمناسبة هذا اللقاء أسأل الأستاذ نجيب:هل كنت عضوا في حزب الوفد قبل ثورة يوليو١٩٥٢ ؟

نجيب محفوظ:لا ..لا..لم أكن عضوا في حزب الوفد وأنا وعي تفتح على ثورة ١٩ ،كان عمري سبع سنوات فقط ،لكن كنت أشاهد المظاهرات ،والناس في جيلنا ، وعلي أيامنا كانت كلها وفدية ،لأنه كان بيقاوم الاحتلال ، تقدر تقول يا جمال أنا كنت من جماهير الوفد ،وطبعا من المعجبين بزعيمه سعد زغلول ومن بعده مصطفي النحاس،وكنت أعطي الوفد صوتي في أي انتخابات وبعدين يوليو ما كنتش جت ، وجمال أبو خالد مكنش جه .

انطلقت الضحكات على كلمة نجيب محفوظ « يوليو ماكنتش جت وجمال أبو

خالد مكنش جه ، ثم سأل الغيطاني:هل شاهدت يا أستاذ سعد زغلول؟

نجيب محفوظ:لا...لم أشاهده.

يوسف القعيد : أنت ذكرت يا أستاذ في المذكرات اللي خلت الدكتور خالد يشرفنا بالحضور النهاردة انك تقريبا رأيته

نجيب محفوظ : آه كانت الحكاية دي لما اختلف سعد مع الملك فؤاد (عام ١٩٢٤)،وكان سعد رئيس الحكومة ،وعرفنا أن فيه لقاء بينه وبين الملك لتقديم استقالته ،خرجت مع الناس إلى ميدان عابدين، وكنا بنهتف «سعد أو الثورة»،ولما الناس لمحت السيارة جريت عليها ، وأنا كنت أهتف ،ولم أشاهده من الزحام.

جمال الغيطاني:هل كنت يا أستاذ عضوا في الطليعة الوفدية؟

نجيب محفوظ:لا..أنا كنت متعاطف معها جدا ،وكان الدكتور محمد مندور صديقي(أبرز قيادتها) ،وكان معه عبد القادر جمعة، وكان صديقي أيضا ،وعلي فكرة ياجمال هما كانوا بينادوا بالمبادئ والأهداف اللي نفذها وطبقها جمال عبد الناصر .

أمين اسكندر:ما هي مبادئ الطليعة الوفدية يا أستاذ التي طبقها عبد الناصر؟

نجيب محفوظ:كانوا في الطليعة الوفدية بينادوا بالاشتراكية والعدالة ،وطبعا هو ده الكلام اللي طبقه عبد الناصر.

شباب رغم الشيخوخة

كان نجيب محفوظ يسرد بعضا من ذكرياته والكل يسمع إليه باستمتاع بالغ،وكان لدي كل من جمال الغيطاني ويوسف القعيد الشفرة الإنسانية نحو الأستاذ التي بمقدورها أن تدفعه إلى الحديث ،وكان هو من جانبه يبدو سعيدا بدفء مشاعر خالد عبد الناصر نحوه،كان يتحدث بيقظة رغم وطأة الشيخوخة التي زحفت على قوة السمع والبصر. لكنها لم تزحف إلى الذاكرة ،كان يكفي أي

أحد من الحاضرين أن يرمي رأس الموضوع أو السؤال إليه،فتكتشف على الفور أن الرجل حاضرا بذاكرته،ربما يقول كلاما مختصرا ،أو ربما يقول واقعة واحدة في قصة لها أكثر من واقعة،لكنه في كل الأحوال يقول ماهو مفيد للتاريخ حتى لو اختلفنا معه.

تناول الحاضرون مشروباتهم من الشاي والقهوة والمثلجات ،وأمام الأستاذ كان فنجان القهوة لا يزال موجودا رغم مرور وقتا ليس قصيرا عليه ،لم يتناول شيئا غيره ، لكنه أشغل سيجارة «كنت» أخري ،هو كما علمت من الغيطاني والقعيد لم يكن مدخنا شرها لكنه يدخن الـ« كنت » وفقا لعدد معين ربما لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة في اليوم .

كان خالد يتأمل نجيب محفوظ ،ويستمع إلى ما يقوله منذ بداية اللقاء حتى محطة الحديث عن الطليعة الوفدية ،وهنا انتقلت دفة الحديث نحو ه بسؤال من أمين اسكندر: «هل تتذكر يا دكتور خالد شيئا عن نجيب محفوظ وجمال عبد الناصر؟».

يجيب خالد:هناك ذكريات كثيرة ،منها مثلا انه وفي الستينات في منزل منشية البكري الذي كنا نقيم فيه،كان عندنا سينما في البيت لأن الوالد كان من ضمن هواياته في أوقات فراغه القليلة مشاهدة الأفلام السينمائية،وكانت أفلام الأستاذ نجيب مقرر علينا مشاهدتها خمس أوست مرات ،لأن الوالد كان يحب روايات الأستاذ وأفلامه ،وكلما كان يشاهدها كنا طبعا نشاهدها معه.

جمال الغيطاني :هل كنت تكتفي يا دكتور خالد بمشاهدة السينما في منزل منشية البكري ؟

خالد:لا ..لا..كنت أتفرج في سينما عامة مع أصدقائي ،وأنا شاب كنت أحب مشاهدة السينما ،وأمارس حريتي قدر الإمكان .

أمين اسكندر :هل مثلا الأجهزة الأمنية كانت تراقبك ،وأي مكان تذهب إليه

كان يحدث فيه إزعاج؟

خالد:أنا كنت أمارس حياتي بطبيعية وكذلك إخواتي ،نذهب إلى المدرسة والجامعة مثل كل الطلاب الأمر لم يكن معقدا كما يتصور البعض .وأكثر شيء كان يشدد الوالد عليه ولم نكسره أبدا، هو عدم التعامل على أننا أبناء رئيس جمهورية في أي موقف صعب نتعرض له.

الغيطاني :على فكرة يا دكتور خالد جاء ذكر منزل منشية البكري أكثر من مرة وطبعا هو كان رمزا للكرامة العربية ،لكن يا ترى هل كان ملك الرئيس ،يعني ملك الأسرة ؟

يرد خالد :هو كان ملك الدولة ،تقدر تقول قطاع عام ، ورغم أن مجلس الشعب أصدر قرارا بعد وفاة الرئيس بأن يبقي المنزل للأسرة مدى الحياة ،إلا أننا سلمناه للحكومة بعد رحيل الوالدة (عام ١٩٩٠) بأيام قليلة.

يلتفت يوسف القعيد إلى نجيب محفوظ ،ويسأله:«أستاذ نجيب ..هل قابلت جمال عبد الناصر؟

يهز نجيب محفوظ رأسه متذكرا :« تقصد يا يوسف زيارة الأهرام » .

يسأله يوسف:ماذا حدث في هذه الزيارة ؟

يصمت نجيب محفوظ قليلا وكأنه يستجمع تفاصيل قصة مضى عليها أكثر من ٣٥ عاما ، ثم يقطع صمته قائلا:كان الرئيس يزور مبني الأهرام الجديد وكان معه الأستاذ هيكل رئيس التحرير، (يقصد محمد حسنين هيكل)،ولما كان الرئيس بيتفقد المبني من الداخل مر على حجرة يجلس فيها أدباء الأهرام ،وسلم علينا .

واصل يوسف القعيد سؤاله: الرئيس سلم فقط ،يعني لم يكن هناك كلام ، أو حوار منكم معه،ومن هم الأدباء الذين كانوا معك؟

يرد نجيب محفوظ: كان في الحجرة الدكتور حسين فوزي،وصلاح جاهين

وصلاح طاهر ،ولما جاء دوري في السلام عليه قال لي وهو يبتسم :« إيه يا نجيب من زمان ما قريناش حاجة لك»،فرد هيكل :«الأهرام ستنشر له قصة غدا لكنها من النوع اللي يودي في داهية»،فرد عبد الناصر ضاحكا موجها حديث إلى هيكل: «توديك إنت».

انتهى نجيب محفوظ من سرد قصته لكن الجدل حولها لم ينتهي في الجلسة .

قال يوسف القعيد : «الأستاذ هيكل يجزم أن ما نسب إليه ،وما نسب إلى عبد الناصر لم يحدث ،ومن رابع المستحيلات أن يقوله عبد الناصر ،وأن مناسبة الافتتاح لا يمكن أن يقال فيها مثل هذا الكلام» .

اكتفي نجيب محفوظ بهز رأسه تعليقا على كلام يوسف القعيد الذي أضاف : الرواية كانت «أولاد حارتنا»،وسأل الأستاذ :الرواية كانت أول عمل أدبي لك بعد ثورة يوليو ؟

يرد نجيب محفوظ :صحيح كانت بعد سبع سنوات تقريبا.

يعلق يوسف : توقف الأستاذ هذه الفترة لكنه عاد عن الكتابة بهذه الرواية القوية».

سألت يوسف القعيد عن ظروف نشر «أولاد حارتنا » فأجابني :الرواية وصلت إلى محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام عن طريق على حمدي الجمال الذي كان أحد محرري الأهرام وقتئذ وأصبح رئيس تحرير الأهرام فيما بعد ،قرأ هيكل الرواية بعناية وأدرك حجم المشاكل التي يمكن أن تجلبها فقرر نشرها يوميا وليس أسبوعيا كما كان متبعا ،وكان غرضه من ذلك هو تفويت الفرصة على الاعتراض المتوقع عليها خاصة من الأزهر ،وأثناء النشر تحرك بالفعل علماء الأزهر ضد الرواية ، فسأل عبد الناصر هيكل عنها فأجابه: «هذه رواية كتبها نجيب محفوظ ولابد من نشرها حتى آخر كلمة» ،وبالفعل تم نشرها .

تلتفت فريدة الشوباشي إلى الدكتور خالد الذي كان يتابع ما يقوله القعيد وتنقل الحديث إلى ضفة أخري ،قالت فريدة:"أنا فاكره يا دكتور خالد لما كنت في «ال .بي .بي.سي»،خرجت مع الجماهير في ٩ و١٠ يونية نطالب عبد الناصر بالعودة عن قرار التنحي ،ولا أنسي هتافات الجماهير :« يا خالد روح قول لأبوك .. العرب ميش هيسيبوك»،وفي جنازته هتفت مع الجماهير: « يا خالد روح قول لأبوك مية مليون بيودعوك».

سحبت هذه اللفتة المؤثرة من فريدة غمامة من الحزن بدت على وجه خالد ، الذي استمع إليها ليدخل في صمت ،ويستأذن في الانصراف.ثم يتجه إلى نجيب محفوظ، ويعانقه بحرارة قائلا:«إحنا كلنا بنحبك يا أستاذ» ،فيرد نجيب:«أشكرك يا خالد يا ابني على الخطوة دي ،باركتنا ربنا يخليك ،ويبارك فيك».

يخرج خالد وفي صحبته جمال الغيطاني ويوسف القعيد وفريدة الشوباشي ،وعلي باب المركب ،يقول الغيطاني :«علي فكرة يا دكتور خالد لولا عبد الناصر ماكنتش تعلمت لا أنا ولا يوسف ،ولا حتى دخلنا مدارس».

تدخل فريدة على نفس الخط قائلة:«وأنا كمان».

كان صوت أم كلثوم يتسلل عبر لراديو :«ذكريات ..داعبت قلبي وفكري»، وخالد ينظر إلى الثلاثة معلقا بصوت منخفض ،حزينا ،عميقا:«عبد الناصر كان رجل جدع مبتسم ،طيب ،علي فكرة أقول لكم حاجة :كان الريس ورفاقه في حصار الفالوجا عام ١٩٤٨ ،يأكلون البسكويت ،ومرة رأي نبات «الرجلة» في الأرض ، فأكلوه من الجوع والحرمان بسبب الحصار ،ولما أصبح رئيس جمهورية أصبحت «الرجلة» طبخة مقررة علينا مرة كل شهرين ،هو ده عبد الناصر يا جماعة عمره ما نسي أصله ولا ناسه والغلابة كانوا همه الكبير في كل شيء».

صافح خالد كل من الغيطاني والقعيد والشوباشي على وعد بلقاء آخر وفي

السيارة ،سألته :«ما رأيك في اللقاء ؟» رد:« زيارة من القلب ،هي رائعة،لكن تفتكر تسجيلك للجلسة هيفيدك في حاجة»،قلت له:«لا تسبق الأحداث».

سألت جمال الغيطاني في اليوم التالي للجلسة عن رأي نجيب محفوظ فيما حدث،فأجاب :«الأستاذ كان في حالة نفسية هائلة بعد زيارة الدكتور خالد ،وأنا بصفتي خبيرا به ،كنت ألاحظ ونحن في الجلسة تعبيرات وجهه فأجدها تعبر عن حالة هائلة من السعادة،وأقول لك: أن كثيرا من الآراء التي تقال عن نجيب محفوظ في ثورة يوليو تركز على أشياء دون أخري ،وأنا أعرفه من أربعين عاما ،وخلالها لم يتحدث عن عبد الناصر إلا بوصفه زعيما كبيرا ،والتحولات التي أحدثها عبدالناصر في المجتمع جعلته يتوقف عن الكتابة بعض الوقت،وكل الانتقادات التي ذكرها لم تؤثر في حبه وتقديره لجمال عبد الناصر .

أما يوسف القعيد وفي حديثي معه أيضا أكد لي نفس المعاني التي ذكرها الغيطاني،

واستعرضت معه ما جاء في الجلسة حول الأعمال الروائية للأستاذ التي أثارت أزمات،فأعاد لي التأكيد على ملاحظة أن جميعها انتهت إلى إنصاف عبد الناصر له وحمايته ،مما يدل على تقدير كبير من عبد الناصر له.

ملاحظة القعيد تجد صداها الحقيقي في مذكرات نجيب محفوظ إلى رجاء النقاش وفي مواضع أخري ،هو يقول :«كانت السلطة في عهد عبد الناصر واثقة من حسن نواياي في كتاباتي ،ومن أنني أقصد من انتقاداتي صالح الوطن لا الإثارة أو تأليب الجماهير،وأظن أن عبد الناصر نفسه كان مدركا لهذه الحقيقة،بدليل انه تدخل لصالحي بعد نشر رواية «ثرثرة فوق النيل» ،ولم يترك الأمر لانفعال المشير عبد الحكيم عامر».

ويضيف :كان لدي شعور بالاطمئنان والثقة،وبأنني لن أتعرض لأي نوع من الغدر ،وشعوري بالثقة ،وإن كان يشوبه أحيانا بعض الاهتزاز ،لم يكن نابعا من

فراغ ،بل كان مبنيا على أسس وأدلة ،منها أن كل الروايات أو الأعمال الأدبية التي أثارت أزمات ،وعرضت على عبد الناصر لكي يفصل فيها ،جاء رأيه بشأنها إيجابيا ، حيث انحاز إلى جانب حرية التعبير،جري هذا لروايتي «ثرثرة فوق النيل»،ولرواية «شيء من الخوف»،وبالنسبة ل «شئ من الخوف» فإن عبد المنعم الصاوي الذي كان وكيلا لوزارة الثقافة في ذلك الوقت هو الذي لفت أنظار السلطة إليها ،وأكد أن ثروت أباظة يقصد الرئيس عبد الناصر بشخصية «عتريس »في الرواية ،وأن زواجه من «فؤادة » -أي مصر-باطل ،وعندما شاهد عبد الناصر الفيلم المأخوذ عن الرواية سمح بعرضه فورا ،وقال جملة مشهورة لا أنساها :«لوكنا إحنا احرامية ،وأنا عتريس ،يبقي ما نستهلش نقعد في الحكم »،وكانت هذه الواقعة هي بداية تراجع سلطة عبد المنعم الصاوي في عهد عبد الناصر،لأنه – بعدها- بدأ نجمه في الأفول .

يسرد نجيب محفوظ مواقف أخري ، يدلل من خلالها على رأي عبد الناصر الإيجابي في الأعمال الأدبية التي أثارت أزمات قائلا:«أما روايتي «ميرامار» فقد نشرت كاملة دون حذف كلمة واحدة منها في جريدة «الأهرام » ثم ظهرت بعد ذلك في فيلم سينمائي ،وشاهدها عدد من أعضاء الإتحاد الاشتراكي في عرض خاص ،فاعترضوا على الفيلم ،وقالوا أنه يتضمن هجوما صريحا على النظام ، وطالبوا بمنع عرضه ،وجن جنون منتج الفيلم جمال الليثي ،وراح يشكو في كل مكان ،حتي وصل صوته إلى الرئيس عبد الناصر،وكلف عبد الناصر نائبه أنور السادات بمشاهدة الفيلم وكتابة تقرير عنه ليتخذ قرارا عادلا في القضية ،يضيف محفوظ :«لما سمعت أن عبد الناصر اختار السادات للفصل في أزمة الفيلم قلت في نفسي :«عليه العوض ..الفيلم راح ».

يتذكر محفوظ:في اليوم التالي للعرض الخاص الذي شاهد فيه السادات الفيلم ، فوجئت بخبر منشور في جريدة «الأهرام » أصابني بالاستغراب والدهشة ،

فالسادات لم يوافق فقط على عرض الفيلم ،بل أنه أدلي بتصريح يمثل دعاية صريحة له ،فقد أكد أن الفيلم بريء تماما من تهمة العداء للنظام ،ودعا الجمهور إلى مشاهدته ،ضربت كفا بكف ،ولم أفهم تفسيرا لهذا الموقف إلا بعد وفاة عبد الناصر ، حيث اتضح لي أن السادات لم يفعل ذلك إلا من منطلق عدائه للإتحاد الاشتراكي ونكاية فيه ،وتم عرض الفيلم وحقق نجاحا جماهيريا كبيرا بفضل دعاية السادات له،وحقق رقما قياسيا في أسابيع العرض وقتذاك .

يبقي في تناول روايات نجيب محفوظ التي أثارت أزمات مع عبد الناصر الأزمة العنيفة التي أثارتها رواية «ثرثرة فوق النيل» عام ١٩٦٦ ،ويتحدث عنها نجيب في مذكراته إلى رجاء النقاش ، لكن رجاء يتناولها في موضع آخر من خلال اتصال به من سامي شرف مدير مكتب الرئيس عبد الناصر .

يقول نجيب في مذكراته عن الرواية:«بعد نشرها ثار المشير عبد الحكيم عامر ، وبلغني أنه هدد وتوعد بإنزال العقاب بي،بسبب النقد العنيف الذي ضمنته الرواية ، عن سلبيات قائمة في المجتمع ،وسمعه البعض يقول «نجيب زودها قوي ويجب تأديبه ووقفه عند حده».

يضيف نجيب :عندما جاء ثروت عكاشة لتهنئتي بجائزة نوبل حكي لي تفاصيل ما دار في كواليس السلطة عن أزمة «ثرثرة فوق النيل»،وكان عكاشة وقتئذ وزيرا للثقافة ،وبينما هو يستعد لرحلة عمل إلى إيطاليا ،استدعاه جمال عبد الناصر ،وسأله عما إذا كان قرأ الرواية ،ولما لم يكن قرأها طلب منه قراءتها وإبداء رأيه فيها بعد عودته من إيطاليا .

يواصل نجيب محفوظ ،قرأ ثروت عكاشة الرواية في أثناء الرحلة إلى إيطاليا ،وفي أول لقاء له مع الرئيس عبد الناصر دافع عنها وفند اتهامات المهاجمين لها ،وأكد للرئيس أنني أنبه إلى أخطاء موجودة وليس لدي سوء نية في مهاجمة نظام الحكم ،ثم

قال لـه :إن مـن الضروري أن يتـوافر لـلأدب هـذا القـدر مـن الحريـة ،لينقـل صـورة واقعية حقيقية عن المجتمع ،وإذا لم يجد الأدب هذا القدر من الحرية مات واضمحل تأثيره ،واستطاع ثروت عكاشة إقناع عبد الناصر بأن حرية الأدب هي أفضل دعاية للنظام في الخارج ،وبالفعل اقتنع عبد الناصر ،وقال للدكتور ثروت عكاشة :«اعتبر المسألة انتهت» ،وهكذا تراجع عبد الحكيم عامر عن تهديده بعقابي.

أما التناول الآخر من رجاء النقاش أيضا حول نفس القضية ،فيحتوي على تفاصيل أخري ذكرها له سامي شرف الذي يعتبره النقاش مرجعا صادقا وأمينا ، يقول النقاش:«بعد صدور رواية ثرثرة فوق النيل ،اتصل الفنان المعروف أحمد مظهر ،وهو صديق قديم وحميم لنجيب محفوظ بالأستاذ سامي شرف الذي كان مديرا لمكتب الرئيس عبد الناصر في ذلك الوقت ،وقال له :إن نجيب محفوظ يشعر بقلق شديد مما يسمعه من هجوم عليه وعلي رواية ثرثرة فوق النيل من جانب بعض المسئولين وعلي رأسهن المشير عامر ، وأن نجيب محفوظ لا يجد مبررا لهذا الغضب الرسمي عليه،فهو ليس بأي حال من الأحوال من أعداء الثورة ،وأن ما جاء في الرواية من نقد لبعض السلبيات هو نقد من داخل الثورة وليس من خرجها ،أي أنه نقد ايجابي يهدف إلى تصحيح بعض لأخطاء الواضحة حتى تسير سفينة البلاد دون كوارث أو أزمات ،وهذا هو واجب أديب كبير صاحب ضمير وطني مثل نجيب محفوظ .

وطلب الفنان أحمد مظهر من السيد سـمي شرف أن يتفضل بعرض الموضوع على الرئيس عبد الناصر ،والرئيس يعرف أحمد مظهر جيدا ،فقد كان زميلا له في الكلية الحربية ،كما كان واحدا من الضباط لأحرار كمل هو معروف ،وقد كلفه عبد الناصر قبل الثورة ببعض الاتصالات السياسية ،خاصة أن أحمد مظهر كان متزوجا من ابنة وزير الخارجية الشهير في عهد الوفد الدكتور محمد صلاح الدين .

يضيف رجاء :استجاب السيد سامي شرف لما طلبه أحمد مظهر من عرض موضوع رواية ثرثرة فوق النيل على الرئيس عبد الناصر ،وكان السيد سامي شرف يعلم أن هناك غضبا ضد الرواية بين عدد من كبار رجال السلطة في ذلك الوقت ، وكانت بداية الغضب الشديد من عند صلاح نصر رئيس المخابرات آنذاك ،ومعه مسئولون آخرون مثل شمس بدران ،وتم تصعيد الغضب إلى المشير عامر ،ومعني هذا أن نسبة الغضب على الرواية كانت أعلي بكثير مما تصوره نجيب محفوظ وأحمد مظهر ،وكان هناك مسئولون كبار آخرون في مواقع السلطة من الغاضبين على الرواية والمطالبين بالتصرف معها ،ولم يكن التصرف يعني بالطبع سوي المصادرة ثم توقيع جزاء مناسب على نجيب محفوظ ،والله وحده يعلم ماذا يمكن أن يكون مثل العقاب الذي كان يدور في خاطر رجال أشداء لهم كلمة مسموعة ونفوذ واسع في ذلك الوقت مثل صلاح نصر وشمس بدران ،فضلا عن المشير عامر.

عرض سامي شرف الموضوع بكل تفاصيله على الرئيس عبد الناصر ،وأوضح أمامه قلق نجيب محفوظ ،وصورة من غضب المسؤولين الثائرين على الرواية ،فماذا قال عبد الناصر بعد ذلك حسب ما يذكره النقاش نقلا عن سامي شرف؟.

قال عبد الناصر:

إحنا عندنا كام نجيب محفوظ ؟ انه فريد في مكانته وقيمته وموهبته ،ومن واجبنا أن نحرص عليه كما نحرص على أي تراث قومي وطني يخص مصر والمصريين .

نجيب محفوظ لم يثبت عليه أبدا سوء نية تجاه الثورة مثل غيره من بعض الكتاب المعروفين،وأضاف عبد الناصر،الأهم من ذلك كله ،أن الرواية فيها نقد ،وأن النقد الذي تنطوي عليه صحيح ،وأن علينا أن نعترف بوجود السلبيات التي تشير إليها ، ونعمل على الخلاص منها بدلا من أن نضع رأسنا في الرمال وننكر حقيقة ما تنبهنا إليه الرواية ،وكأنه غير موجود ..رغم أنه موجود ونحن نعترف بيننا وبين أنفسنا

بذلك.

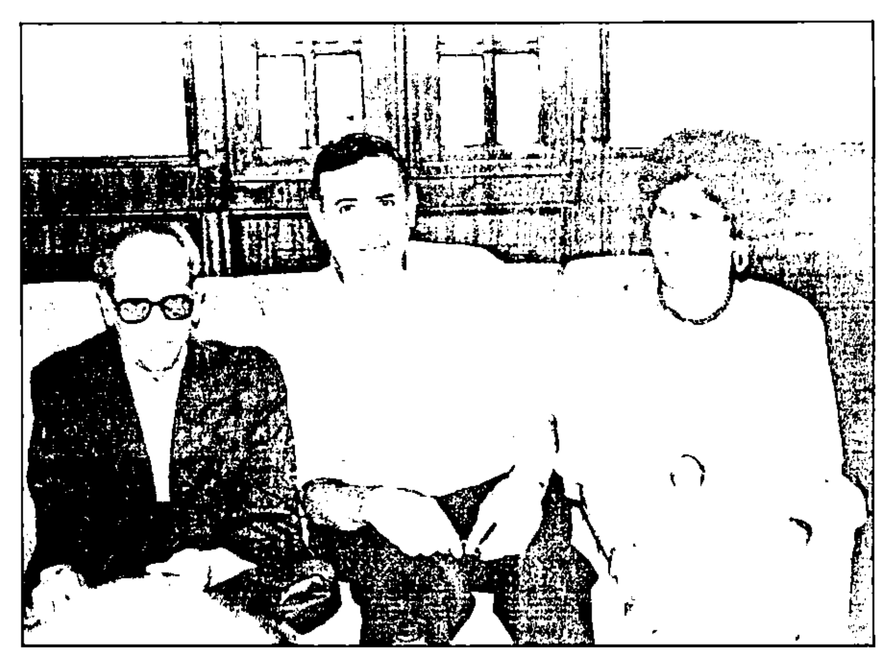
التقي عبد الناصر والمشير عامر ، وفي اللقاء طلب عبد الناصر من عامر استبعاد أي إجراء سلبي في حق الرواية وكاتبها الكبير وانتهي الأمر[1] .



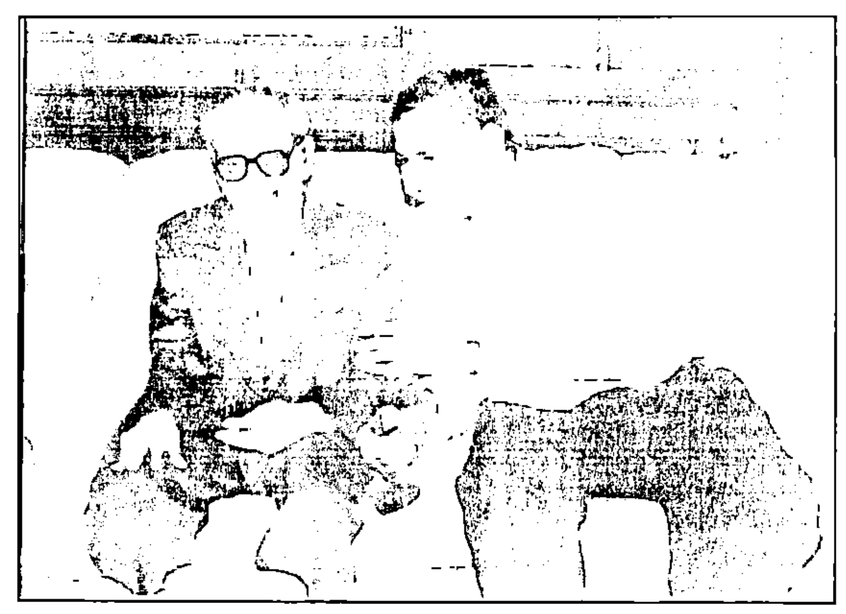
نجيب محفوظ وخالد جمال عبد الناصر

(١) ملحوظة : بعض الوقائع التاريخية التي سردها الأستاذ نجيب محفوظ في الجلسة تم تدقيقها وضبطها مع سرده لها في مذكراته مع الكاتب والناقد رجاء النقاش ..رحم الله الاثنين.

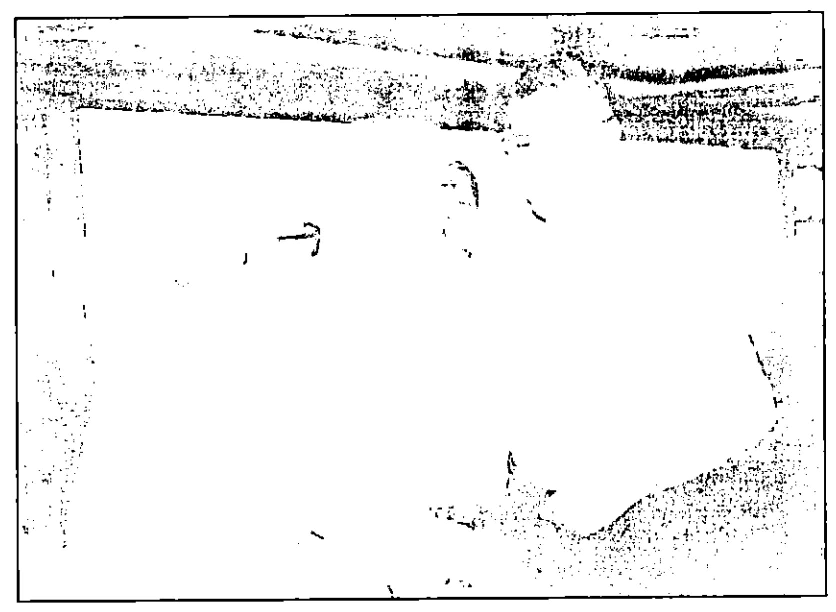
- فاز نجيب محفوظ بجائزة مبارك في أول عام تم الإعلان عنها.



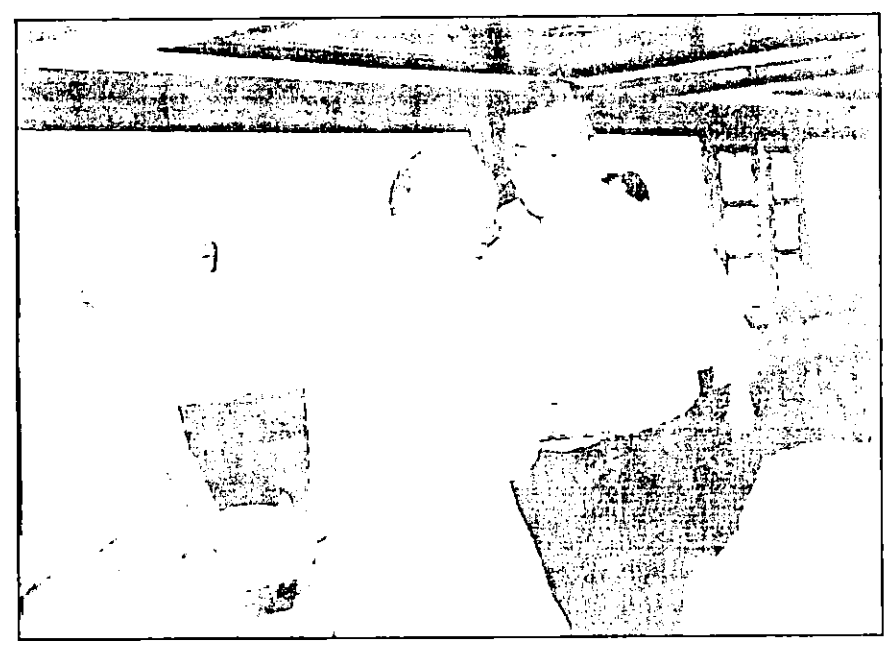
خالد عبد الناصر بين الإعلامية فريدة الشوباشي ونجيب محفوظ



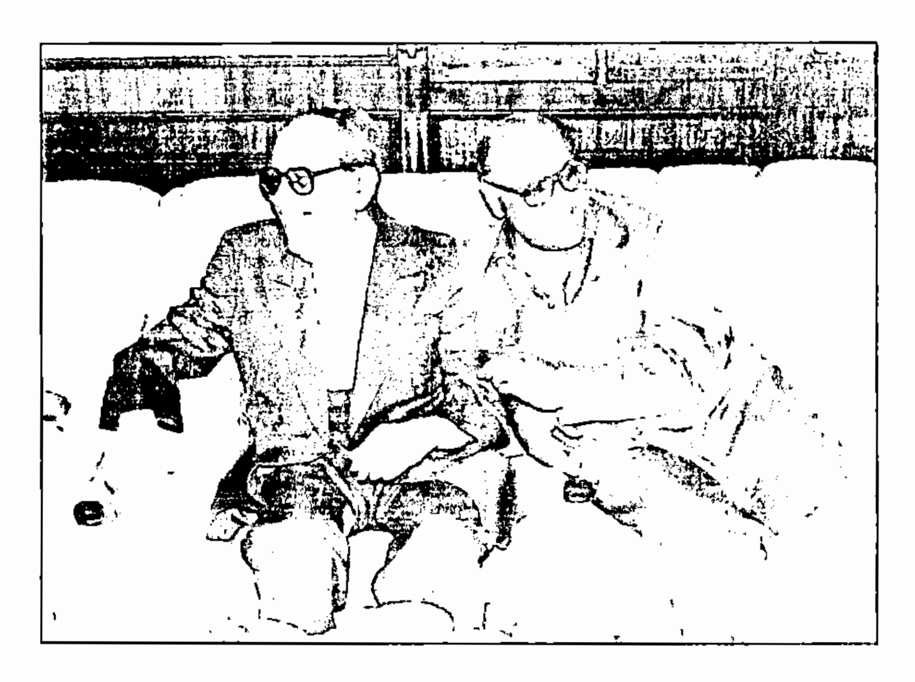
خالد عبد الناصر ونجيب محفوظ في وصلة ضحك



ترحيب متبادل من خالد ونجيب وجمال الغيطاني



نجيب محفوظ واقفا لاستقبال خالد عبد الناصر .. والغيطاني يرحب بخالد



يوسف القعيد في وصلة ضحك مع نجيب محفوظ



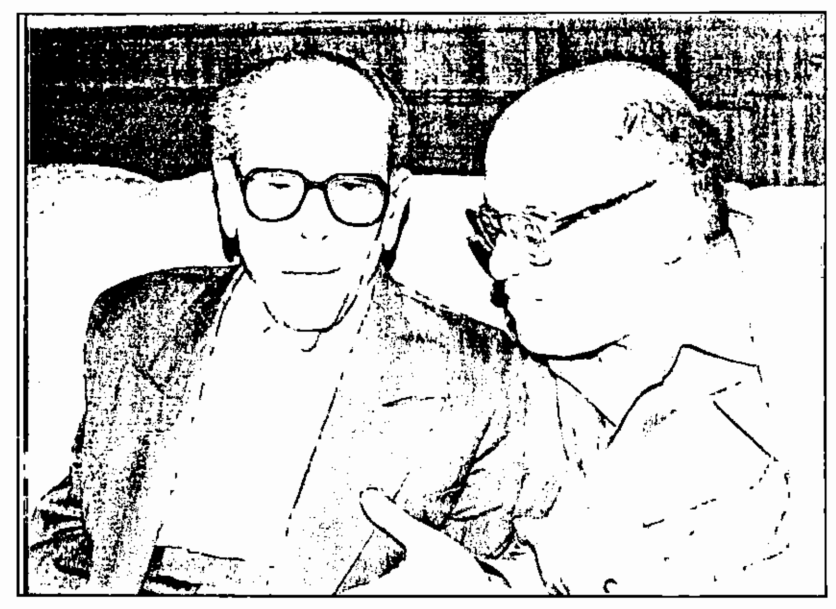
نجيب محفوظ يتوسط خالد عبد الناصر والدكتور ذكي سالم



خالد والغيطاني يتحدثان



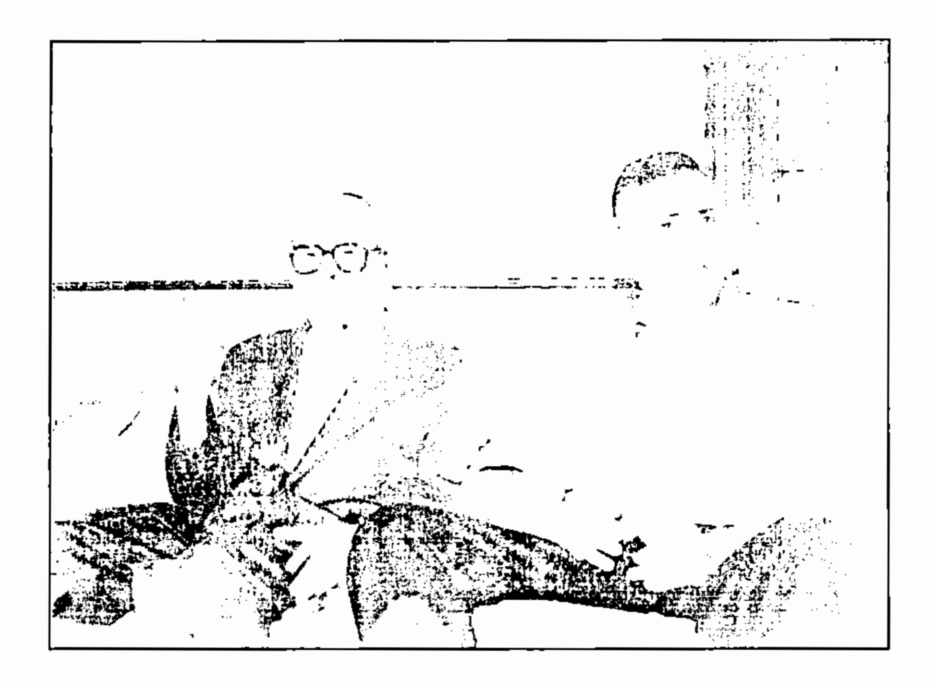
خالد يتابع باهتمام الحديث الدائر في الجلسة



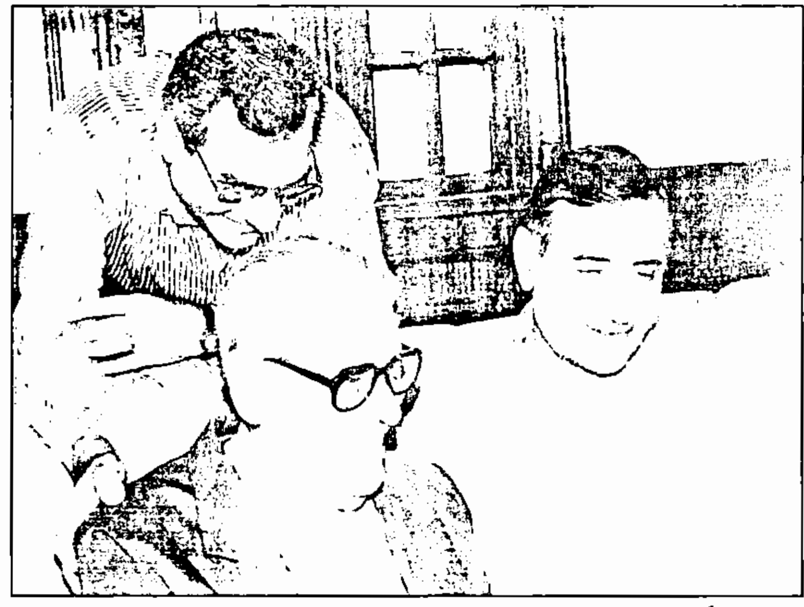
القعيد يشرح لنجيب أهم الأخبار



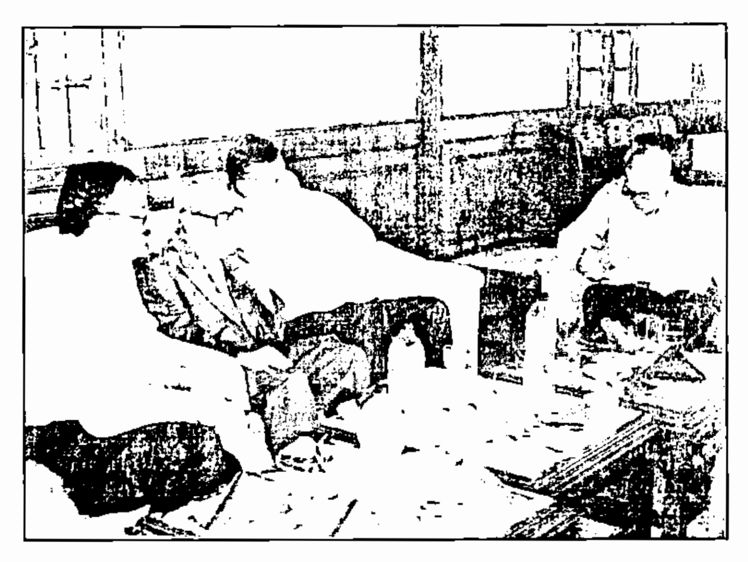
نجيب محفوظ وخالد عبد الناصر



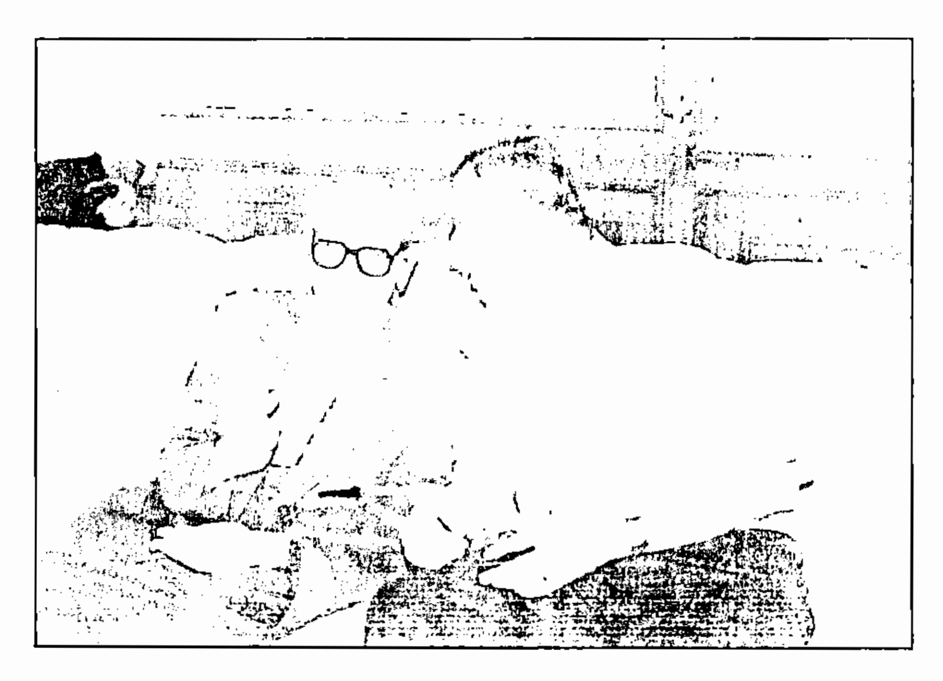
نجيب وخالد



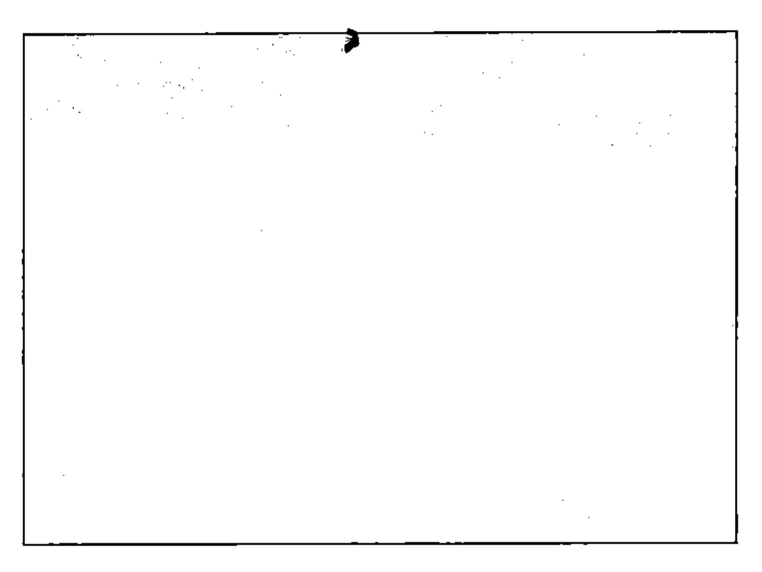
أمين اسكندر يداعب نجيب محفوظ وخالد عبد الناصر



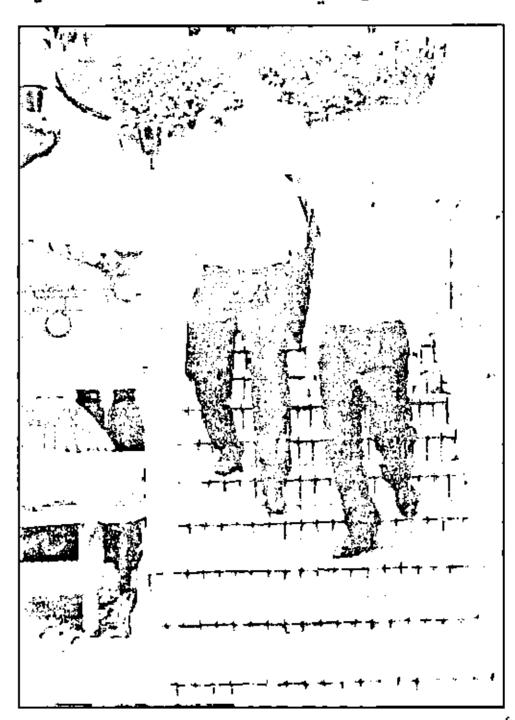
ضحك من الغيطاني وذكي سالم .. ونجيب محفوظ يستمتع بسيجارته



خالد يهمس في أذن نجيب



خالد يدخل علي نجيب ، وبينهما الغيطاني



خالد عبد الناصر وأمين اسكندر وخلفهما سعيد الشحات في طريق الخروج من المركب

الصور الخاصة بنجيب محفوظ وخالد.. تصوير محمد سليمان .. وأرشيف سعيد الشحات



بهاء طاهر

عشنا كل الخيانات في التاريخ

وكأننا نبحث عن شيء ما في داخلنا ولا نعرف ما هو،شيء غامض مجهول لا نستطيع الإمساك به ،ثم نعثر عليه حين يطل علينا بطل من حكايات بهاء طاهر الممتدة منذ مجموعته القصصية الأولى «الخطوبة»، مرورا بأعماله «أنا الملك جئت »، «وقالت ضحي »،«شرق النخيل »،«الحب في المنفي »،«نقطة النور» ،«واحة الغروب».

في المسيرة الروائية لأديبنا العظيم أشخاص حالمون ، ينهزمون حين يضيع منهم الحلم،ومع الهزيمة تأتي حكايات الانكسار التي تعيد طرح أسئلة من نوع :«لماذا حلمنا ؟،ولماذا ضاع الحلم من بين أيدينا ؟ماذا كسبنا ؟وماذا خسرنا ؟ .

تتلاحم كل هذه الأسئلة في لوحة تعطي تشريحا نفسيا واجتماعيا وسياسيا بالغ العمق لكل أبطال بهاء طاهر ،ويبلغ درجة تألقه معها إلى الحد الذي نتأكد معه أن هؤلاء الأبطال هم قطعة مني ومنك ،هم التاريخ الذي يقول روايته عبرهم ،وهم نتاج رؤية اجتمعت فيها كل تناقضات ظرف تاريخي معين ،فأعطت لنا صورة بشر عاشوا النصر عمرا قصيرا والهزيمة عمرًا طويلاً.

يكتب بهاء طاهر عن هزيمتنا وأحلامنا المجهضة بلغة شاعرية حزينة ، ولما سألته عن ذلك قال لي أنه يؤمن بمقولة الأديب الروسي تشيكوف: ..«عندما أكتب عن أشياء محزنة ،فأنا لا أدعوكم للبكاء ،وإنما أدعوكم إلى التفكير في السبب أو الأسباب التي دفعت هذه الشخصيات إلى أن تصبح على ما هي عليه».

من مقولة تشيكوف التي يؤمن بها بهاء، يمكن التقاط اللحظة التاريخية التي تدور فيها أحداث رواياته التي تطل منها رائحة التاريخ، خاصة رائعته «الحب في المنفي» ، التي نال بسببها جائزة «الزياتو» الإيطالية عام ٢٠٠٨،وهو أول أديب عربي يفوز بها،وروايته «واحة الغروب » التي فاز عنها بجائزة البوكر ،ومن قبلهما روايات « وقالت ضحي » ،وأنا الملك جئت ».

في عام ١٩٩٥ أصدر بهاء روايته « الحب في المنفي »، وجاءت مع اقتراب عودته من جنيف إلى مصر للاستقرار النهائي ، بعد رحلة اغتراب بدأت عام ١٩٨١ سافر خلالها إلى جنيف للعمل في الأمم المتحدة .

كانت غربة بهاء اضطرارية ،بعد مطاردة من السلطة «الساداتية» ،وهي المطاردة التي طالت آخرين غيره ،وبدأت أولي خطواتها في ١٥ مايو عام ١٩٧١ ، وهو اليوم الذي شهد حسم الصراع على السلطة لصالح الرئيس أنور السادات ،ضد مسئولين ووزراء من دولة عبد الناصر، الذين دخلوا السجون نتيجة هذا الصراع ،وكانت هذه الخطوة بداية لنهج سياسي من السادات ،وجد معارضة واسعة من الناصريين واليساريين ، ودفع الكثيرون من هؤلاء الثمن إما بالملاحقات الأمنية أو بالفصل من العمل ،واضطر البعض إلى الهجرة ، وكان بهاء ممن شملهم الغضب الساداتي ، فتم إبعاده عن عمله في الإذاعة ليسافر إلى سويسرا للعمل في الأمم المتحدة.

في الغربة لم يفارق بهاء بلده وتاريخه .حاول منذ خروجه ألا يكون ابتعاده اغترابا ، ورغم ذلك لم يعرف كما يقول:«إن كنت قد نجحت في ذلك أم لا ،غير أن كل ما كتبته في الغربة كان يقصد على وجه التحديد مصر وما يدور فيها» ، يضيف بهاء : «ضمت مجموعة «بالأمس حلمت بك « (١٩٨٤) بعض القصص التي كتبتها في الستينات والسبعينات ،ولكن قصة «العنوان» وهي أول قصة أتحدث فيها عن تجربة الغربة كانت يدا ممدودة إلى مصر ،أما مجموعة «أنا الملك جئت » (١٩٨٥) ،ورواية «قالت ضحي » (١٩٨٥) فقد كتبتا بالكامل في جنيف ،وهما أيضا عودة إلى مصر ، عودة إلى تاريخها القديم وواقعها المعاصر معا للبحث عن جوهرها النقي».

تظل «الحب في المنفي » أيقونة إبداعات بهاء في مرحلة الغربة ،واستقبلها القراء والنقاد بحفاوة بالغة ،جعلت ناقدا كبيرا بحجم الدكتور على الراعي يصفها بالرواية « كاملة الأوصاف » في مقال له بالأهرام ، وحملتني هذه الرواية إلى عالم

بهاء الروائي المتسع ، وكانت بالنسبة لي مفتاحي الأول في محاولة فهم هـذا العـالم المليء بالشجن والانكسار .

قرأت أعمالـه الكاملـة أكثـر مـن مـرة وأمـدني هـو بمجموعتـه الأولي «الخطوبـة»، وحين كتبت عـام ١٩٩٦ عـن «الحـب في المنفـي » في جريـدة « العـربي » لسـان حـال الحزب الناصري ،والتي كنت أعمل فيها وقتئذ ، جاء صـوته عـبر التليفـون يسـألني عن عمري وهمي الذي بدا كما قال لي فيها كتبته ،كان عمري وقتئـذ ٣٥ عامـا ،وكـان هو مشغولا بالشريحة العمرية التي قرأت وتفاعلـت مـع الروايـة التـي تـروي مأسـاة جيل أكبر من جيلي ، وهو الجيل الذي عاش وتفاعـل مـع الحلـم الكبـير لجـمال عبـد النـاصر ، قـال لي :« أنـا مشـغول بتفسـير سـبب إقبـال قـراء صـغار السـن في مطلـع العشرينات مثلا على الراوية ،دار النشر قالت لي : إن هؤلاء هم أكثر الذين يسـألون عنها ،أسعدني ذلك لأنه يغير ما كنت أعتقده ،بأن هذه الأجيال لم تعد حريصـة عـلى القراءة ».

تبادلت الرأي مع الأستاذ بهاء حول ما يقوله،ومن الكلام عرف أنني أعـيش في إحدى قري محافظة القليوبية رغـم عمـلي في الصـحافة ،وأن فيهـا شـبابا أقـدموا عـلى قراءة الرواية فور صدورها ،فسألني عن وعي هؤلاء الشباب .هل مـازال يشـغلهم قضايا السياسة .ما هي ظروف القرية في ظل التحـولات الاقتصـادية والسياسـية ؟. هل يوجد فيها نشاط حزبي أم لا ؟

شرحت لـه عـن تجربـة سياسـية وثقافيـة نقودهـا في قريتنـا ،ويقـوم عليهـا شـباب ينتمي إلى الفكر الناصري ،وفي مسار التجربة نظمنا أنشطة اجتماعيـة خيريـة ،ومعهـا ندوات ولقاءات جماهيرية مع رموز سياسية وثقافية ،مثل خالد جمال عبد الناصر ،و خالد محي الـدين ،و حمـدين صـباحي ، والـدكتور حسـام عيسي ،وغـيرهم ،ونظمنـا ندوة جماهيرية ،للكاتب المبدع أسامة أنور عكاشة ،ومعه نجوم مـن مسلسـله الخالـد

«ليالي الحلمية» مثل الفنانين سيد عبد الكريم وسيد عزمي، وحضرها آلاف دخلوا في مناقشات ساخنة مع النجوم الثلاثة حول المسلسل .

وأطلعته على أننا نظمنا لأعوام متتالية في مطلع التسعينات أسبوعا في الأجازة الصيفية ،كان عبارة عن معرض خيري يتم فيه بيع منتجات خاصة بالعام الدراسي الجديد بهامش ربح يتم توجيهه في النهاية إلى الطلاب الفقراء في المدرسة ،ولم يكن نشاط الأسبوع تجاريا واجتماعيا فقط ، ففي نهاية كل يوم فيه كنا ننظم برنامجا ثقافيا لشباب وأطفال القرية، يشمل الشعر والرسم والغناء وشارك فيها الشاعر جمال بخيت والفنان وجيه عزيز ،والفنان أحمد إسماعيل والكاتبة الصحفية أمينة شفيق، والناشطة في مجال العمل الأهلي سهام نجم ، والكاتبة فتحية العسال التي شرحت لفتيات من القرية عن تجربتها في التعليم والتي بدأت بمحو أميتها،وكان لهذا شرارة البدء في إقدام فتيات ممن استمعن إليها على خوض تجربة محو الأمية ، وقلت له : إن هذا النشاط افتتحه في عامه الأول الفنانة فردوس عبد الحميد ، التي غنت وتحدثت أمام الآلاف ،و افتتحته في العام التالي الفنانة سهير المرشدي .

كان بهاء يسمعني باهتمام بالغ ، ويستفسر :«كيف توفقون بين هذا النشاط وبين عملكم ؟،وهل تضايقكم الأجهزة الأمنية ؟،وهل تلمسون نتائج ايجابية ؟،وهل تحرصون جميعا على قراءة الأدب ؟،كان يسأل وكنت أجيب ،وكنت أشعر كما لو أنه يستقبل كلامي حول تجربة قريتي ،وكأنها تدخل في صميم سؤاله المؤثر والذي جاء على لسان بطل « الحب في المنفي » :« ماذ لو أننا بالفعل قد عشن الثورة التي نتكلم عنها ؟.. لو أنا قد عدنا لقرانا أو لأحيائنا الفقيرة نعيش مع أهلنا دون خطب ودون شعارات ؟..هل كان كل شئ سيموت بالفعل؟».

* طفولة بلا ترف .

انتهت مكالمة بهاء الطيبة والدافئة، وترتب عليها لقاءات معه ، اسأله وأسمع منه ،

كان من بينها لقاء على مقهي الحميدية بباب اللوق شتاء عام ١٩٩٧ ،احتفظت به دون أن أنشره صحفيا ،وشمل أسئلة عديدة عما أحب أن أكتشفه في رموزنا المؤثرة ، وأعني بذلك معرفة حياة الطفولة والصبا والشباب ،وكيفية تكوين الوعي ،ودور الأب والأم وتأثير البيئة ،وبرغم أن بهاء تناول قدرا من هذه الجوانب في مستهل روايته البديعة « خالتي صفية والدير » إلا أن الاستماع إليه كان بالنسبة لي متعة كبيرة ، فالذكريات الأولي تعيد الإنسان إلى بدايته بحنين بالغ كلما تقدم به العمر ،كما أنها تمثل متعة في الحكي خاصة عند الذين لديهم القدرة على استدعاء التفاصيل ووضعها في سياق إنساني واجتماعي شامل.

كان بهاء يهز رأسه قليلا ،وكأنه يعيش تفاصيل كل لحظة يرويها لي رغم مرور عشرات السنين عليها ،ومن هناك ،من طفولته ذهب سؤالي ،وعاد هو إلى الوراء قائلا: « ولدت في أسرة متوسطة الحال تقترب أكثر من حد الفقر ،وانتقلت إلى الفقر بخروج الوالد إلى المعاش الذي تزامن مع موجة الغلاء التي عمت مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ،لم أعرف في طفولتي أي نوع للترف الذي يعرفه الأطفال عادة ، كان المهم الأساسي أن نأكل ونشرب ، وهو ترفنا في نفس الوقت،مما وفر لي أهم تسلية ،تلك المتمثلة في الجلوس حول موقد النار للتدفئة من برد الشتاء وسماع حكايات الأم المسلية».

أضاف بهاء : «أقول لك شيئا مهما بالنسبة لجيلنا هو ، أن ظروفنا المالية كانت تعيسة لكن كان هناك إصرار كبير على الالتحاق بالتعليم ،كان من السهل أن يقال لنا اجلسوا من التعليم ، لكن والدي كان يضغط المصاريف والإنفاق حتى نستكمل تعليمنا ،لا أنسي أبدا ما كان يفعله في أول كل شهر ،كنت أراه يمسك ورقة وقلما ليحسب ميزانية المعيشة ،مما زادني شعورا باحترامه يصل إلى حد إحجامي عن طلب أي شيء لنفسي ،كان مشهده وهو يفعل ذلك تجسيدا لمعاناته من أجل استكمال

تعليمنا ».

كان بهاء يتحدث عن الأب بتأثر بالغ ..وشعرت معه وكأنه يتحدث عن الأمس القريب ،ليس من باب الحنين وفقط ،وإنما من باب التأمل لمعني تضحيات الآباء أملا في أن يجدوا الأبناء أفضل منهم :«بعد إحالة أبي إلى التقاعد كان يعمل بين الحين والآخر في المدارس الدينية والمعاهد الأزهرية،وحين كان يعود من العمل في الظهيرة للنوم ،لو رميت الإبرة يسمعها الجميع ،توجيهاته كانت أوامر ،والنواهي أوامر أيضا ،وما أذكره له بكل حب انه كان يغفر لنا الأخطاء بما فيها تلك التي تستحق عقابا شديدا مثل تدخين السجائر ،لكنه لم يكن يغفر أبدا الكذب ،كان الكذب عنده هو الجريمة الكبرى، وأنا في هذه السن أستطيع أن أقول وأنا راضي النفس ،أنني لم أكذب في حياتي العملية ولا الخاصة ،والفضل يعود إليه».

يواصل بهاء: «ما أذكره لوالدي انه كان رجل شديد الإيمان والتدين دون تعصب ، كان له أصدقاء مسيحيون ،وانعكس هذا علينا ونحن أطفال فلم نفرق بين أصدقاء أبي على أساس الديانة ،ونما هذا الأمر معي فيما بعد ، كان الأب وقتئذ صورة السلطة التي تعطي الأوامر ،وتحدد النواهي ،لم يكن هناك إطلاقا إمكانية الحوار بين الآباء والأبناء ،الشيء الذي أتأسف عليه حقا أن تلك الصورة لم تجعلني أقيم بيني وبينه صداقة ،لكنها كانت سمة العصر.عليك واجبات في البنوة ،وتبقي واجباته هو في الأبوة ،لم يكن هناك مجال في تلك العلاقة لقيام صداقة أو مصارحة ،وأحكي لك مثالا ..كنت أقرأ روايات الجيب ،وأخفي عنه ذلك لأنها من وجهة نظره تعطلني عن المذاكرة ،وان أردت التثقيف فعلي قراءة الأصمعي وغيره.»

تحدث أديبنا الكبير عن بدايات التكوين الأدبي والسياسي،وكيف لعب الأب دوره بطريق غير مباشر :«لم يتدخل بشكل مباشر في تكويني الثقافي إلا بالمكتبة والقيم،وأحن إلى ذلك كثيرا وهو غير موجود الآن ، كان في البيت مكتبة فاخرة

تشغل حجرتين ،أنفق كل أمواله عليها ،عكس ما كان يفعله الآخرون بالانفاق على شراء العقارات ،احتوت المكتبة على كنوز الكتب ،منها تفاسير البخاري ،ومقدمة ابن خلدون ،وألف ليلة وليلة ،ولم تحتوي على كتب أدبية حديثة ،ولسبب لا أدريه كان فيها مسرحيات أحمد شوقي ،وأول عمل قرأته من المكتبة،كان مسرحية «مصرع كليوباترا،وكليلة ودمنة المصورة ،لم نكن نفتح الراديو إلا بإذنه ،ومن أجمل لحظاتنا الالتفاف حوله للاستماع إلى صوت أم كلثوم في حفلتها ليل الخميس الأول من كل شهر ».

يواصل بهاء : «ذكرني أخوتي أنني كنت أكره هتلر جدا وأنا في الخامسة من عمري ، وكان ممنوع علينا كأطفال أن نعبر شريط الترام لوجود معسكر لجنود الإنجليز الذين كانوا يعتدون على الناس وهم سكاري ،وكان ذلك أول مكونات الوعي عندي بأننا بلد محتل ،كنا كأطفال نخاف من الجنود الإنجليز بوجوههم الحمراء وملابس الشورت ،وبمجرد مشاهداتهم نجري للاختفاء».

«كان والدي وفديا وترك حزب الوفد بعد توقف ثورة ١٩١٩ ،وظل يحمل عتابا شديدا لسعد زغلول ومصفي النحاس لوقف الثورة الشعبية،ومسئوليتهما عن ذلك ، ويبدو انه كان مشاركا فيها أثناء دراسته في الأزهر،عرفت هذا من بعض ما قالته لي أمي ،أما هو فلم يكن يحدثني أبدا عن أي تفاصيل حول هذا الموضوع» .

يتذكر بهاء:«كان التعليم هو الوطنية التي يحرص أبي على غرسها في أبنائه، وبالتالي كان الاشتراك في المظاهرات ،وما يستتبع ذلك من احتمالات الفصل من الدراسة هو الكارثة العظمي،وفي مرحلة الثانوية بمدرسة السعيدية بدأ عندى تبلور الوعي المعادي للاستعمار ،وشاركت في مظاهرات ضد الحكومات المضادة للوفد ،كما شاركت أنا وأخي الأكبر في المظاهرات المضادة لحكومة صدقي ، شارك أخي في إضراب كلية الطب ،وكل ذلك دون علم الوالد» .

يصمت بهاء طاهر قليلا،ويهز رأسه خفيفا ،ثم يواصل استدعاء الماضي :«المرة الوحيدة التي رأيت فيها والدي يبكي ،كانت وأنا في الصف الأول الثانوي ،كان فارعا في طوله ،وجسمه رياضيا ،يمارس رياضة المشي وهو في سن السبعين ،ويلعب رفع الأثقال ،كان صوته جميلا ،بل ملفت في جماله ،يستيقظ في الفجر ليتوضأ ثم يرتل القرآن بخلفية خبرته الكبيرة في علوم القراءات ، فينصت الجيران لصوته ، ويسألون عليه لو تخلف عن هذه العادة المنتظمة ، كانت علاقة أبي وأمي في البيت من المسلمات ،هي تطيع أوامره مثلنا ،تجهز الإفطار أو الغذاء ،وتقف حتي ينتهي هو من تناول طعامه ،ثم يأتي دورنا بعده ،ودورها بعدنا ،لم أكن أتخيل نوعية العلاقة بينهما ،كنت أتصور أنه يعاملها مثلما يعاملنا ،حتي جاء يوم مرضت فيه مرضا خطيرا ،فقال الطبيب له :« لو مر عليها ٤٨ ساعة محتمل أن تجتاز مرحلة الخطر» ، كانت أياما عصيبة، شاهدته خلالها في حجرته الخاصة بقراءة القرآن يفتح المصحف، ودموعه تنساب في صمت . ففهمت وقتئذ كم هي جميلة تلك العلاقة التي تربطهما» .

خزانة التاريخ.

كان الأب في بحثي عن ملامح تكوين بهاء طاهر هو الإطلالة الأولي في هذا العالم ،ومنه جاء الحديث إلى روافد أخري .وخاصة تأثره المبكر بالتاريخ الذي سألته عنه،وعن حضوره الواضح في رواياته فقال :«كنت رئيس الجمعية التاريخية في المدرسة ،وأذكر أنني ألقيت محاضرة عن مذبحة المماليك ،تعرضت فيها لمظالم عائلة محمد على ،فغضب مني ناظر المدرسة ،التاريخ عندي شيء معاصر ،فاللحظة التي نعيشها الآن مكوناتها موجودة في التاريخ الماضي ،ولهذا أرى أن كتابة التاريخ بإسقاط على الحاضر فيه قدر كبير من المزايدة، فاللحظة التاريخية الحالية جامعة لكل اللحظات التاريخية السابقة» .

يدلل بهاء على وجهة نظره قائلا :«حين كتبت عن التاريخ المصري القديم في «أنا الملك جئت» ،تصورت أنني أكتب عن قضية معاصرة جدا ،فقضية إخناتون والكهنة الذين انقلبوا عليه تشغلني كثيرا ،وليس صحيحا أنني حاولت من خلال إخناتون الإسقاط على عصر عبد الناصر أو عصر السادات ،ومخطئ من يقرأ العمل بهذا المعني ، أما في «وقالت ضحي » فكتبت عن إيزيس باعتبارها لحظة معاصرة ، التاريخ هو امتداد معاصر،أو ما أسميه «التاريخ.. اللحظة الحالية».

سألت بهاء عن المحطات التاريخية التي يراها فارقة بأحداثها وشخوصها ، والملهمة له روائيا ،فأجاب :«دائما يدور في ذهني حوار حول ما أسميته بـ«التاريخ .. اللحظة الحالية» ،وكما قلت فإن هذه اللحظة مازالت موجودة ،أنا دائم الحوار مع شخصيات التاريخ ،وأفكر في أسئلة من نوع ،ماذا لو لم يعمل أحمد عرابي سهرة ليلة معركة التل الكبير ؟،ماذا لو أخذ عرابي بنصيحة محمد عبيد بقتل الخديو توفيق ، وتعهده لعرابي أنه وحده يتحمل المسئولية الناتجة عن ذلك دون مشاركة من أحد »، ماذا عن الشيخ حسن العدوي شيخ الإسلام والمسلمين الذي أحضروه من السجن إلى المحاكمة بعد فشل الثورة العرابية ،وسألوه عما إذا كان أصدر فتوى بعزل الخديوي توفيق أم لا ؟، فأجاب :« لم تصدر مني فتوى في ذلك ، ولم أسأل في هذه المادة ،ومع ذلك إذا جئتموني الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإني أوقعه ، وما في وسعكم وأنتم مسلمون ، أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدين والوطن».

سألته عن جمال عبد الناصر ،فأخذ تنهيدة عميقة :« آه من عبد الناصر..مازالت كل أحداثه تشغلني ولم تفارقني بعد ،وأشعر أحيانا أنني لم أحل مشكلته معي في بعض القضايا ، ودائما أسال ،ماذا لو لم يضع ثقته في شخصية مثل عبد الحكيم عامر ؟ ماذا لو تعاون مع اليسار أكثر ولم يضع اليساريين في السجن ؟،ماذا لو مد يده أكثر

إلى المثقفين؟، ماذا لو اقترنت تجربته العظيمة بالديمقراطية ؟ .

كان بهاء يسأل ويسأل ،لكنها الأسئلة المعلقة بين السماء والأرض ،والواقفة على حافة الزمن فلا هي تعيد تصحيح روايات التاريخ ،ولا هي تلغي وقائعه المدونة ، لكنها كما يقول:« ترتبط بمنهجي في تناول التاريخ الذي يتمثل في لتقاط اللحظات التي تركت بصمتها على حياتنا المعاصرة ،وتلك اللحظات تمتد عندي على تاريخ مصر الذي أعرفه كله ،أعرفه من الظاهر بيبرس وعلي بك الكبير وقطز ومقلد يانوس ،ويهيء لي أن مصر هي الدولة الأنسب في العالم التي لا يموت فيها التاريخ ، فشواهده حية وباقية منذ أقدم العصور وحتى الآن ،وتراثه الإنساني مازلنا نعيشه في المناطق التي حافظت بشكل أو بآخر على تراثها كما في بعض مناطق الريف المصري في الشمال والجنوب».

أسئلة بهاء المؤلمة ،والمعلقة على كلمة «لو»بكل ما تحمله من مرارة النتائج التي ترتبت على أحداث تاريخية ضربتنا في العمق ،يستخلص منها معني عميق لخصه في قوله :«مازلنا نعيش صراع إخناتون مع الكهنة، وكل الخيانات في لتاريخ».

أما مجمل كلامه فجاء متزامنا مع الأجواء المرحبة والفرحة برواية « الحب في المنفي» والمسلسل الدرامي « خالتي صفية والدير » المأخوذ من روايته بنفس العنوان ، ثم عودته نهائيا إلى القاهرة للاستقرار بعد أن أمضي فترة غربته بالعمل في جنيف. ، وبعد ما يزيد عن عشر سنوات من ذلك وبالتحديد في عام ٢٠٠٧ كتب روايته الرائعة «واحة الغروب »،ومع تتبع قراءاتي لها شعرت أن « الحب في المنفي » تطاردني.. وحين عدت إلى حواري معه في مقهي الحميدية عام ١٩٩٧ وجدت في إجاباته إشاراته عن الثورة العرابية وأبطالها والخيانة التي أدت إلى فشلها ،فهل كان ذلك مؤشر لانشغاله بالحدث تمهيدا لكتابة « واحة الغروب »؟ .

***

مطاردة بين الروايتين

أيا كانت الإجابة، من المؤكد ومع تتبع مشروع بهاء الأدبي سنكتشف أن أحداث تاريخنا الكبرى هي مصدر إلهامه الأول ،ومن هذه الزاوية أعود إلى سؤالي .. كيف طاردتني «الحب في المنفي »،وأنا أقرأ « واحة الغروب »؟ .

في الروايتين ،غدر وهدر ،حب وخيانة ، أحداث تاريخية نهايتها عكس بداياتها ، وإذا كان بهاء يمتلك براعة كبيرة في اختياره الدائم للحظات المفصلية في تاريخنا لينسج من خلالها عالم حكاياته،فإنه يقفز أكثر بهذه البراعة في الروايتين ، التي اختار لهما حدثين بارزين في تاريخ مصر المعاصر، كانا بمثابة محطتي التوزيع للسرد الروائي فيهما ، فمن الأحلام العريضة التي تولدت مع ثورة يوليو عام ١٩٥٢ بزعامة جمال عبد الناصر ،والانكسارات التي حلت بعد رحيله، جاءت «الحب في المنفي »،أما «واحة الغروب» فجاءت من الثورة العرابية بزعامة أحمد عرابي ، والانكسارات التي عششت في النفوس بفشلها الذي قاد إلى الاحتلال الإنجليزي لمصر ،وكأن بهاء بذلك يريد أن يقول لنا أن التاريخ رواية ممتدة من زاوية أن مصر لم تعثر على طريقها بعد .

في «الحب في المنفي » ،البطل هو شخصية «الراوي» الذي يعبر عنه بهاء بضمير المتكلم ،يبدو وكأنه «الضابط محمود » في رواية «واحة الغروب »، فكلاهما من قماشة واحدة رغم الفرق الزمني بينهما ،والذي يصل إلى ما يقرب من قرن كامل ، قماشة تم نسجها بإحكام من خيوط الحالة العامة التي عاشها الوطن لحظة الفعل للثورتين ،وأصبح عليها بعد انتهاء هذا الفعل ، كلاهما عاش وأنغمس بإيمان مع ثورة،وكلاهما انكسر مع ضياع أهداف هذه الثورة ،وكلاهما عاد إلى طرح أسئلته الأولي بعد أن ظن انه عثر على الإجابة عليها لحظة القيام بهذا الفعل الثوري .

في الشخصيتين وكعادة بهاء يتم الغوص في التضاريس الإنسانية والنفسية ،لنري

ملامحا كاملا لتكوينهما منذ النشأة مرورا بباقي مراحل العمر، والإمساك بهذا الغوص يكشف عن أن تكوين الشخص لا يأتي فقط من مجرد تراكم في المعرفة والفكر مثلا ،وإنما هناك ظروف النشأة في المحيط الأسري الضيق ،والمحيط الاجتماعي الأوسع ،وتلعب كل هذه المسائل أدوارها في التكوين، لتعطي لنا في النهاية شخصيات بطعم ولون محدد،شخصيات قد تخون حلمها الذي آمنت به بقناعات أيدلوجية في فترة ما ،ثم تنقلب إلى النقيض حين تدهس الأحداث هذا الحلم ، ولو قلبنا في الأسباب سنجد أنها كانت مخبأة في التكوين الإنساني لهذه الشخصيات.

ورغم أن بهاء يتميز دائما بهذا النهج في بناء شخصياته الروائية ،فإننا نلحظه أكثر وأعمق في الروايتين، بالدرجة التي لا ينفع معها الإتيان ب« مزورة الأيدلوجيا » لقياس التطور الدرامي لهما ،فهو يعطينا روايتين إنسانيتين بامتياز، رغم أنهما ترتديان ثياب مطرز بأحداث تاريخية كبري حددت مصير مصر منذ عام ١٨٨١ ،وحتى وقوع مذبحة صبرا وشاتيلا عام ١٩٨١ .

«الراوي» ،والضابط محمود، هما اللاعبان الرئيسيان على مسرح الأحداث في الروايتين ،وهما نقطة الارتكاز للحدث الروائي ،وتتفاعل معهما باقي الشخصيات رغم اختلاف المساحة الزمنية لكل شخصية ،وتلعب البيئة دورها الرئيسي في البناء الدرامي للروايتين ،فمن عالم الغربة تأتي الإطلالة على الماضي والحاضر،الماضي الذي يختزن وهج الحلم ثم انكساره ،والحضر المسكون بكل هذا المخزون فتأتي منه الحسرة على ما كان ، ورغم أن البيئة الجغرافية لرواية « الحب في المنفي » ليست هي بيئة « واحة الغروب »، فالأولى ينطلق مسرح أحداثها من أوروبا ،والثانية ينطلق مسرح أحداثها من « واحة سيوة »،إلا أن الغربة عن الزمان والمكان والنفس ،تبدو أقرب إلى القواسم المشتركة للشخصيات اللاعبة على مسرح الرو يتين .

يلتقط بهاء طاهر في « الحب والمنفي » مذبحة «صبرا وشاتيلا »التي ارتكبتها إسرائيل ضد الفلسطينيين في لبنان أثناء حصارها لبيروت عام ١٩٨١ ،ومن خلالها يسبح بشجن نبيل من خلال بطل الرواية في مأساة جيل عاش أحلاما عظيمة مع جمال عبد الناصر ،وعاش الانكسار بعده ،وكانت المذبحة تتويجا لضياع أحلامه .

جيل عاش لحظتين ومأساة واحدة ،لحظة غني فيها راديو القاهرة لشعوب «كالبشائر تنبت الأزهار في قلب المجازر»،غني لبورسعيد في المقاومة ضد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ،و لشعب الجزائر في مقاومته للاستعمار الفرنسي حتى نال استقلاله عام ١٩٦٢ ،و غني لشعب الملايو ،لحظة كانت الصحف تقول فيها :«أن انتصار الناس في أي بلد يعني الحرية لنا ،وبالتالي كان البكاء شاهد اعلي قتل لومومبا زعيم الكونغو على يد البلجيكيين وأعوانهم ،وكان شجيا من«صديق حين يسمع قصيدة: «الأطفال في بلدي يموتون جوعا، والأسماك في البحر تشرب القهوة ».

تجمدت الدموع بعد ذلك ،ولم تعد تسيل حزنا على الشهداء ،أو تحسرا على الكرامة ،وإنما بسبب إدمان النظر إلى التليفزيون،وتلك هي خلاصة اللحظة الثانية في مأساة هذا الجيل ، الذي يصف حالته واحد منه هو إبراهيم الصحفي الماركسي بقوله: «جيل توقف نموه ».

ويلتقط بهاء في « واحة الغروب » حادثة تفجير معبد «أم عبيدة» في واحة سيوة عام ١٨٩٧ ،وينسب هذا التفجير إلى مأمور القسم بالواحة ،واسمه محمود عزمي ، أخذ بهاء هذه الحادثة الحقيقية التي تركت آثارها حتي الآن على الواحة، وبني عليها أحداث روايته ،كان هدم المعبد في الرواية تتويجا لمأساة جيل وجد نفسه فجأة أمام احتلال إنجليزي بدأ لبلاده ، بالخيانة التي أدت إلى هزيمة الثورة العرابية، فازدحمت عليه الأسئلة دون أن يحصل على إجابة عليها ،والضابط محمود هو رمز لهذا الجيل الذي عبر عن ضياعه بنسف المعبد الذي يرمز إلى الماضي .

في « الحب في المنفي »،التقي إبراهيم ،و«الراوي » خارج مصر وتحديدا في أوروبا ، سافر إليها «الراوي » مديرا لمكتب صحيفته ،وكان هذا بمثابة عملية استبعاد مقصودة ، تاركا وراءه نشاطا سياسيا مارسه في دولة عبد الناصر من خلال موقعه في الاتحاد الاشتراكي،ومجدا صحفيا جعله قريبا من موقع رئيس التحرير ، لكنه لم يصل إليه ،فلما جاء السادات ووجه ضربة مؤلمة بالقبض على رموز دولة عبدالناصر وإيداعهم السجون ضاع كل شيء ، وأصبح المستشار الذي لا يستشيره أحد ، وأصبح «الراوي » رمزا للدفاع عن لزعيم الراحل أمام الهجمة الإعلامية الشرسة التي سمح بها السادات ضد عبد الناصر.

أما إبراهيم فسافر إلى أوربا كمحطة في اغترابه التي شملت دولا عربية رافضة للسادات ، التقي الاثنان، وكل منهما يجر خيبته في حلمه العام والشخصي ،وتدور الحوارات بينهما على خلفية ما كان من خلافات حول نهج عبد الناصر.

جاء إبراهيم في « الحب في المنفى » نموذجا للمناضل الماركسي الذي عاش متفائلا بفضل قناعاته النظرية التي تقود إلى «الحتميات » في كل شيء، وجاء موازيا للبطل «الناصري» الذي لم نعرف له اسما ،،إنما جعله المؤلف «راويا» ،مما أدي إلى الشعور بأن بهاء يكتب عن نفسه وحلمه ، يكتب عن كل جيله ، وأكسب هذا الشعور الذي يصل إلى حد الحقيقة مصداقية هائلة في الحكي والتطور الدرامي لكل شخصيات الرواية ، وخلق التوازي بين «الراوي » «الناصري» وإبراهيم «الماركسي» ،مساحة مدهشة في الحكي بلغة سردية جميلة .

التقي « الراوي » مع إبراهيم بعد فراق سنوات ،ليتجدد الصراع بينهما على أيهما كان أصوب في قناعاته، على الرغم من شعورهما بأنهما شبحان من عصر مات ، فعبد الناصر لن يبعث من جديد ،وعمال العالم لن يتحدوا ،و يلخص «الراوي» ما كان بينهما بقوله:« كان هو ماركسيا متحمسا يقول : إنني مثالي وحالم ،وكان رأيي

فيه أنه متحجر وبعيد عن روح الناس ،أيامها كنت أقرأ ساطع الحصري والقوميين العرب ،واعتقدت مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غدا ،وعلقت فوق رأسي بالفعل في صالة التحرير الكبيرة التي تضمنا تلك العبارة من خطابه الشهير يوم الوحدة مع سوريا :«دولة عظمي تحمي ولا تهدد ،تصون ولا تبدد»،كتبها لي خطاط الصحيفة بخط كوفي جميل ،ووضعتها تحت خريطة الوطن الكبير ،وكان إبراهيم يحرص على أن أري ابتسامته، وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغراق في التأمل فأثور ويبدأ بيننا الجدل والشجار »

يصارح «الراوي» إبراهيم بأنه هو الذي منع مقاله الذي كتبه عن بيان ٣٠ مارس، وقال فيه أن الحكومة تتصور أن اليمين يمكن أن يخلص للثورة وأنه ممكن أن ينفذ الإصلاحات ،فيرد إبراهيم :« انزل الآن يا صديقي إلى أي شارع في القاهرة واسأل الناس عن بيان ٣٠ مارس ،إن وجدت في مصر كلها عشرة أشخاص يذكرون هذا البيان فتعال نتحاسب ،يا سيدي أين نحن من تلك الأيام ،ارجع لنا هذا الزمن ثم أوقفني عن الكتابة كما تشاء ،هل يرضيك أن أقول إنني أخطأت حين كتبت هذا المقال ؟..كان معك حق في كل ما قلته عن عبد الناصر أيامها وكنت أنا المخطئ».

ويصل «الراوي » إلى ذروة الاتهام لإبراهيم :«أراد أن يغير الحياة في بلادنا فحاربتموه أنتم وغيركم »،فيرد إبراهيم بحدة:«كيف حاربناه نحن وأين حاربناه؟ في معتقل الواحات أو في معتقل القناطر ؟ أو ربما نكون نحن الذين حاربناه في اليمن وسيناء دون أن أدري ..انظر إلى الأمور كما هي يا صديقي ،لم نكن نحن أبدا السبب فيما حدث ..بل ها نحن ندافع عنه الآن رغم كل ما جري لنا»

و تبدو هذه الحوارات في مستهلها أقرب إلى تصفية الحسابات ،إلا أنها تنتهي عند نقطة جامعة ،وهي أن كلا منهما متشبث بيقينه لكي لا ينتهي عالمه ،لكي لا يضيع

الحلم الذي دفعا فيه عمرا بأكمله ،وفي الحوارات يظهر بعمق أن انكسار الأحلام لا يأتي من الهزيمة العامة وفقط ،وإنما أيضـا من محن شخصية أخري يساهم فيها التكوين الشخصي والاجتماعي لهما،فمع ضراوة الاشتباك بينهما في حوارات السياسة والفكر ،يطاردهما أيضا الطفل فيهما .

يسأل إبراهيم نفسه :« متي بدأت همومي ..هل كانت أمي هي السبب ؟..ربما .. هي أول حزن وعيت عليه في حياتي دون أن أفهم سببه ».

يتحدث إبراهيم عن أمه المسكينة المنكسرة ،ويذكر أنه كان يعرف وهو صغير جدا أن والده (مالك الأرض) يخونها .وشاهده وهو في الخامسة من عمره وهو فوق إحدى النساء ، ولما جري إلى أمه حتي يقول لها ما شاهده ،شعر أنه يمكن أن يقتلها : «كانت هشة كالفراشة »،وما بقي من هذه المأساة عند إبراهيم سؤال لم يغادره أبدا ولم يعثر على إجابته:«ما الذي فعله أبي بالضبط حتى حطمها بهذا الشكل ؟.

لم تكن محنة الأم وانكسارها هي الشقاء الوحيد في طفولة إبراهيم وإنما حسب قوله :« ما أشقاني مع أمي هو نفسه ما عذبني ،حين كنت أري أبي ورجاله يسرقون الفلاحين بعد ذلك»،ولما كشف الأمر أخذه والده إلى القاهرة ووضعه في مدرسة داخلية.

كبر إبراهيم وتكون وعيه بفضل المكتبة التي جمعها والده دون أن يقرأ منها كتاب واحد ،كان يكتفي بطبع اسمه بخط النسخ المذهب على كل كتاب ،وعلي العكس من استدعاء الطفولة في محنة أمه ،شاغله سؤال الكبير «ماذا لوأن شيئا من ذلك لم يحدث ؟هل كانت حياتي ستفسد من أولها »..هل كانت عيني ستقع على العطب في كل شيء ؟...لماذا لم أستمتع بهذه الحياة مثلما يستمتع بها كل إنسان ؟».

أصبح إبراهيم «شيوعيا »، واعتقل في حملة عبد الناصر ضد الشيوعيين عام ١٩٩٥ ،وانتهت قصة حبه مع شادية بالفشل ،اشتعلت شادية بحبه انفعالا وحماسا وهي محررة صحفية ،فكانت تتحدث عن حركات التحرير في إفريقيا ،أو عن تطور

الهجرة إلى إسرائيل ،أو عن معجزة الاقتصاد في اليابان ،وظلت شادية على عهدها في حب إبراهيم أثناء اعتقاله ،وكتبت له خطابات ملتهبة حبا وهو في السجن ،ومع طول فترة السجن كتب لها يحررها من حبها له ،وان أرادت الانتظار فهي حرة في أن تسلي نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال، بعد خروجه تبدل كل شيء ، وانقطعت العلاقة بينهما ، فنقلت نفسها من العمل الصحفي إلى الإداري ،وتزوجت من صراف الصحيفة «عم عبد اللطيف » ،وأصبحت تتنقل بين المكاتب وهي حامل ،أو منتفخة البطن ،تسأل عن أخبار المحررين والموظفين لتنقلها من مكتب إلى آخر ،وتفعل ذلك بضحكة مجلجلة قائلة :«أموت في النميمة».

مثلما طارد« الطفل» إبراهيم وهو كبيرا ،طارد الطفل أيضا «الراوي»، :«أعرف أن الشقاء ندبة في الروح ،إن بدأت في الطفولة فهي تستمر العمر كله ،وأفهم أنه لا توجد ندبة تشبه أخري ،ولكني أسأل نفسي أيضا حتى وان لم تتشابه تلك الندوب ، أليس ذلك الشيء المحفور في أنفسنا علامة يتعرف بها بعضنا على البعض ؟،ألا نتشابه نحن أيضا ؟».

ما هي الندبة التي ظلت تطارد «الراوي » منذ طفولته ؟،وكيف حاول قهرها مستعينا بالظرف السياسي الذي سمح بذلك؟

هو من خلفية اجتماعية فقيرة ،كان والده «فراشا » في المدرسة وكان هو تلميذا ضمن حفنة صغيرة فقيرة من التلاميذ وسط أبناء ملاك الأرض وأبناء الموظفين في المدينة الذين كانوا يجدون متعة في إهانة الفقراء ،يتذكر «الراوي »:نجح البعض في ستر فقرهم ،أما أنا فكيف أستطيع ؟وكيف كنت أملك أن أخفي درجاتي العالية في كل المواد ؟، ولكن حتى بعد أن خرج أبي إلى المعاش وأنا مازلت في المدرسة الابتدائية ظل لقبي متوارثا لدي أجيال المدرسين ،عندما يأتي مدرس جديد ويبدأ كالعادة في قراءة أسماء التلاميذ ثم يسأل ذلك السؤال الذي لا مفر منه «ما هي مهنة

الوالـد؟..يتطـوع أكثـر مـن تلميـذ في الفصـل قبـل أن أرد «كـان فـراش المدرسـة » ، فيعرف المدرس وأعرف أنا أنه لن يجد سببا يمنعه من أن يسبني ومن أن ينزل بي كـل العقاب الذي يخاف أن يصيب به أبناء الآخـرين »،كـم مـرة تشـاجرت مـع التلاميـذ الذين أهانوني بسبب أبي ؟،كـم مـرة ضربتهم وضربـوني وأسـلت دمـاءهم وأسـالوا دمي دون أن أجسر مرة واحدة أن أبوح لأبي بسبب جروحي .

ورغم أنه ظل يفتخر بوالده في كل المحافل السياسية والصحفية ،إلا أنه وفي نوع من مكاشفة الذات أثناء تواجده في أوربا طرح من جديد الأمـر عـلى نفسـه:«أحكـي للجميع عن أبي فراش المدرسة الذي قتر على نفسه وادخـر الملاليـم والقـروش لكـي يعلمني في الجامعـة ،ولكـن هـل شـفت تلـك الخطـب الكبـيرة الجروحَ الأولي ؟هـل أزالت المهانة ؟..ربما ...عندما كان الرئيس (جمال عبد الناصر) واحد منا ،نحن أبناء الفقراء ،وعنـدما انحـاز إلينـا ..عنـدما لم يكـن الفقـر عـارا ..ولكـن ألم أشـعر بالعـار القديم نفسه عندما كان على أن أمـلأ «كشـف الأسرة»،وأن أذكـر مهنـة الأب والجـد يوم فكر خالـد بعـد الثانويـة العامـة أن يـدخل الكليـة الحربيـة ؟.فـما الـداعي إذن إلى التظاهر ؟..ما الداعي إلى الكذب ،انتهت جنة الفقراء ..لم توجد يومـا جنـة للفقـراء ...كانت تلك أيضا كذبة يجب أن ننساها ».

عبد الناصر

يتسلل عبد الناصر في هذه الخلفية الاجتماعية وكأنه يدير أدق تفاصيلها ،فهو مـن كان سببا في سجن إبراهيم وبالتالي ضاع حبه وضاعت شادية ،وهو من كان سببا في حلم «الراوي » ولما رحـل بـدأ انهيـار الحلـم الـذي لم يتوقـف عنـد التراجـع العـام في قضايا الاستقلال والعدالة للفقراء ،وانما امتد إلى طلاق « الراوي »ومنـار بعـد قصـة حب جميلة وولد وبنت ،وتناول بهاء هذه العلاقة المركبة بشجن بـالغ ،فهـي تولـدت مع وهج الحلم العام الذي انغمست فيـه منـار بعمـق ، وبفضـل ذلـك حـررت صـفحة

ناجحة عن المرأة قالت فيها كلاما كثيرا تقدميا عن المرأة ،ولما أعلن عبد الناصر التنحي ذرفت الدموع ،ثـم دخلـت في انهيـارات وإغـماءات وقـت موتـه ،لكـن هـذه الأحـوال تبدلت حين أصبح حب عبد الناصر مدفوع الثمن ،ولأنهـا زوجـة «الـراوي » اختزلـوا صفحة المرأة إلى الربع ،فكان هذا بداية انسلاخها عما دافعت عنه ورددته في الماضي .

تذكرت منار أن عبد الناصر هو سبب النكسـة والمعـتقلات، وكـل الأشـياء التـي خرجت من أفواه خصومه ،وأصبح كل ذلك هو الطريـق نحـو اختيـارات جديـدة ، تتمثل في شرائها الفضة واكتنازها وبيعهـا مـع ارتفـاع الأسـعار والمشـاركة عـلى ربـع تاكسي ثم الطلاق ،والتحول إلى صحفية محجبة تتكلم عن المرأة وقضاياها عكس ما كانت تقول في الماضي ،ليس هذا فحسب بل أنها أصبحت تستدعي أصلا جديدا لها يتناسب مع الموجة الجديدة ،فوالدها الموظف البسيط الطيب،أصبحت تتحدث عنـه على أنه كان موظفـا كبـيرا قـوي الشخصـية ،يهابـه الجميـع في المكتـب بسـبب حزمـه وشدته في الحق ،وأخذت هي مع مرور السنين تصدق هذه الكذبة .

يحلل بهاء تحولات منار بسرد نفسي شجي ،يقودنا إلى فهـم شخصـيتها كنمـوذج للذين تحولوا مع مرحلة الانفتاح الاقتصادي الذي أعلنه السادات واقترن به الفساد وأحلام الثراء السريـع ،وبـدا لهـؤلاء المتحولـون أنهـم منهزمـون، لكـنهم يعوضـون هزيمتهم باستثمار المرحلة في اكتناز المال والبحث عن نسب يعززه، وعلي نفـس وتـر الهزيمـة يـأتي يوسـف الـذي يتعـرف عليـه الـراوي في أوروبـا كرمـز لجيـل الجامعـة «الناصري» في السبعينات ،وهو الجيل الـذي حمـل عـلى عاتقـه عـبء المواجهـة ضـد السادات ،جـاءت بـه الروايـة كامتـداد لمفهـوم الانكسـار الـذي لم يقتصر عـلى جيـل «الراوي » الذي تربي في ظل دولة عبد الناصر .

ترك يوسف كلية الإعلام و هو في السنة الثالثة ،وهـاجر إلى أوروبـا بعـد الحكـم عليه بالسجن ستة أشهر بسبب اشتراكه في المظـاهرات التـي شـاهدتها الجامعـة ضـد

السادات ،ورث يوسف عن أبيه حب عبد لناصر، وحين وقعت كما يقول «الفاس في الراس »لم يجد هو وجيله القدوة» .

تتسلسل الهزائم فتطول أجيالا جديدة، وتتمثل في في خالد وهنادي ابنا «الراوي» خالد الذي يطوله التأثر بموجة التدين التي جاءت مع انتشار جماعات الإسلام السياسي ،وهذه الأجيال لم تعش فترة الحلم حتى تشعر بمرارة فقدانه ، لكن بهاء أراد أن يقول أن المزائم لم تنحصر في جيل بعينه وإنما أصبحت عابرة للأجيال ، وعابرة للأوطان والأفكار، وإذا كان خالد ابنه نموذج للجيل الجديد ، فان البرت الإفريقي هو نموذج يعكس حالة انكسار الأفكار ، خرج البرت من بلاده مطاردا إلى أوربا ،ووضع كل همومه في محاربة ديكتاتور بلاده «ما سياس »، وضاع بعد الزواج من حبيبته بريجيت ،ولم يعد مناضلا أ وزوجا أو حتي إنسانا .. أصبح البرت خيالا بعد أن كان يهز الأفئدة حين يردد رثاء «لوركا » الموجع لصديقه مصارع الثيران.

هي قصة الحلم ونقيضه التي أراد بهاء أن يقول إنها لم تقتصر عى أجيال منطقتنا وفقط ،وانها امتدت إلى بلاد أخري لها نفس ملامحنا ،وببناء درامي رائع يكشف بهاء من خلال قصة البرت كم هي قاسية المجتمعات الغربية في عنصريتها ،فضياعه جاء على أثر سخرية موجعة وتحرش جسدي قاسي قادها شباب مخمور ضد إفريقي أسود تزوج من ابنة الجنس الأبيض ، ،فقد الاثنان طفلهما الذي كان جنينا في بطن بريجيت ،كما فقد البرت نفسه بعد أن تحول إلى جاسوس لصالح من كان يناضل ضدهم .

انكسار «الراوي » وابراهيم ويوسف وشادية ومنار والبرت ،يضعه بهاء في سياقه الزمني ،ويبلغ به الذروة بتوضيحه كم تم توظيف المال النفطي لصالح تعميق هذا الانكسار ،فهذا هو الأمير حامد يتاجر بالفكر القومي وبعبد الناصر وينوي إصدار صحيفة قومية من أوروبا ،ويعرض منصب رئيس التحرير على «الراوي » الذي يصدم باكتشافه علاقة الأمير مع رجل أعمال اليهودي «ديفيد يان» الذي

تبرع لإسرائيل بمائة ألف دولار وقت الغزو الصهيوني لبيروت ،أما الصحيفة فما هي إلا أداة يريدها حامد في يده للوصول إلى كرسي الحكم لبلاده .

هل كان كل ذلك سببا في الوصول إلى ذروة المأساة العربية مع مطلع الثمانينات، والتي تمثلت في حصار بيروت ومذبحة صبرا وشاتيلا ؟،تلك المأساة التي دفعت الشاعر خليل حاوي إلى الانتحار احتجاجا على الصمت العربي ،انتحر حاوي الذي صدق عبد الناصر وصدق رؤيته ،وعاش غسان محمود الذي رفض استقبال جرحي المذابح الصهيونية من الأطفال في مستشفاه طالما لا يوجد الثمن ،ومن جديد يضع «الراوي تلك المأساة في رقبة عبد الناصر من خلال مشهد درامي مؤثر . يقفز الراوي من فراشه ،ويخرج إلى الصالة ليقف أمام صورة عبد الناصر ويسأله : «لماذا يعيش غسان محمود ويموت خليل حاوي ؟ ..لماذا يموت من صدقك وصدق الرؤيا ؟،كان قد رآنا كما قلت أنت نغتسل الصبح في النيل وفي الأردن وفي الفرات .. فلماذا كذبت عليه؟ ...لماذا ربيت في حجرك من خانوك وخانونا ..من باعوك .. ومن باعونا ...لماذا لم يبق غير غسان محمود ؟، لا تدافع عن نفسك ولا تجادلني ، فهاهو خليل حاوي قد انتحر ،ثم ماذا تريد أن تقول ؟ ،إننا كان يمكن أن نفعل شيئا ؟. كيف وخليل حاوي لم يكن يملك شيئا غير ضلوعه ،تلك التي مدها جسرا وطيدا من كهوف الشرق من مستنقع الشرق إلى الشرق الجديد ؟، أي شرق جديد ولم يعد هناك شيء غير الكهوف والمستنقع وغسان محمود ؟ كيف كنت تريده ألا يطلق الرصاص على رأسه ؟ سلاحه لم يكن يصلح لشيء غيرها فما رأيك؟

تنتهي «الحب في المنفي »بوصول البطل «الراوي» إلى مرحلة اليأس من كل شئ ، وفي الطريق إلى النهاية ،تحتشد عنده خلاصات الزمن الذي عاشه :« سيمر الزمن وسيأتي بعدنا من يعرف لما تعذبنا ،سينسون وجوهنا وأصواتنا ولكنهم لن ينسوا عذابنا ،لا، لم يقل تشيخوف ذلك ، قال عبارة أجمل بكثير كان فيها حديث عن

السعادة ،ولكن هل سيذكرنا حقيقة أحد ؟ .هل ستذكرني هنادي ؟ .. هل سيلد عذابنا تلك السعادة ؟ ».

يسير الرواي في شوارع المدينة الأوربية التي تعد بمثابة خشبة المسرح التي تستدعي كل أحداث الرواية،وفي سيره ينطلق صوته الداخلي محدثا نفسه بكلمات من نوع :« لن تصفي مع العالم أي حسب ،كل شيء ينتهي » ، « مرة أخري أفقد الطريق ،فقدته من زمن طويل » ، يصل إلى حديقة مهجورة ويجلس أمام النهر فيخترقه الصمت صوتا سائلا : هل تريد ؟ فيرد : نعم أريد ، فيسأله :« ماذا تريد ؟، فيرد :« أن أفهم ،من أكثر من خمسين سنة أحاول أن أفهم ،حاول الطفل ،وحاول الرجل ،ورجع الطفل ،ومات الرجل وكله دون فائدة .مائة سنة تكفي ».

هي كلمات ما قبل النهاية ، أما النهاية :« كان الصوت يأتي من بعيد ..يا سيد يا سيد ..هل أنت بخير ؟

لم أكن متعبا ..كنت أنزلق في بحر هادئ ..تحملني على ظهري موجة ناعمة وصوت ناي عذب .

وقلت لنفسي أهذه هي النهاية ؟ ما أجملها ،وكان الصوت يأتي من بعيد .

كان الصوت يكرر يا سيد .. يا سيد ...ولكنه راح يخفت وراح صوت الناي يعلو

وكانت الموجة تحملني بعيد ..تترجرج في بطء وتهدهدني ..والناي يصحبني بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام والسكينة».

عرابي

كما أخذ بهاء ثورة يوليو وزعيمها عبد الناصر محطة لتوزيع الأحداث في « الحب في المنفي »، أخذ من الثورة العرابية محطة لتوزيع أحداث «واحة الغروب ».

ومثلما كانت ثورة يوليو هي البصمة التاريخية والنفسية على «الراوي »في «الحب والمنفي» ،كانت الثورة العرابية هي البصمة على ضابط البوليس محمود عبد الظاهر

في «واحة الغروب» التي تدور أحداثها في «واحة سيوة» نهاية القرن التاسع عشر .

تبدأ «واحة الغروب» بتلقي محمود عبد الظاهر قرارا بالانتقال إلى واحة سيوة على سبيل الترقية مأمورا لقسم الشرطة بها ،فيتعامل مع القرار وكأنه نفس الانتقال النفسي من توهج حلمه مع الثورة العرابية إلى انكساره لفشلها ،ويبدو في ذلك انه النموذج المتولد من كل هزيمة في تاريخ مصر ،خاصة الهزيمة التي تأتي من أحداث كبري ،كما أنه الشخص المتولد منه أسئلة هي في حقيقتها محاكمات للنفس لا تنتهي ، يعبر محمود عن ذلك بقوله :«أدمنت التفكير في نفسي ،وكلما فتحت صفحة وجدتها أسوء من التي سبقتها ..ليتني لم أكن !! ما الذي يعيدني إلى أيام المجد في لحظات الخيبة »

يتذكر محمود قبل سفره إلى سيوة حياته مع والده وأخيه سليمان في بيتهم الكبير في عابدين أواخر أيام الخديو إسماعيل ،وكيف تعرف في مقهى متاتيا على الرجل الذي يتحدث بلغة الأتراك وأهل الشام وهو الشيخ الأفغاني ،وإدمانه الخمر والنساء إلى جانب إدمانه الأفغاني،ثم سعيه إلى الانضمام للحزب الوطني الذي لا يعرف طريق الوصول إليه

يسأل محمود ..لماذا لم يأته الاستقرار أبدا ؟..لماذا هو مراوغ وبعيد ؟..ويقول : «اليقين الوحيد هو تلك البدلة الرسمية التي ألبسها والمهنة التي جاءتني دون أن أرغبها »،لم يرغب محمود في الالتحاق بالشرطة، وإنما كانت من اختيار والده بعد إفلاسه في التجارة حتى يمكن أن يعول أمه وأخيه براتبه .

كره محمود الإنجليز ،وبدا ذلك في مواقف كثيرة وصلت إلى حد انه ظل يؤجل قرار زواجه من كاثرين (عاشقة الشرق) بعد أن تعرف عليها في أسوان ،ولم يحسمه إلا بعد أن عرف أنها أيرلندية، وتكره الإنجليز مثله لأنهم يحتلون بلدهم مثل احتلالهم لمصر.

يصطحب محمود زوجته كاثرين إلى سيوة ،وفي الطريق إليها عبر الصحراء، وحتى استقراره فيها لم ينقطع حواره مع نفسه،ويستخدم بهاء في ذلك أسلوب

«الفلاش باك» ببراعة متناهية ،ولغة شاعرية ساحرة معهودة منه. يلخص محمود حياته في معني عميق :«مسرات قليلة وأحزان ثقيلة ..ما الذي نملكه غير هذه الحياة ؟..يجب أن نعيشها حتي آخر لحظة »

تضغط تفاصيل ما حدث مع أحمد عرابي على محمود بعد أن شاهد من خلال بيته في عابدين (الولس) الذي كسر عرابي و(الولس) الأكبر بعد أن كسروه : « نواب البرلمان الذين كانوا يلقون الخطب الملتهبة ضد الإنجليز أيام (الهوجة) ، رأيتهم هم أنفسهم ،يترجلون بجلال من عرباتهم بثيابهم المطرزة ونياشينهم المذهبة لينضموا إلى الخديو في منصته ،وهو يستعرض جيش الاحتلال وعلي يمينه الأميرالاي سيمور الذي دمرت مدافع أسطوله الإسكندرية وعلي يساره الجنرال ولسلي الذي أباد بمعونة الخونة جيشا في التل الكبير ،وأقرأ بعد ذلك بأيام أن هؤلاء البكوات والباشوات جمعوا فيما بينهم مبلغا كبيرا من المال، وقدموا هدايا معتبرة لسيمور ولسلي ،ويومها بكيت نفسي وبلدي».

يتذكر محمود معركة ضرب الأسطول الإنجليزي لمدينة الإسكندرية بعد أن تم انتدابه اليها هو وزميله طلعت ،ورأي من خلال عمله كيف اختلط النهب بالتدمير والقتل ،واحترقت المدينة في مشهد لم يستطع أحد أن يفرز فيه من خان ومن لم يخن .

يجد محمود واحة سيوة مغلقة وبقسوة على نفسها وتقاليدها ،وتجد زوجته كاثرين في هذا الانغلاق فرصتها لتحقيق حلمها بالعثور على مقبرة الإسكندر الأكبر، ويصطدم الاثنان بثقافتها المدنية مع هذا الانغلاق ،ووصل الأمر حد التفكير من أهل الواحة في قتلها .

في هذه الأجواء تظهر الشخصيات في الرواية من أحداث التاريخ البعيد كالإسكندر الأكبر ،والقريب كبطل الثورة العرابية محمد عبيد ،والحاضر كأبناء سيوة مثل مليكة والشيخ يحي و صابر والشاويش إبراهيم ، والضابط وصفي الذي

تم إرساله من القاهرة لمعاونة محمود ،ومعهم في الصورة فيونا شقيقة كاثرين زوجة محمود ،ولكل شخصية من هذه الشخصيات قصة ، يمزجها بهاء مع بعضها في حكي متداخل لتعطي وبعمق معني الانكسار الذي وصلت إليه .

من أحداث الثورة العرابية التي يستدعيها الضابط محمود والتي شكلت حلمه الايجابي ، نري في مقابله وعلي النقيض منه الضابط وصفي ،الذي يري فيها فعله العرابيون « فتنة عصاة عطلتنا عن التقدم » ،ويري أن محمد عبيد « خائن » لأنه عرض على أحمد عرابي قتل الخديو.

من التاريخ البعيد تتحدث الرواية عن الإسكندر الأكبر،الذي عاش ٣٣ سنة لم يعرف فيها أبدا طمأنينة النفس .. حارب وانتصر ..وملك الدنيا ،ومع ذلك عاش حياته بائسا ،لا يعرف من هو ،هل هو اسكندر النغم الذي أحب أرسطو والشعر والموسيقي والحكمة ،وبفضله وضع كتاب الإلياذة تحت وسادته في السلم والحرب ؟، أم هو اسكندر الدم الذي ورث عن أمه عدم التورع في القتل ،دون أن يعرف الندم؟ ، أم اسكندر الذي تساءل بعد مجيئه إلى مصر؟ :« أيهما الأصلح لحياة الإنسان على الأرض.. البهجة أو الخوف لكنه حاول فرض الجواب ؟» .

لم يكن الإسكندر مقحما على أحداث الرواية ،فهو الذي تبحث كاثرين عن مقبرته ، كما أن بهاء غاص في تكوينه النفسي الذي كان في حقيقته خلفية رئيسية لحروبه ،وساهم هذا الاختيار من بهاء في التأكيد على انه ليس شرطا أن يكون المنتصر سعيدا، حتى لو كان بحجم الإسكندر «فاتح الدنيا » ،وأضفي هذا الاستحضار التاريخي مزيدا من حالة الشجن بالإضافة إلى توسع صورة المنكسرين التي تميزت بها الرواية .

وبقدر ما يعطي بهاء جرعة من التاريخ في الرواية عبر شخصية الإسكندر ،فانه يعطي جرعة تاريخية أخري عن واحة سيوة ،وفي الحالتين لا يتحدث عن التاريخ بأسلوب تسجيلي ،وإنما بأسلوب روائي واضح ،ومن خلاله نعرف أن واحة سيوة عاشت في ظل

حرب مشتعلة بين الشرقيين والغربيين ،يفكر المهدي السنوسي في وضع حد لها فيقنع الطرفين بالتزاوج فيما بينهما كوسيلة لإنهاء هذا الخطر ،فتكون مليكة ابنة الخمسة عشر عاما هي الضحية ،بزواجها من معبد الهالك برغم أنه في عمر جدها ،وجرت العادة في الواحة أن فارق السن لا عيب في الزواج مادام الزوج غنيا وقادرا.

كانت مليكة كما يصفها خالها يحي :« أجمل بنات الواحة وأذكاهم تتكلم كالكبار وتصنع ما لا يصنعه الكبار ،تصنع من طين الأرض طيورا ،ومن الصلصال تماثيل صغيرة »،« لكن كل هذا الذكاء دفنته نصيحة المهدي السنوسي بالإضافة إلى أمها مع معبد، وانتظروا أن ترضي مليكة بهذا المصير».

كرهت مليكة زوجها معبد حتي مات ،ولما أرادت أن تبحث عن صحبة جميلة بعد موته لم يتركوها، ولما حاولت أن تفك أسرها من الزواج سجنوها ،قال عنها خالها يحي الذي أحبها كإبنته :«أفهم ألا تطيقي السجن وأنت الطليقة ،أنت وحدك الطائر الحر وسطنا ،نحن الجثث القعيدة ،لعلي كنت يوما مثلك ..لا ..انت الأفضل».

تمردت مليكة ،فتركت منزلها وعادت إلى أمها مصممة على عدم العودة ،لكن الشرقيين والغربيين اجتمعوا على أن مصيرها في أيديهم هم وليس في أيديها هي ، وذهب شوقها إلى حريتها حد اختيارها للموت بدلا من الحياة ،فقتلت نفسها بغرس السكين في قلبها ،وهي تسأل أمها :«لماذا باعتها ؟ ولماذا رمتها ؟ ،اعتزل خالها يحي العالم كله حزنا على موتها وسجن نفسه في حديقته» .

ويأتي يحي في الرواية كنموذج للرجل المستنير بمقاييس بيئته، هو من الغربيين، وكان فارسهم في شبابه، لم ينهزم في قتال ولم يتراجع أمام العدو ، لكن صدره كان يضيق يوما بعد يوم بالحرب ومن مجازرها ، حتى قرر أن لا يشارك في حرب كان قومه فيها هم الظالمين ، فجاءه الإخوة والأعمام يترجوه أن لا يتركهم .فقال لهم إذا كنتم تريدونها حربا فلتكن آخر الحروب ، نقاتلهم حتى يفنوا هم ،أو نفني نحن ، فقبلوا

شرطه وأقسموا على ذلك ،لكنه اكتشف العجب في الحرب ،حيث رأي رجال قومه ينهزمون وينسحبون ،وبقي وحيدا يواجه الشرقيين بشجاعة ،وكانوا في إمكانهم قتله ، لكنهم وبعد إحدى الطلقات اندفعوا نحوه يقبلون رأسه ،ويقولوا له أنت أشجع من أنجبت الأرض ،وعرضوا عليه أن يبقي ويعيش وسط الشرقيين مكرما ،لكنه ركب حماره ولم يذهب إلى داره ولا قومه ،ذهب إلى متاهة الصحراء عازما ألا يعود .

اعتبر أهل الواحة من الغربيين ما فعله يحي جنونا ،لكنه كان يقول لنفسه : « أحببت قومي حتي تمنيت لهم الفناء ليعيش من يعيش في سلام ».

رغم كل هذه الشجاعة والفروسية من يحي إلا أنه يصبح عاجزا أمام مليكة »، يفشل في إنقاذها مما آلت إليه بدرجة تؤكد أن البيئة كانت قاسية للدرجة التي تتبخر معها أي نسمة للحرية والتغيير والاستنارة ،ومن هذه الوجيعة نفهم كم بلغ الانكسار مبلغه ،ومعه وبه انتحرت مليكة ،واعتزل يحي العالم كله.

كان اعتزال يحي العالم كله اختيارا منه ،وعقابا لنفسه ،ونموذجا مضافا لحالة الانكسار لمعظم أبطال الرواية ،التي تنفذ إلى معني انكسار الوطن في لحظة تاريخية معينة ، فالكل في الرواية على هذا الحال،حتي لو كان بنمط اليوزباشي وصفي الذي يري في أبطال الثورة العرابية مجرد خونة ،ويري في أن أجدادنا عظماء لكن الإنجليز هم الذين يكتشفون لنا ذلك ،وان الأحفاد لا يصلحون إلا للإحتلال ، وحتى لو كان مثل فيونا المريضة القديسة شقيقة كاثرين التي تموت وتكتشف كاثرين أن زوجها محمود كان يحبها بالرغم من أن شقيقتها.

تكتمل صورة الانكسار في الرواية حين لا يجد محمود إلا اختيارا وحيدا أمامه وهو تفجيره للمعبد ،ويذهب إلى هذا الاختيار قائلا لنفسه :« يجب أن ننتهي من كل قصص الأجداد ليفيق الأحفاد من أوهام العظمة والعزاء الكاذب ،سيشكرونني ذات يوم ،لابد أن يشكروني ».

تتطاير أحجار المعبد حول محمود بعد أن قام بتفجير أصابع الديناميت فيه ، يحدث نفسه :« لماذا انتظر في الخارج ؟ هل سيعاودني الجبن في آخر لحظة ؟لا، أنا آت هيا .. جريا إلى داخل المعبد ،أجري لكنني أسقط على الأرض قبل أ ن أبلغه ،آراه قبل السقوط يندفع نحوي ،يرتطم الحجر برأسي فأسقط ويحل نوم ،لكنني أصحو مرة أخري أمد يدي إلى رأسي ورقبتي فأحس اللزوجة وسخونة الدم وألمس الشظية الكبيرة المرشوقة في رقبتي .. أحاول انتزاعها بيدي الخائرة فلا أفلح ..لم يكن هناك ألم ..وتوهج فجأة نور في داخلي ،نعم ، الآن يمكن أن أري كل شيء ... أن أفهم كل ما فاتني في الدنيا أن أعرفه .. أحاول أن أرفع رأسي فلا أستطيع ... يخبو النور وتحل هجمة السبات الثقيل وأسمع صوتا متهدجا أجش يزعق باسمي كأنه يبكي .. فأقول وأنا أغمض عيني شكرا ..لك ..لأنك ...تأخرت»

الموت

الموت هو النهاية لبطلي الروايتين ، ذهب إليه محمود في « واحة الغروب » بإرادته واختياره ،وذهب إليه «الراوي » في « الحب في المنفي » مستسلما لقدره، لكن المقدمات إلى الموت في الحالتين تكاد تكون واحدة من زاوية الأجواء النفسية للشخصيتين،فكلاهما عاش ما يمكن تسميته ب« الخراب النفسي » بعد أن خسرا أحلامهما، وغاص كلاهما في حوارات مع النفس والغير أملا في العثور على إجابة لأسئلتهما المعلقة ،ولم يصلا إلى شيء ،اختصر كلاهما مسيرته في كلمات معبرة ، والخلاصة التي تولدت من ذلك أن هزيمتهما لم تكن هزيمة فردية،وإنما هي هزيمة وطن، هزيمة بدأت مع فشل الثورة العرابية عام ١٨٨١ ، وأدت إلى الاحتلال الإنجليزي ، وتواصلت المسيرة مائة عام لتجيء خلالها ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، ومع هزيمة مشروعها ، جاءت مذبحة صبرا وشاتيلا.



عبد الرحمن منيف :

عشت كالطير المعلق
بين السماء والأرض

كنت في زيارة إلى سوريا عام ١٩٩٦ ضمن وفد صحفي مرافقا لنواب من مجلس الشوري المصري ،ورغم الطابع السياسي والشعبي للزيارة،إلا أن أجندة اهتماماتي انصرفت إلى عناوين أخري، تتمثل في كيفية لقاء كبار الأدباء والفنانين والسوريين الذين نحبهم في مصر.

سألت عن الكاتب المسرحي العظيم الراحل سعد الله ونوس الذي كان يواجه مرض السرطان،فوجدته أسير جلسة علاج كيماوي ،وسألت عن الشاعر العراقي الكبير مظفر النواب المقيم في دمشق ،والشاعر ممدوح عدوان ،والروائي الكبير حنا مينا ، وكان لكل منهم ظروفه الخاصة التي أحالت بيني وبين لقائهم ،وذهبت إلى نقابة الفنانين أملا في لقاء المطرب الكبير صباح فخري و تصادف وجوده خارج سوريا .

وبينما أنا على شعور بخيبة الأمل لفشل أي لقاء مع هؤلاء، سألني صديقي السوري أحمد مظهر سعدو مراسل جريدة العربي لسان حال الحزب الناصري التي كنت أعمل فيها وقتئذ :

ما رأيك في لقاء مع عبد الرحمن منيف ؟

وبعد يومين كنت في منزل مبدعنا العظيم بضاحية المزة بدمشق ،وقبل اللقاء استدعيت الكثير عن منيف وحالته الروائية والسياسية ،فهو كمبدع عربي كبير،عاش حياة من يتأملها أظن أنه سيجد ظلها في قول الشاعر الكبير محمود درويش في قصيدة «أحمد العربي»:

«وأعد أضلاعي فيهرب من يدي بردي
وتتركني ضفاف النيل مبتعدا
وأبحث عن حدود أصابعي
فأري العواصم كلها زبدا».

انتقل عبد الرحمن منيف من عاصمة عربية وعالمية إلى أخري ،بأوامر من السلطات، لأنه إنسان يفكر في مصير أمته،ويهتم بقضاياها ،ويدافع حقوق الإنسان العربي في الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ،وكتب أعمالا روائية متميزة ،جاءت في مجملها في سياق عصر سجل تفوقا واضحا للرواية العربية منذ أن بدأت في القرن العشرين طبقا لآراء الكثيرين ،وأكدت ازدهارها بالمقارنة مع الألوان الأدبية الأخرى ،حتى درج البعض ومنهم الشاعر محمود درويش إلى اعتبار «العصر الذي نعيشه، هو عصر الرواية بامتياز».

جاء هذا الازدهار أو الامتياز، من بطن الانكسارات المتتالية التي عاشتها أجيال عربية متعاقبة ، والأسباب تبدأ من شرخ الوجدان العربي بفعل هزائمنا المتتالية ، والتي أعادت المبدع إلى ذاته ليعيد ترتيبها،ثم يكتب رسالته ويوجهها إلى الآخرين، وتنتهي عند هزيمة الأيد يولوجيات، والتي أسهمت بدورها في إنكسارت إضافية حادة لكل الحالمين بوطن أفضل ،وإنسان أجمل بفضل هذه الأيديولوجيا .

أسهمت تلك العوامل في تجل واسع للرواية والروائيين، خاصة منذ النصف الثاني من القرن العشرين ،فكتبوا عن الواقع العربي وأزمته ،والإنسان العربي ومحنته،لتأتي الصورة بأعماق يائسة عن الإنسان والمجتمع والقيم وكل شيء،واختار كل روائي مهموم رافده الروائي، وطريقة سير المياه فيه. وقف عبد الرحمن منيف بين هؤلاء شاهدا على كل المراحل الفارقة في تاريخنا العربي منذ مولده عام ١٩٣٤ ،كان صبيا وقت ضياع فلسطين في نكبة ١٩٤٨ ،وشابا فتيا في انتصار مصر \ عبد الناصر عام ١٩٥٦ علي العدوان الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل)،ثم انفجار الثورات العربية طلبا للاستقلال من الاستعمار وتأميم البترول ،و إعلاء شعارات النضال من أجل عودة فلسطين بالبندقية ،ثم هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ ،ومع حلول السبعينات ورغم انتصار أكتوبر ١٩٧٣ ،بدأ الزلزال الكبير بالصلح مع

إسرائيل ،والذي بدأته «مصر السادات» باتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

عاش منيف كل هذه الأحداث وخرج منها بقناعة عبر عنها عام ١٩٨٣ بقوله: «خلال الثلاثين الأخيرة لا أتصور أن هناك إنسانا عربيا ظافرا ،كلهم خائبون دون استثناء».

ويمكن القول: إن منيف تواصل مع كل هذه القضايا عبر مرحلتين ،وأعطي كل مرحلة لونا مختلفا من العطاء ،يقول عن الأولي: «كانت الظروف التي كنت أعيش فيها كما هو حال الكثير من أبناء جيلي ،تستغرقنا في العمل السياسي والعمل العام، وبالتالي كان الوقت والجهد منصرفين نحو ذلك ،ولم يكن التفكير أو الظروف تتيح لي ممارسة الأدب في أي شكل من أشكاله إلى أن كان الافتراق مع العمل السياسي المباشر».

وعن المرحلة الثانية يقول: «كان من الممكن ألا أكتب الرواية أبدا، لو استمريت في العمل السياسي ،وعندما اكتشفت أنني أستطيع التواصل مع الآخرين ،وأن أعبر عن نفسي من خلال أداة جديدة لم أتردد،خاصة أن روايتي الأولي «الأشجار واغتيال مرزوق» ،عندما أنجزتها ووصلت إلى يد القراء ،وجدت نوعا من الاهتمام والتعاطف».

بدأ منيف تعاطيه لعملية الإبداع الروائي كمرحلة تالية لتعاطيه العمل السياسي المباشر من خلال التنظيمات السرية اليسارية والبعثية ،واقتحم هذا الإبداع بخلفية وافرة للسياسة والسياسيين في تعاملهم مع قضايا الوطن ،وأخرجته هذه التجربة من زمرة هؤلاء الذين قال عنهم المفكر الثوري الروسي في القرن الـ ١٩ بيلينسكي: «عندما يكون هؤلاء المفكرون دون خبرة بمشاكل الحكم يصبحون سكارى بالأيديو لوجية».

تداخل السياسي بالإبداعي عند منيف دون أن يكون هناك سكر بالأيد يولوجية

في معناها المباشر،والتي قد تحول المبدع إلى صوت صارخ، وتقرب أعماله من المنشور السياسي،ومن هذه الخلفية أنتج رو يات تتلاحم خطوطها وأحداثها ،حتي تلتقي في نقطة واحدة واضحة وضوح الشمس ،وهي الوطن وهمومه،الذي يتسع عنده ليخرج من الحدود الجغرافية لإقليم عربي معين إلى كل الوطن من محيطه إلى خليجه ..فالوطن عند منيف جملة من اتوحد في القضايا والتحديات والمصير، حتي في السجون وأساليب القمع .

في «الأشجار واغتيال مرزوق»بنية روائية شفافة ،تتعدد فيها الدلائل على استحالة الحوار في مجتمع القمع ،وليس شرطا أن يأتي من الدولة وأدواتها ،بل يأتي أحيانا من بشر يمارسون علاقات تعطيهم ما يرونه حق وتسحبه من آخرين،فالعامل الذي فقد جذره حين فقد أرضه وأشجاره ،يصطدم بالناس في كل مرة يحترف فيها حرفة جديدة،فيهجرها إلى حرفة أخري،وكأن هذا العامل هو نموذج التفريط الذي لا يرحمه أحد بسبب تفريطه فيظل يعيش بعاره إلى نهاية العمر .

أما منصور عبد السلام المثقف الذي يطل علينا من أحداث الرواية،هو الابن الشرعي لمأساة المثقفين العرب في واقعهم المعاكس ،خاصة هؤلاء الذين يقضون أوقاتهم في دراسة التاريخ والتحول الاجتماعي ،وحين يتطلعون إلى تجاوز الدراسة ، والمشاركة في صنع التاريخ باختبار ما تعلموه على أرض الواقع ،تدفعهم آلة القمع إلى غياهب الليل .

لم يتحمل منصور عبد السلام ،فأطلق النار على مرآته التي تظهر وظيفتها في حياتنا كأداة كاشفة لحقيقتنا، حين نبحث عن لحظة صدق،انتقل منصور بعدها إلى مستشفي المجانين،لا يفارق ذاكرته لحظة واحدة أنه شارك في جيش بلاده جند يا فور عودته من دراسته في أوربا،وانهزم الجيش أمام الأعداء،ولم تكن لحظة إطلاق النار منه إلا لحظة اختيار يائس من انفراج الحال في وطنه ،طالما ظل محكوما بنفس

الأدوات التي أوصلته إلى الهزيمة.

تستمر علاقة السياسي بالإبداعي عند منيف في رواية «شرق المتوسط» ،وهي الرواية التي تبرز بوضوح موضوع القهر في آلية تبدو وكأنها واحدة في كل رقعة عربية ،وتتعامل مع الإنسان ليس بوصفه إنسانا وإنما كيان مباح فيه تجريب كل أدوات القمع .

كانت «شرق المتوسط »،واحدة من الروايات المبكرة عربيا التي أطلقت صرخة في الأوساط الشعبية والسياسية عن شيء اسمه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، حيث شملت الرواية بعضا من مواده ،وأظهر هذا الجانب أن الواقع العربي يقف عند نقطة فاصلة في تاريخه ،وعلي الجميع أن ينظر إليها وهي،إذا كان ما مضي قد حمل ما حمل من أخطاء في الممارسة الديمقراطية باسم مجابهة الآخر ،فإن المستقبل لا بديل فيه عن ديمقراطية أوسع وأرحب ،أبسط قواعدها احترام الإنسان .

ومن قماشة مجتمع« شرق المتوسط»الذي تتحكم فيه أدوات القمع يطل علينا رجب المثقف الذي قضي خمس سنوات داخل السجن ،وتحول جسده إلى موضع تجريب لكل أدوات التعذيب ،ويصطدم بصره بالسراديب المظلمة ،وعقله بتفتيش المخبرين ورجال الأمن ،وكلما أصر على أن يفهم،ازداد الإصرار على إيقاعه في السجن ،حتى يضطر إلى التسليم ،ويسقط جسده ،ويتحول إلى جاسوس على زملائه من المناضلين ،وحين يحاول استعادة نفسه بعد خروجه من السجن ،يقرر الرحيل إلى الغرب متصورا أنه يستطيع فضح القهر الذي يحدث في بلاده أمام منظمة دولية هي الصليب الأحمر ،و أنه بذلك يمكنه استنفار الرأي العام ضد الجلادين زبانية التعذيب الذين يعششون في كل أركان بلاده .

يفعل رجب ما يراه فاضحا للقهر في بلاده ، لكن النظام يتفنن في نفس الوقت في الضغط على أهله،وكأنهم يضغطون على ظله ،وبفعل التهديد المتواصل ،

والضغط الخانق على شقيقته ،وتأكده هو من عبث محاولته يعود إلى وطنه.

عاد لكنه كان بقايا إنسان لا يستطيع أن يفعل شيئا،ومع ذلك تواصلت ضده دورة التهديد الأمني ،وفي النهاية لم يجد فرصة للخلاص إلا بإطلاق النار على نفسه ، ليموت منتحرا دون أن يحقق أحلامه في تغيير العالم الذي يراه،عالم يحترم حقوق الإنسان

ينتحر رجب في «شرق المتوسط»،ويذهب منصور في «الأشجار واغتيال مرزوق» إلى مستشفي الأمراض العقلية،بعد أن يقدم الاثنان مشاهدا من تجارب المثقف العربي ،المثقف الذي يعيش عمق المحنة ،ثم يتم بتر ذراعه لو بدأ السؤال من أجل أن يفهم ،ويدرس حتى يشارك ،ويصطدم ليعري الآخرين الذين يستمدون قوتهم فقط من كرابيج الزنازين

في رواية «سباق المسافات الطويلة»،رؤية قد تدعونا إلى الإحباط ،لأن شعوب الشرق لا تعرف كيف تحافظ على ما تنجزه حين تقدم في لحظة تاريخية على فعل التحرر الذي يحافظ لها على ثرواتها.

تطل الرواية على شعب أمسك بثروته،بتأميم بتروله من يد الشركات الأجنبية،فتنتفض أمريكا وبريطانيا بوصفهما قوتين استعماريتين لاسترداد هذه الثروة بكل الوسائل.

كان إعلان الزعيم الإيراني محمد مصدق تأميم بترول بلاده مطلع الخمسينات في القرن الماضي،هو قبلة الحدث التاريخي الذي ألهم منيف هذه الرواية، زلزل الحدث وقتها الدنيا لتمرده على ثوابت طويلة، أهمها أن الشرق ينتج ثرواته الطبيعية لكن الغرب هو الذي يضع يده عليها ،وأعطي الحدث نبوءة مبكرة على ما ستدخله المنطقة كلها من تحديات أمام أمريكا بسبب البترول .

وتمسك الرواية بالمؤامرات التي تحاك في الخارج، وتنفيذها بواسطة أذناب

الداخل،وتكاتف أجهزة المخابرات لرسم المخطط الذي سيؤدي إلى إجهاض خطوة التأميم،وعودة البلاد إلى حظيرة نهب الاستعمار من جديد .

وبرغم أن حدث التأميم هو الملهم لمنيف في« سباق المسافات الطويلة» ،إلا أننا لا نجد في الرواية ذكرا لأماكن الشرق ،سوي اسم بيروت ، باعتبارها مكان «الشرق »الذي كانت أجهزة المخابرات العالمية تنشط وتتلاقي فيها لسنوات طويلة في النصف الثاني من القرن العشرين، لتدبير الدسائس والانقلابات.

«سباق المسافات الطويلة»،هي واحدة مما يمكن تعريفها بالروايات التي جسدت « انكسار الحلم التاريخي »، فهي رواية تكشف حقيقتنا المؤلمة، ومن قماشة أحداثها الروائية ،نستطيع تفصيل وقائع ،النهب ،والهزيمة، والمقاومة، والخضوع ،في أي بقعة عربية امتلكت البترول، وحاولت من خلاله النهوض لكنه لم تفلح،كما أنها الرواية التي يستخلص منها منيف قناعته بأن: « الذهب الأسود..هذه الثروة المشئومة..لعب الدور الأبرز والأهم في استعمار الكثير في بلدان الشرق».

أما في روايته «قصة حب مجوسية»يستخلص منيف فيها ، أن الإنسان الذي لا يعرف كيف يحب ، لا يعرف كيف يعمل في الشؤون العامة ،والمضطهد سياسيا هو نفسه المضطهد في حقوقه وشؤونه الخاصة .

وفي «مدن الملح»،يبدو منيف وكأنه« الجبرتي روائيا»،فعبر خمسة أجزاء يعطينا صورة روائية عن ظاهرة النفط العربي منذ تكوينها وحتى تحولها إلى سلوك يومي،يمارسه الإنسان العربي ليس في منابعها وفقط ،وإنما في كل أرجاء الوطن العربي ،كما أنها تكشف مجتمع البادية في بكارته الأولي ،ثم مغادرة هذا المجتمع لكل موروثاته الاجتماعية استسلاما لحياة جديدة ،يمتزج فيها كل محاولات الأجنبي المستمرة في السعي إلى السيطرة على الوجدان العربي بكل الأساليب الممكنة والتي تبدو جديدة على البدو. وظهرت معها نشأة جديدة للمجتمع ،حيث تراجعت

مكانة القبيلة ،وتحول الرعاة إلى عمال ،وظهر الوسطاء في التجارة ،وانزوي من رفض كل هذه التحولات ،وظل متمسكا بنمطه الحياتي القديم ،وزادت قبضة الحكومة المركزية .

من قلب هذه التحولات يأتي أيضا من يرفض استغلال الأجنبي«الأمريكان» لأرضه بثروتها ،وتجسده الرواية في شخص «متعب الهزال»،المعبر عن حالة الرفض والمقاومة ،والذي يتحول لدي الناس إلى رمز للمجابهة ،وحين يختفي لا يعني ذلك للأمريكان أنه انتهي ،بل هم يرون فيه قيمة تغلغلت في وجدان الناس ،وتلك القيمة وحدها نبع لا يستطيع أحد تجفيفه

تتعدد النماذج الروائية عند منيف ؛ مثل«حين تركنا الجسر »و«عالم بلا خرائط»،لتنطوي في مجملها على إظهر سير عديدة تشمل الانقلابات السياسية والمذهبية ،و التمرد على التنظيمات السياسية ،وكأنه يقرأ نفسه ،وتشمل أيضا حالة المثقف مع ذاته ووطنه، وخيبته فيهما معا،وقهر الأنظمة التي نتذوق بسببها الهزيمة في أي مجابهة تقودها ، وفي الإجمال يبقي انكسار الحال بفعل قصورنا الذاتي والجمعي،وبرغم ذلك فإن منيف يحذر من أن يقال : إن رواياته «سوداء أو متشائمة».

الرواية ظل منيف

في كل الأحوال تبقي الرواية هي ظل منيف ،ويبدو أبطاله الحالمون بغد أجمل وكأنهم قطعة منه،هذا ما ذهبت إليه حين قرأته ،وزاد مع طلته وهو يستقبلني على عتبات بيته مرحبا ،وتأكد حين جلست معه ساعات طويلة في منزله من الثامنة مساء وحتى منتصف الليل ،فالروائي صاحب الخيال الواسع، هو نفسه السياسي الذي اندمج في تنظيمات سياسية ثم انقلب عليها، وتركها دون رجعة، وحين استقبلني على باب منزله بترحاب بالغ ،بدا لي وجهه الأسمر المسحوب معبرا عن صلابة

حادة غير محايدة ،أما عينيه النافذتين فتنطقان بتاريخ طويل من المعاناة، وحين سرت في الطرقة المؤدية إلى حجرة الصالون ، لاحظت أعمالا فنية معلقة على الجدار ، أوحت لي بأنني أمام كاتب يهتم بالفن التشكيلي.

فور أن جلست ، وبعد عبارات الترحيب المعتادة ، سألني : حدثني عن أخبار مصر..ماذا عن الشقيقة الكبرى ؟.

انطلقت في إجاباتي ويشاركني هو في تبادل الرأي عن السياسة والسياسيين والإبداع والمبدعين ، والناقد فاروق عبد القادر(رحمه الله) الذي كان أهم جسوره إلى القارئ المصري ، سألني باهتمام كبير عن الأعمال الروائية الجديدة في مصر ، واحتلت رواية «الحب في المنفي » لبهاء طاهر والتي كانت حديثة الإصدار حيزا من الكلام مبديا إعجابه بها ،وحدثته عن رواية «مراعي القتل » للكاتب الروائي فتحي إمبابي التي سمع عنها ولم يقرأها .

وحملني سلاما إلى الكاتب الروائي جمال الغيطاني ، وفاروق عبد القادر،وسألني عن بعض السياسيين الشباب «وقتئذ»،الذي تعرف إليهم خارج مصر ومنهم حمدين صباحي، وعزازي على عزازي.

كانت الجلسة حميمية إلى درجة جعلته ينادي زوجته :«تعالي اسمعي سعيد يقول كلاما جميلا عن حبيبتنا مصر» ،وطوال فترة اللقاء من الليل الدمشقي ، كانت قضايا الأدب وهموم الثقافة محور حديثنا ، لكن هم السياسة وظل السياسي لم يغادر منيف ،وبعد انتهاء حواري وبينما أغلق جهاز الكاسيت ،صوب عينيه نحو نافذة حجرة الصالون وقال في صوت يغلبه الأسى :« حوار جميل ، لكن كنت أتمنى أن يكون حديثنا عن الديمقراطية في الوطن العربي .. الوطن العربي تستنزفه ديكتاتوريات حكامه .. هل تصدق أنني أبلغ من العمر ٦٢ عاما ولا أملك بطاقة انتخابية،ولم أعطي صوتي في أي انتخابات ، أي لم أذهب إلى مقر لجنة انتخابية وتلك

واحدة من حقوقي التي تمنيتها طول حياتي وسلبها مني هؤلاء الحكام الذين يتلذذون بقمع الإنسان العربي ».

ذكر منيف أمنيته المسروقة ،بتأثر بالغ مما دفعني للنظر إلى شعره الأبيض، وأنا أقول له :«هذا إغراء لحوار صحفي جديد أتمنى إنجازه» ، فرد ضاحكا :«بعد نشر هذا الحوار».

قلت :ربما يأتي اليوم يا أستاذ عبد الرحمن الذي تتحقق فيه أمنيتك وتحصل على بطاقة انتخابية .

رد بأسى :لا أظن..لا شيء يبعث إلى الأمل .

كان هذا في نهاية جلستنا ،التي أخبرني فيها أيضا أنه سيدفع قريبا بكتاب اسمه «عروة الزمن الباهي»عن الكاتب الموريتاني الباهي محمد ،قائلا : « شارك الباهي في معظم الثورات العربية في الخمسينات والستينات (القرن العشرين) ،أبرزها ثورة الجزائر ،وعاش في باريس شيخا للصعاليك،ولهذا شملت تسمية الكتاب اسم عروة نسبة إلى عروة ابن الورد شيخ الصعاليك والشاعر العربي القديم ».

أضاف منيف بصوت خفيض وكأنه يحدث الباهي :«كانت حياة الباهي تشبه زوربا اليوناني إلى حد كبير،كما أنه ظل جسرا بين الشرق والغرب،وكان يعد بالكثير في الرواية لكنه أجل أعمالا كثيرة متوهما أنه سيعيش ألف سنة ، لم يكتب كل الأفكار التي كان وحده يرددها ، وفي النهاية راح وراحت معه أحلامه التي كانت تسع الكرة الأرضية ».

نبهني منيف إلى أنه سيرسل لي نسخة من الكتاب للكتابة عنه، ليس لأنه من تأليفه، وإنما من أجل الباهي الذي عاش ومات في الظل ومن أجل غيره.

غادرت دمشق على اتفاق معه بأن أراسله ووعدني بالرد على أي خطاب سأكتبه، قائلا لي : « أحب هذا النوع من التواصل» ، لكني ومن باب التقصير لم أفعل ،وحين

جاء إلى القاهرة عام ١٩٩٨ في المؤتمر الأول للرواية العربية التي فاز بجائزتها وسط تقدير عام وارتياح كبير ،قابلته وأعطيته نص حواري معه الذي نشرته في مجلة القاهرة«مارس ١٩٩٧ »،وقال لي :«لماذا لم تراسلني كما اتفقنا؟»لم أجد ردا وأحلت تقصيري- كالعادة - إلى الظروف والمشاغل ،وحين تلقيت خبر وفاته شعرت، كما شعر كل جمهور الرواية والحالمين بوطن أفضل ، بخسارة فادحة،وندمت أكثر على عدم مراسلتي له، فالمؤكد أنها كانت ستضيف لمسيرتي المهنية ، وكانت ستكشف لي معرفة أكثر بأدبه وعالمه الإبداعي

مات عبد الرحمن منيف ، وبقي إبداعه الجميل،وبقي لي حواري معه الذي تعرض إلى محطات تاريخية في حياته ،وما تخللها من نفي من عاصمة إلى أخري، وكما تعرض الحوار إلى قضية علاقة المثقف بالمؤسسة السياسة، ومن مجمل أعماله تعرضنا في الحوار إلى اثنين من رواياته ،الأولي «الأشجار واغتيال مرزوق » بوصفها أول إنتاجه ، والثانية «مدن الملح » والتي جاءت في خمسة أجزاء تقتحم عالم النفط والصحراء .

* في المحطة الأولي لحواري قلت لعبد الرحمن منيف متسائلا :«عبرت الرواية العربية في سنواتها الأخيرة وبقوة عن حالة الانكسار في واقعنا العربي ،وشملت هذه الحالة تنويعات مختلفة ، فهي لم تقف عند الهزيمة السياسية العامة وإنما امتدت إلى أحوال الناس الشخصية ،فما الأسباب الحقيقية التي تقف وراء ذلك ؟

- أجاب :كانت هزيمة يونية ١٩٦٧ أول الامتحانات الكبرى التي واجهت المشروع النهضوي في المنطقة العربية ،وقبل الهزيمة كان الاعتقاد السائد هو قوة المشروع وتماسكه،وقدرته على أن يكون طريقا للإبداع ،بكل ما يعنيه ذلك من تنام في القدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية ،وبالتالي مستوي حضاري يوحي بإمكانيات المواجهة والانتصار ،وزاد من هذا الاعتقاد كم المجابهات التي خاضتها

الأمة العربية ضد القوي الاستعمارية منذ مطلع الخمسينات ،وكانت ذروتها في مواجهة مصر للعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ،ثم معركة الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ،فسقوط النظام الملكي في العراق، والثورة الجزائرية التي انتهت باستقلال الجزائر عام ، ١٩٦٢ ، وفشل سياسة الأحلاف التي حاولت أمريكا فرضها على المنطقة ،وأكدت كل هذه المعارك على أن الوطن يعيش ولأول مرة فترة نهوض وصعود،حتى جاءت نكسة يونية حزيران ،لنكتشف معها نوعا من الوهم كنا نعيشه،وانهار البناء في أول مواجهة حقيقية له ،وبالتالي كانت الرواية العربية صدى للتعبير عن هذه الحالة ،زاد منه تآكل المشروع النهضوي فيما بعد،وزيادة كم الهزائم العربية على أكثر من صعيد.

أضاف منيف :جاءت الرواية شاهدة عى كل هذه المحن ،وأصبحت مرآة تنقل الواقع الاجتماعي والفكري ،والانهيار العربي ككل،وأنا أقطع بأن إحدى المشكلات الأساسية المطروحة علينا هي مجابهة الحقيقة بشجاعة ،ومعرفة نواقصنا لتدارسها ثم التغلب عليها ،والرواية احدي الأدوات المهمة والرئيسية في رصد هذه الحالة والتعبير عنها ،ومن الطبيعي في ظل الهزيمة النفسية العامة يأتي ابتكار المنابر المعبرة عن هذه الحالة ،لكي نوضح الواقع دون رتوش من خلالها.

*سألت :هل يمكن اعتبار البطل المنكسر الناتج عن الهزيمة والذي ساد في الراوية العربية بعد هزيمة يونية حزيران ،هو بمثابة الرد على البطل الإيجابي الذي واكب مرحلة النهوض والصعود التي سادت قبل هذه الهزيمة ؟

- أجاب :هو جزء من الحالة ،فالرواية العربية تناولت حالة التراجع والامتثال للقوي الأخرى بعد رحيل جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠، وجاءت بنماذج متعددة تعبر عن ذلك ،أبرزها نموذج البطل المنكسر الذي حمل في مضمونه ردا على نموذج البطل الإيجابي الذي ساد من قبل ،وكان مصنوعا بدرجة تفتقر إلى الوجود الحقيقي

أو الحضور على الأرض ،وكان يتم اتخاذه كذريعة أو شعار بغرض التعبئة ،والحشد لمواجهة معارك التحرير ،وعندما تحولت المواجهة إلى معركة حقيقية ظهر عجز البطل الإيجابي ،بل هو غير موجود في الأصل ،وبالإشارة إلى غزارة حالة الانكسار في الرواية العربية في زمنها الأخير ،نجد جزءا كبيرا منها يعمل ضمنا من خلال الأبطال المغتربين ،أو الأبطال الذين يحملون منطقا مختلفا عما كان سائدا من قبل ، وهذا السائد كان يتمثل في البطل الوهمي الذي كان يتم تصميمه كنموذج لوضع معين،وفي اعتقادي أن القضية الآن تتجاوز البطل الإيجابي ،أو البطل السلبي ،أو البطل المنكسر إلى تصوير واقع حي يتفاعل فيه كم كبير من العوامل والأدوار بحيث نصل في المحصلة الأخيرة إلى فهم أوسع للواقع ،وفهم آلية وحركة تطور للمجتمع حتى نتجاوز كم الجوانب السلبية التي تحكمه.

القضية أكبر من كونها انكسار البطل ،هي في الحقيقة محاولة لفهم الحياة الموارة في تناقضاتها و صراعاتها واحتمالاتها،وهو ما يستدعي التركيز في بعض الأحيان على الجوانب المعتمة والسلبية لكشفها، تمهيدا لتجاوزها.

يواصل منيف:علينا أن نعرف السياق التاريخي الذي ولد فيه مفهوم البطل الإيجابي ،وأتصور أنه مفهوم تولد مع قيادة ستالين للدولة السوفيتية ،ففي مرحلة معينة كان الاعتقاد السائد عن الاشتراكية أنها بصيغتها الستالينية هي الصيغة الايجابية والمنتصرة .بل الصيغة الوحيدة التي يجب تعميمها في العالم ،واستدعي هذا الاعتقاد في الأدب عامة ،وفي الرواية خاصة التركيز على أنواع من البطولة تؤدي إلى إظهار القوة والتحدي ،والجوانب التي تدهس كل الصعاب وتتجاوزها تمهيدا للتغيير ،غير أن الواقع كان يحمل معوقات كبيرة سواء في بداية النظم الاشتراكية أوفي نظرتها وقدرتها إلى التغيير ،وفي إطار عملية التعبئة الواسعة تم اختراع ما يمكن تسميته بالبطل الايجابي لضرورة سياسية أكثر منه فهما للواقع ،ومعرفة لطبيعة

الإنسان والمشاعر الحقيقية التي يمتلكها ،وكان من شأن هؤلاء الأبطال الايجابيين أن يسلكوا موجة من الحماس ،تكون في أغلب الأحيان مؤقتة ومرهونة بمكان معين ، ومع تغيير المكان والظروف نكتشف أنهم وهم.

وإذا كان للبطل الايجابي ميزة فهي أن يكون بطلا حقيقيا ،وبطل الممكن ،وليس بطل الرغبة فقط،ولا يمكن تأييده بمبرر أن المرحلة كانت تحتاج 'ليه ، وفي النهاية هو انهار، وكان يجب أن ينهار ،كما أن التجربة السوفيتية نفسها انهارت بطريقة كانت نوعا من الاستقالة والتخلي ،فلأول مرة نري في العالم والتاريخ تجربة تنهار دون حرب أو حتى طلقة واحدة .

لم تكن المنطقة العربية بمعزل عن تلك المؤثرات،فجاء البطل الإيجابي في الرواية العربية يحمل رايات النصر الظافرة ،أو مبشرا بها في أقل الأحوال،وكما قلت سقط ذلك مع نكسة يونية حزيران ١٩٦٧ ،برغم استمرار التجربة السوفيتية حتى مطلع التسعينات (القرن الماضي)

وفي تقديري أن ما حملته الرواية بعد ذلك من مضامين تبرز حالة الانكسار العامة والخاصة أيضا،هو في حقيقته ابتكار في الصيغ التي تستهدف عملية النقد والمراجعة الشاملة حتى لا نصل إلى ما وصل إلى ماكان اسمه في يوم من الأيام الاتحاد السوفيتي

*هناك من المبدعين والمثقفين من روج للانتصار، ثم سكنه الانكسار وهذا مفهوم ، غير أن هناك من تبني الشيء ونقيضه للحاق بركب السلطة ،وهناك من عارض مشروع النهضة وقت أن كان جمال عبد الناصر المعبر عن هذا المشروع وهو في السلطة ،ثم عاد ودافع عنه بعد رحيله، فكيف تري هذا التنقل والتبدل للمواقع في سياق علاقة المثقف ليس بالسلطة وفقط وإنما مع ذاته أيضا؟

- هذا موضوع مهم ،ويمكن الإشارة فيه إلى حالات وظواهر في سياق معين ،

ثم نستخدم نفس الحالات في سياق آخر ،وأؤكد في البداية أنني لست ضد المؤسسة السياسية خاصة إذا كانت رحبة وديمقراطية ،حيث توفر بذلك المناخ الملائم لتنمية الإمكانيات ،وتخلق حالة من شأنها أن تساعد في الإبداع ،والعكس وارد أيضا ، بمعني نمو شخصيات وكفاءات في هامش معين بعيدا عن التنظيم السياسي ، وتسهم من خلال قناعتها وممارستها في تنمية القضايا المطروحة على أجندة الوطن.

وتبقي المشكلة فيما إذا كان هل يوجد مناخ ديمقراطي يساعد على الإبداع أم لا؟، وما حدث في السنوات الماضية يؤكد غياب الديمقراطية ،أو حتى وجود مجرد النقد داخل المؤسسة السياسية أو في المناخ العام ،وهو ما أدى إلى زيادة حجم التراجعات ،والنكسات المتتالية ،ثم الانهيار على أكثر من صعيد ،ومن الممكن أن نتفهم أن ظرف النهوض ربما يحمل بعضا من السلبيات يخفيها السياق العام ،لكن في حالات الانهيار والتراجع،تظهر تلك السلبيات بوضوح ومبالغة أحيانا .

وكما قلت فإن ما يحدث الآن هو عملية مراجعة شاملة تهدف وضع النقاط فوق الحروف أن صح التعبير من أجل معرفة النواقص والأخطاء ،ولكي نستفيد من دروس الماضي لابد أن نتوقف أمام بعض القضايا المهمة في مقدمتها دور ووظيفة المثقف في وطننا العربي

*في بعض الأطروحات حول هذه القضية نجد من يذهب إلى أن المثقفين هم البديل عن المؤسسة السياسية....

- أحذر من هذا الوهم الذي يجنح البعض إليه ،ويجب الالتفات إلى ذلك حتى لا تتكرر مأساة الماضي ،فعلاقة المثقف والسلطة في الماضي حملت أخطاء فادحة ، تركزت في اعتبار المثقف داعية وصوتا للمنظمة السياسية ،وغير مسموح له بأي هامش نقدي ،ولأن السياسي كان بحاجة إلى إعلامي تم توظيف المثقف في هذا الدور ،ووضعه كأداة لتحريض الناس وتعبئتهم ،وبعد الانهيار الذي ترتب على

ذلك، ساد وهم جديد وهو إمكانية معالجة الموقف ،بجعل المثقفين هم البديل للمنظمة السياسية ،وهذا وهم وخطأ فادح.

ما المطلوب في ذلك؟

مطلوب خلق نوع من الفهم المتبادل واشترك ،يسير في سياق راحد ،بأن يكون المثقف عبارة عن مساهم أساسي في عملية لتغيير والنهوض ،وذلك بالتعاون مع الآخرين ،وبالانسجام مع الخط العام لعملية النهضة ،وهو ما يستدعي إيجاد نوعا من الشراكة الجديدة بين الثقافة والسياسة من أجل الوصول إلى معادلة تعطي للمثقف دورا أساسيا ،وفي بعض الأحيان نقديا ،وتحتمله النظم السياسية ، وبالوضع نفسه يجب أن يزول من ذهن المثقف أنه البديل للنظام السياسي .

*هل هناك تجارب يمكن الإشارة إليها في هذا المجال؟

- دون تسميات هناك بعض المثقفين بدؤوا في ممارسة ما أقوله ،لكن حتى هذه اللحظة لم ترس على أرض واقعية صلبة بحيث تتحول إلى مناقشة جديدة ،وجادة تمهيدا للوصول إلى المعادلة المطلوبة ،والتي تخلق نوعا من التزاوج بين قوتين أساسيتين هما المنظمة السياسية من ناحية ،والمواكبة النقدية التي يقوم بها المثقف من ناحية أخري ،ولا يحمل كلامي هذا صيغة القطع بأن كل مثقف يجب أن يكون مسؤولا في منظمة سياسية ،كما لا يعني أن توكل المنظمة نفسها للمثقف ،المطلوب صيغة جديدة لا ينفي فيها أي من الطرفين لآخر

*في إشارتك إلى المنظمة السياسية،هل يمتد الأمر إلى المنظمات لرسمية ؟

- دون الدخول في تفاصيل ،أنا ليس لدي ثقة في نظم الحكم العربية التي تمسك بقدراتنا منذ سنوات ،فهي لا تملك القدرة ،أو حتى الرغبة في التغيير ،ويبقي رهاني على المستقبل من خلال القوي السياسية والمؤسسات ،والأفكار التي تهدف إلى تغيير المجتمع ،وبمعني أوضح ،القوى الرافضة لواقع الموجود ،والتي تهيء نفسها لأن

تكون جزءا من حالة التغيير المتوقعة في المستقبل ،يجب أن تملك كل المقومات الديمقراطية ،وأن تكون صاحبة تركيبة ديمقراطية ،وهذا شرط ينتج عن توفيره التعامل الصحي لهذه القوي مع نفسها ومع الآخرين.

*إلى أي مدي يمكن الرهان على المعارضة في التصور الذي تطرحه؟

- أؤكد أن رهاني على المستقبل ،لأن قوي المعارضة المطروحة على الساحة الآن والتي تقدم نفسها كبديل محتمل هي في الحقيقة مغيبة ،وإن حاولت إثبات نفسها ، يكون وجودها نصفيًّا أو جزئيًّا غير مكتمل ،وبرغم ذلك مازلت أحلم بالدور الذي يتطلع الباحثون إليه عن فكرة التغيير وإرساء قيم النهضة بتحدي المصاعب ومواجهة الأخطار

*في روايتك الأولي«الأشجار واغتيال مرزوق»،كنت قد غادرت حديثا الانغماس في العمل السياسي المباشر،ألم تطاردك تجربة السياسي وأنت تكتب هذه الرواية؟

- أي روائي أو مبدع يحاول أن يستفيد من تجاربه ،لكن ما يعنيه من إبداعه هو سيرته ،والتجربة قد تضمها السيرة الذاتية كلون آخر من ألوان الكتابة ،وربما تفيد في تجسيد حالة روائية بإعطائها بعدا واقعيا ملموسا،لكن الرواية في الإجمال تتجاوز التجربة الشخصية ، أما قضيتي الرئيسية في «الأشجار واغتيال مرزوق»فهي توضيح حالة المثقف المعزول ،المثقف الحالم لكنه عاجز عن تحقيق حلمه،وحالة العامل الذي يملك القوي الفعلية ،ورغبة التغيير والقدرة على المجابهة والتحمل ، لكنه يفتقر إلى الوعي مع نفسه والآخرين

*مع تتبع صفحات الرواية و نمو الشخصيات دراميا،نتوقع في محطات مبكرة للأحداث أن يكون هناك تلاقي أو شراكة بين الإثنين المثقف (منصور عبد السلام)والعامل (إلياس نخلة) لكن لم يحدث،فما هي الفكرة الأساسية التي كنت

تريد إيصالها من وراء ذلك؟

- سأقول لك إنني وأنا أضع شخصيات الرواية كان لدي رغبة في إيجاد نوع من الازدواج أو الشراكة بين العامل والمثقف ،أو بتعبير آخر رسم صورة تجمع في ضلع منها العامل بفنونه،وزيادة وعيه عبر علاقته مع الآخر،هذا الآخر هو المثقف الذي اعتبرته الضلع الآخر في الصورة ،والذي تكون بفعل رحلات طويلة استمرت بين الكتب ،وانتهت به إلى شخص حالم ببناء مدينة فاضلة ،وانطلقت الرواية من هذه البؤرة ،وحاولت تجسيد رؤيتي بالامتداد في الزمان والمكان بواسطة نماذج بشرية من لحم ودم ،واعترف أن النتاج كان سلبيا في النهاية،واكتشفت أن صيغة التزاوج التي أنشدها مستحيلة كما أن أي من الطرفين بمفرده لن يصل إلى نتيجة ،وسيظل بمعزل عن الطريق الصحيح ،وعن حالة التفاعل والتكامل ، ومعرفة النواقص الموجودة .

كل الأطراف مطلوب منها معرفة الواقع ورؤيته بوضوح للتعامل معه،فالواقع العربي في صورته الراهنة أوحتي عندما كتبت الرواية لا يتحمل المثقف الحالم الذي يعيش في عزلة ،كما لا يتحمل من هم على شاكلة إلياس نخلة ،فهؤلاء لابد وأن يكون لديهم الهدف ،والقدرة على الوصول إليه ليس بالمجابهة التي تحمل التحدي فقط ،وإنما بوعي وبنوع من منطق له حلقات متصلة،واتصال المثقف بالعامل يجب أن يتم على أرضية وعي متبادل بالدور المنوط بكل منهما ،وليس المطلوب أن يعطي أحدهما توكيلا للآخر ،والهزيمة التي حدثت للطرفين في نهاية الرواية كانت صرخة تنبيه وتحذير بأن الطرق المنفصلة ،أو الطرق المتصلة لن تأتي بالهدف المطلوب أن تمت في سياق غير سليم .

*هذا الكلام ومن خلال تجربتك أنت يعود بنا مرة أخري إلى قضية المبدع والمنظمات السياسية ،فهل من الأفضل له أن يتفرغ لمشروعه الإبداعي أم ينخرط في

هذه المنظمات حتى يكون هناك التكامل بين العقل والفعل ؟

- هذه قضية مهمة يتوقف الأمر فيها على طبيعة المنظمة السياسية ،ومدي تلبيتها للأفكار والحلم المزروع في عقل وقلب المواطن ،ومما لاشك فيه أن العمل السياسي عامة، والحزب السياسي خاصة، يوفر للمبدع حالة من الحيوية والحركة ،لكن يبقي سؤال..إلى أي حد تلبي المنظمة السياسية طموحات المبدع من الزاوية الفكرية ،واذا اعتبرنا أن هذا جانب ،فهناك جانب آخر يرتبط به ،ويأتي من طبيعة المناخ السقفي للمنظمة ،بمعني قدرتها على تحمل الديمقراطية والرأي الآخر،وخصوبة المناقشة والتفاعل ،وفي تقديري ومن خلال التجربة ،وإذا لم يكن كل فإن معظم المؤسسات السياسية ،أو التنظيمات سواء كانت أحزابا أو حركات ،لم تكن بمستوي الطموح المرغوب لا فكرا ولا ممارسة.

وبالتالي صار هناك نوع من تخلي المثقفين عن التنظيم السياسي ،لكن لا يزال بعضهم في منظومة العمل السياسي بشكل أو بآخر ،وتلك صيغة من الصيغ تتحدد طبقا للوضع الموجود ،وأنا لا أميل إلى وضع قواعد لها ، وإجمالا لو كان هناك مناخ ملائم كان سيساعد على حشد وخلق ظروف أفضل لعمل ايجابي أكبر يعطي نتائج أسرع ، والظرف الحالي يدفع كل أو بعض المبدعين إلى الالتفات للإبداع باقتناع أنه يعطي نتائج ذات قيمة ،ومادام الأفق في العمل السياسي المباشر مسدودا أمام المبدع، فالأفضل له التفرغ لعمله الإبداعي ،ويظل نتاج هذا أن صح التعبير دون نتائج ملموسة وقريبة لفترة،فالإبداع يصب في نهر المستقبل.

*أستاذ عبد الرحمن.. توقفنا عند أول أعمالك الروائية «الأشجار واغتيال مرزوق»،واسمح لي أن أقفز على معظم أعمالك الأخرى لأتوقف معك عند «مدن الملح».

- كما تحب .

*تجمع «مدن الملح »بأجزائها الخمسة كل خصائص الحياة في منطقة الجزيرة العربية عبر مراحل تطورها الحديثة ،وتتضمن بداخلها خبرة عالية بالأمكنة واللغة والشخصيات برغم انك بعيد عن امنطقة ،فهل كان المؤثر في ذلك هو الثقافة الشفاهية التي تختزنها منذ الطفولة ،أم كانت هناك مؤثرات أخري؟

– ذاكرة الطفولة هي ذاكرة قادرة على الامتصاص ،وعلي تكوين ظروف تبقي مع الإنسان حتى مرحلته الأخيرة ،وللبيئة والأمكنة دورا مهما أيضا تحفظه الذاكرة وتعي أهميته، غير أن هناك ما يجب الالتفات إليه في «مدن الملح »وهو أن موضوع النفط شغلني فترة طويلة كدراسة ،وظل هاجسا عندي يزيد بين الحين والآخر ، لاعتقادي انه أحد أهم العوامل التي شكلت الخارطة العربية سياسيا واقتصاديا في عصرنا الحديث،وبالتالي لابد من الاشتباك معه، وللقيام بهذا الدور كان لابد لي أن أكون مستعدا له استعدادا كبيرا ،وذلك بالمعرفة الحقيقية ،وإلا سأرتكب أخطاء كبيرة،فبحثت في كل وسائل المعرفة الخاصة عن النفط وعلومه ،وكل ما يتعلق به من ممارسة واحتكاك وخيال

*معني ذلك أن «مدن الملح» أخضعتك لجوانب معرفية علمية ...

– هذا صحيح ،لكنها ليست تاريخا أو مرجعا علميا ،وإنما هي في محصلتها النهائية رواية ،وبالتالي يظل عنصر الخيال مهما ورئيسيا.. حاولت في مدن الملح قراءة الماضي والحاضر في واقعنا، وتأثيرهما على المستقبل ،واعتبر أنها رواية لم تأت نتيجة عامل واحد بل عدة عوامل ،كما أنها لم تشمل موضوع واحد فقط هو النفط،وإنما شملت معه الصحراء.

*تتحدث الرواية عن ثنائية النفط والصحراء..لكن الملاحظ أن النفط هو الذي يتحمل كل السلبيات التي ترصدها وهو العالم الذي تنمو فيه شخصيات الرواية، أما الصحراء فلا تزال ضبابية في رصدها.

- أنا اجتهدت قدر الإمكان لتقديم عمل متكامل ،لكنه يظل البداية التي تحتاج إلى كم من الأعمال الأخرى لمعرفة انعكاسات وتأثير النفط والصحراء على واقعنا المعاصر ،وإذا كان موضوع البحر وجد اهتماما كبيرا في الحضارة الغربية ،وتصدر اهتمام العديد من المثقفين والفنانين والمبدعين،في التعبير عنه من جانب العنف والخطر والالتقاء مع الآخر ،فإن المنطقة العربية لديها الصحراء ،ولا تزال في موضوعها بكرا ،ورغم أنها تحتل ٨٠ ٪ من المساحة الإجمالية إلا أننا لا نزال نجهلها،ولا نغوص في أسرارها ،والشيء نفسه في موضوع النفط الذي قلب حياتنا ، وأضاع طبيعة المجتمع العربي ،وأتمنى لو قام آخرون بالحديث عن الظاهرة ،وحبذا لو كانوا ممن ذهبوا إلى الخليج للعمل واحتكوا بعالم النفط بشكل أو بآخر،ولا تقف دعوتي لتناول الموضوع على القالب الروائي وفقط ،وإنما أدعو الأشكال الإبداعية الأخرى إلى تناوله ،حتى لو كان الحديث عنه مجرد رحلة ،فالمنطقة لا تزال بكرا وتحتاج إلى تعريف تمهيدا لإدخالها ضمن النسيج العام للأدب لمعرفة احتمالات المستقبل .

*تقديرك للنفط ومساوئه.. هل جاء نتيجة الأنماط الحضارية التي سادت بسببه ، أم نتيجة نخبة حاكمة لم تتصرف فيه بالشكل الذي ينبغي ،أم أنك بخيال واستشراف الروائي توقعت كل النتائج السلبية التي وقعت بسببه؟

- النفط مادة من الطبيعة ،لكن طريقة استخدامه والعقل الذي يستخدمه

هو الذي يحدد النتائج ،وأنا لست نبيا و لا زرقاء اليمامة ،لكن إجمالا رأيت كيف يتم التعامل مع هذه المادة في المنطقة والانتقال به من حالة إلى حالة ،وتوقفت عند حالة معينة في «مدن الملح»،أتمنى أن يأتي من يكمل بعدي ،ويقدم إضافة نوعية من خلال أعمال إبداعية ،ترصد ما تركه النفط من آثار سلبية في مرحلته الراهنة

* نكننا نجد آثارا ايجابية للنفط كاستثمار عوائده في إقامة بنية تحتية قوية في دول

الخليج ؟

- نعم لكن السلبيات فادحة .

*ماذا عن هذه السلبيات؟

كثيرة وأبرزها الصحافة الصفراء المأجورة ،وتخريب المثقفين بشراء ذممهم ليس بغرض الانتماء ،وإنما بغرض الانتصار لقرارات معينة ،يصاحبها لغة سائدة عبارة عن هجين من العنصرية في نظرة أصحاب النفط للآخرين خاصة العرب المحرومين .

وبدلا من أن يكون هناك أمانة عربية من أجل استقرار المنطقة بامتصاص فائض العمالة المحرومة ،نري أن العربي في البلاد المسماة ب«أقطار العسر »أسهل عليه الذهاب إلى بلد غربي من الذهاب إلى دولة خليجية نفطية ،وتشمل الآثار السلبية سيادة العقل القبلي وتغييب دور الدولة كمؤسسات ،وهو ما يؤدي إلى سيادة أنماط لعلاقات اجتماعية تم تجاوزها بمراحل في الدول الأخرى.

دعني أقول أن دولا مثل مصر وسوريا ولبنان كانت تؤثر على الجزيرة العربية ، حتى أصبح العكس هو السائد ، بدءا من طراز اللبس وانتهاء بالنمط الاستهلاكي ، ولكل هذه الأسباب أرى أن النفط لعنة من لعنات الله على المنطقة بدلا من أن يكون وسيلة من وسائل تقدمها .

*هل كان في تخطيطك أن تكتب «مدن الملح »في خمسة أجزاء؟

أنا لا أشابه أديب مصر الراحل يوسف السباعي الذي كان يحدد سلفا عدد صفحات الرواية وعدد الفصول ،وحتي عدد صفحات كل فصل ،فطريقة العمل عندي مختلفة تماما بمعني أنني أبدأ بتصور عام حول الموضوع ،دون أن يكون عندي قدرة على تحديد ماذا سيبلغ.

وأثناء العمل تبرز عوامل وعناصر كثيرة تفرض وجودها ،وتعطي احتمالات جديدة للتغيير ،ربما لا يكون في المسار الرئيسي،ولكن في علامات وحالات أخري ،

وذكرت أكثر من مرة أنني عندما أبدأ كتابة الرواية أكون مثل القبطان على ظهر السفينة ،أعرف الاتجاه العام ،ولا أعرف ماذا سيصادفني في الرحلة من احتمالات ، وربما أجد عناصر عديدة تأخذ الرحلة إلى مسارات أخري،أو تؤدي إلى أشياء إضافية لم تكن في البال.

وعندما بدأت كتابة «مدن الملح »كان تصوري أنني سأكتب رواية طويلة وكبيرة بحجم أهمية الموضوع الذي ستتناوله من الناحية الجغرافية والزمنية ،ولم أقدر أبد أن العمل سيصل إلى هذا الحد ،والآن وبعد كل هذه السنوات من الانتهاء من العمل يسألني بعض القراء متي ستكتب الجزء السادس؟

*هل هناك تفكير في ذلك بالفعل؟

- بيني وبين نفسي أنا انتهيت من الرواية تماما بالحالة التي بين يدي القراء ، ولكن ربما يأتي غيري ليعالج الموضوع من زاوية جديدة ،وبصيغة مختلفة ،فالموضوع غني يستوجب كتابات أخري، ومعالجات من منظور مختلف ،وهذا حق لأي مبدع ، وهناك موضوعات تحدد الملامح الأولية لأي عمل ،وكنت أفترض في البداية أن موضوع الرواية يحتمل ثلاثة أجزاء ،لكنها زادت إلى أربعة ثم خمسة ، وفي الإجمال أري أن من يقرأ «مدن الملح »هو قارئ شجاع ،نظرا لكمها الكبير،الذي يحتاج إلى فنية خاصة ،وصبر كبير في القراءة

*عبد الرحمن منيف « أنت ابن المنافي»،خرجت منفيا من قطر عربي إلى آخر وإلى دول أوربية أيضا ،فماذا أضافت هذه التجربة القاسية إليك؟

- طبيعة الحياة التي يعيشها المبدع تنعكس على عمله ،والرحيل عبارة عن زاد إضافي للمبدع لكنه كان إجباريا لي ،وما كان أبدا خياري المفضل ، فالأحوال السياسية التي عاشتها المنطقة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين أجبرتني على الرحيل من عاصمة إلى أخرى ، ومن مدينة إلى أخري،ورب ضارة نافعة

فرصة الانتقال من مكان إلى آخر في الوطن وخارجه ساعدتني على الاحتكاك ، والتفاعل مع عدد كبير من التجارب ، والحالات الثقافية الناضجة في بعض البلدان،وانتقالي المتعذر بين بلدان المنطقة العربية وخارجها من الجزيرة العربية إلى العراق ولبنان ،وبعض بلدان المغرب العربي فأوربا زودتني برؤية الجديد في الفنون ، خاصة الفن التشكيلي والموسيقي ، وكانت هذه التجارب جديدة بالنسبة لي ،وتركت أثارها الإيجابية على كتاباتي فيما بعد.

*مع التسليم بقسوة الرحيل ،لكن أي مراحله عادت عليك بالفائدة أكثر ؟

– الفترة من ١٩٥٦الي ١٩٥٨ كانت أخصب فترات حياتي بقدر ما كانت الأخصب في تاريخ مصر والمنطقة العربية ككل،شاهدنا تأميم قناة السويس في ٥٦ وإعلان الوحدة بين مصر وسوريا في ٥٨ ،يالها من أيام تلك التي أعلن فيها عبد الناصر قرار التأميم،وأعلن فيها قرار الوحدة،صدقني كن نشعر أن كل أحلامنا لدينا القدرة على تحقيقها،وأن قرارنا أصبح في أيدينا بعض طول غياب ،وأنا عشت خلال هذه الفترة في مصر طالبا في الجامعات المصرية ،وشاهدت نهوض المسرح المصري ، وانتعاش الحركة الثقافية وتوسعها،ولكل ذلك أعتبر هذه الفترة هي الأخصب في حياتي .

*في المقابل ..المؤكد أن هناك مرارات تذكرها..

– هذا مجاله واسع ،لكن ما يبقي قوله أن ترحيلي كان يتم بمرارة ،ففي مرات عديدة كان قرار ترحيلي يتم وأنا بعيد عن مكتبتي ،وأغراضي الشخصية التي كانت مصادر إضافية لعملي الإبداعي ،وفي مرات أخري كان يتم ترحيلي بسرعة ودون إكمال فكرة أساسية كنت قد بدأتها ووضعتها على الورق ، فضاعت الفكرة وضاع الورق ،لكن من خلال الرحيل اكتشفت أن الفارق بين مكان وآخر في المنطقة العربية هو فارق نسبي وليس نوعي .

* هذا الفارق النسبي بين مكان وآخر في المنطقة العربية،هل كان الدافع لأن

نري الأماكن في معظم أعمالك الروائية عامة وغير محددة باسم معين؟

- هذه ملاحظة صحيحة تماما فأنا حاولت قدر الإمكان أن تشمل روايتي على خصوصية للمكان تجمع في طياتها طبيعة أقرب إلى الشمول ،فالسجن السياسي الموجود في القاهرة لا يختلف عما هو موجود في عدن مثلا أو أي بقعة عربية أخري ، وعندما تناولت ذلك لم أعف أحدا من المسئولية عنه ،ومن العار الذي يلاحق بنائيه وجلاديه ،وأعطيت الموضوع في بعض الأحيان تسميات واسعة ليس هروبا من تحديد المكان،وإنما لأن الظاهرة شاملة وعامة ،فما ينطبق على العراق ينطبق على دول عربية أخري ،وما تجده في المغرب تجده في اليمن ،والرحيل بهذا المعني المجازي له فوائد ،لكن يبقي لي كإنسان أنني عشت معلقا في الهواء بين السماء والأرض ، وجذري غير ثابت وغير قوي،لا أستطيع ضمان البقاء على أرض ثابتة .

*أنت تدفع ثمن اختياراتك وصلابة التمسك بالمبدأ...

- هذا عزائي ،فأنا بالفعل أدفع ثمن اختياراتي السياسية التي ذهبت إليها بإرادتي ، وهذه واحدة من جملة الضرائب التي يؤديها أو يدفعها المثقف في وطنه الذي يضيق به أحيانا

*اختيارات الإنسان ربما تشكلها عوامل تبدأ من مراحل تكوينه الأولي ،فإلي أي مدي أثر ذلك في تشكيل وعيك الفكري الذي دفعت ضريبته ؟

- البيئة، خاصة في سنواتي الأولي متداخلة ومتحركة ،فعندما أمم عبد الناصر قناة السويس،ووقع العدوان الثلاثي لم تقف المنطقة العربية موقف المتفرج ،بل اهتزت كل بقعة فيها ،وكان دافع المشاركة لديها عاليا،وحدث هذا أيضا مع ثورة الجزائر التي أثارت الحماس في وجدان كل عربي ،وأذكر أنني وقتئذ كنت في القاهرة وشاهدت كيف أسهمت الثورة في ميلاد مبدعين أذكر منهم الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي

*أين البيئة الصغيرة في هذه الرحلة؟

- البيئة الصغيرة قد تحدث الأثر في بعض الأحيان ،لكنها تذوب في البيئة العامة حين يحكم إطارها كم كبير من العوامل والأحداث الهائلة بحجم ٥٦ وثورة الجزائر ، والوحدة بين مصر وسوريا ،وغير ذلك من الأحداث العظيمة التي مرت بها المنطقة ، وأذكر أن العدوان الثلاثي سجل حالة تاريخية نادرة من تداخل وتناسق البيئة العربية في كل أبعادها الشعبية والسياسية والاقتصادية ،كان شاهدها نسف المناضلين في سوريا لأنابيب البترول المتجهة لأسواق الغرب من الأراضي السورية ، تضامنا مع نضال الشعب المصري ، هذا بخلاف اشتعال الأحداث في كل مكان في المنطقة العربية وحتى خارجها .

ولكل هذه الأبعاد أري أن البيئة تسمية رمزية أكثر منها تحديدا لجغرافيا معينة ، خاصة أن هذه الفترة وما بعدها أكدت التفاعل والاشتباك والتواصل في واقعنا العربي ،ومن منا لم تؤثر فيه هزيمة يونية حزيران ١٩٦٧ ،وتعامل معها كواحدة من المحطات الكبرى في التاريخ العربي التي أثرت فيه بقدر ما أثرت في بيئته

*هذه الرؤية الواسعة لمفهوم البيئة لا تلغي عندي الرغبة في معرفة من أين جئت ، وهل أنت امتداد لأحد في العائلة؟

- في قصيدة مهمة للشاعر إيليا أبو ماضي اسمها «لست أدري»،سئل :من أين أتيت ؟فأجاب :لست أدري.

طبيعي أنا أذكر من أين أتيت ،لكن بوجه الإجمال أقول أنا امتداد لتراث عائلي في هذا المجال ،أنا امتداد لقراءاتي وترحالي، وتجاربي بالدرجة الأولي ،وكل هذا لا يلغي الكم الكبير من الثقافة الشفاهية التي انتقلت إلى ،والي كل جيلي تقريبا من الأسرة ومن الآخرين ،ثقافة اعتمدت على التراث الذي له طابع بدائي نسبيا لكنه كان غنيا ومهما، باعتباره تحويرا من التراث المكتوب ،وسمعت منه الزير سالم ، وألف ليلة وليلة ، وعرفت وحفظت هذا التراث بالتحوير الذي حمل إضافات إليه

طبقا لعوامل البيئة الخاصة،واعتبر أن الإرث العائلي في التأثير على تكويني رغم أنه وارد لكنه يظل محدودا بالمقارنة بالإرث الذي حملته من محيطي ،ومن الناس الذين التقيت بهم ،ومن الأماكن التي عشت فيها ،وشاهدتها وتعاملت معها عن قرب.

الثالوث المقدس

*أنتقل معك إلى أفق آخر في حوارنا ويتعلق بوضع الرواية العربية الآن ،فهل هي تعيش في أفضل حالاتها ؟

الإجابة عن هذا السؤال يتصدى لها ناقد متخصص ،لكن بوجه الإجمال الرواية العربية في وضع جيد ،وعندها آفاق أرحب وأهم في المستقبل ،بعد أن صار في عالمها تراكمات وأسماء وعدد كبير من الروائيين ،والأهم أن للرواية الآن جمهورا واسعا من القراء ،وشكل كل هذا مناخا مهما وغنيا ،يساعدها على التدفق والنمو .

وفي تقديري أن الرواية الآن هي أفضل الأدوات التي تضع يدها على المشاكل الأساسية للمجتمع بما فيه همومه وأحلامه الكبيرة ،وتستطيع تقديم إجابات إيجابية ، وتحتوي في الوقت نفسه على طيف واسع من تعدد الأسانيد والافتراضات ،وأنا متفائل ،لكن يبقي عتابي على أن الرواية العربية أمامها الإمكانية التي تساعدها في تشكيل إضافة مهمة للرواية العالمية ،وأن يكون لها مذاق مختلف ومتميز ،ويحتاج هذا إلى اجتهاد أوسع وأكبر ،ونوع من الصدور التي تتحمل ،كما يجب ألا تحكم بقسوة على التجارب الروائية بالسلب أو الإيجاب ،وتجعل تراكمها أكبر، والاجتهاد في موضوعاتها أوسع ،وينسحب ذلك إلى أساليبها الفنية .

نحن نحتاج نوعا من الروائيين يتصدى بجرأة لموضوعات يخاف آخرون من التصدي لها،وفي مقدمة ذلك الثالوث المقدس المتمثل في ،السياسة ليس بمفهومها المباشر ،والجنس بمعناه الراقي ،والدين بمفهومه الرحب ،على أن يكون كل ذلك في إطار منظومة تسهم في كشف نواقص المجتمع.

*إلى أي مدي أعطت الأجيال الروائية سمات محددة للرواية العربية ،وهل بلغت في ذلك الحد الذي يمكن معه أن نطبع الرواية بطابع الجيل الذي أنتجها؟

- هذا التقسيم يحتوي على نوع من التعسف والقسوة ،فمثلا هناك روائي يكتب في سن الأربعين ،وآخر يكتب في سن العشرين ،والفرق بين الاثنين جيل أو جيلان ، وبرغم ذلك تجمعهما حساسية واحدة ،وفي الإجمال لو افترضنا أن هناك جيلا مؤسسا للرواية ثم أجيالا لاحقة له سوف نجد أن شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ في شيخوخته وتقدم سنه ، ظل يقول أشياء مهمة في الرواية شكت إضافة حقيقية لعالمها.

كما أن الأجيال التي جاءت من بعده أحدثت نوعا من التراكم والآفاق المرئية ، فيما يعني أن التفاعل مستمر ويتداخل بين كل الأجيال ،بحيث أننا نستطيع القول: إن تقسيم الرواية بمفهوم الجيل هو نوع من التمييز فقط ،وفي رأيي أن نجعل هذه القضية مفتوحة دون وضع حد قاطع لها

*قصدت بالتقسيم الجيلي ارتباط الرواية بالمراحل والأحداث التاريخية التي إندمج فيها الروائيون كثورتي ١٩و٥٢ في مصر،ومرحلة الانهيار العربي التي تجسدت في أحداث كحصار بيروت عام ١٩٨٢

- يمكن انطباق هذا التقسيم على الشعر أكثر من الرواية ،وربما وكما ذكرت في سؤالك أن التقسيم جاء نتيجة التأثر بمراحل تاريخية بعينها فنجيب محفوظ ابن العشرينات من القرن العشرين لم يخفي تأثره بثورة ١٩ وتحدث عنها كما تحدث أيضا بنفس القدر عن ثورة ٥٢ ،كما نجد روايات مثل «مالك الحزين »تأليف إبراهيم أصلان،«والحب في المنفي »تأليف بهاء طاهر وغيرهما من الروايات لا تجمع في داخلهم الفصل الحاد بين جيل وآخر

ومن مظاهر الرواية الآن أنها تأتي بما يقوله التاريخ ،كما فعل جمال الغيطاني في رواية «الزيني بركات»،وهذه النوعية من الروايات التي أطلق عليها البعض اسم

«الرواية التاريخية ،لا ينفع معها التقسيم الجيلي ،فهي تتناول حقب تاريخية تري فيها أحداثا يمكن إسقاطها على الحاضر ،وتعطي دلالات مهمة ،وتوفر للرواية فسحة أكبر من الموضوعات التي يمكن تناولها .

*قضية التاريخ في الرواية ،أو«الرواية التاريخية»قد يراها البعض نوعا من الانسحاب من الحاضر ،أو استغراق في التراث الذي له معطيات مختلفة عن معطيات الحاضر.

- في المنعطفات الكبرى يحدث غالبا نوع من المراجعات الشاملة ،للبحث في أسباب الانهيار والنهوض ،واعتبر مثلا أن جذور تطورات القرن العشرين ، موجودة في القرن التاسع عشر ،ولهذا جاءت ضرورة العودة إلى الوراء لاكتشاف ومعرفة المسارات ، ووضع اليد بدقة على أفضل ما في المنعطفات التاريخية ،أضف إلى ذلك أن بعض الروائيين عادوا إلى فترات تاريخية أقدم على أساس أن الجدل حولها فيه فائدة للحاضر لفهم طبيعة الأماكن والبشر،و أنا أكتب الآن رواية عن القرن الـ١٩ (أرض السواد)، ورجعت إلى الكثير من المراجع والدراسات التي تناولته حتى أستوعب مثلا ما يقوله البدو :«ذلك الغيم جاب هذا المطر»،فالعوامل التي شكلت نهايات القرن ال١٩ هي التي أعطتنا نتائج القرن العشرين من ناحية التقسيمات السياسية ،وأنظمة الحكم ، وسيادة البداوة ،والعلاقات التي حكمت وتركت أثرها حتى الآن .

*وأنت تتصدي لكتابة رواية بهذا الشكل.. هل تتوغل في قراءة التاريخ وفقا لوجهة نظر معينة تعينك على الالتقاط؟

- أنا لي رؤية خاصة للتاريخ تبدأ من أنه حدث تلفيق كبير تم في تناوله ، وبخاصة في التاريخ الرسمي ،ولذلك أري أنه لابد من العودة إلى ما أسميه بـ«التاريخ الموازي»،وهذا يقودنا إلى ضرورة البحث في سجلات تجمع حقيقة وأصول الحكايات ،ونوع المدن التي كانت موجودة ،وحتى نوع الأزياء التي سادت ،

والتلفيق الذي حدث يمكن إصلاحه من خلال الكتابة غير الرسمية للبعض .

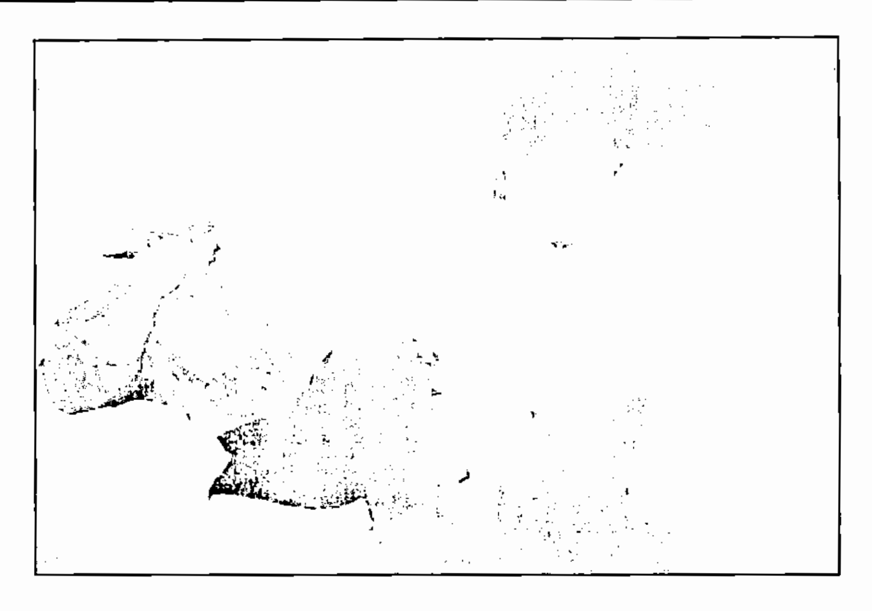
وأنا لا أسلم بسهولة بالأشياء التي تبدو مسلمات لدي الغير ،ولهذا تخضع الأحداث التاريخية عندي للتدقيق والقراءات المختلفة والمتناقضة ،ويقودني هذا إلى القول بأننا نحتاج إلى مراجعة وتصنيف التاريخ من جديد ،والذي وصلت درجة الاستهانة به حد استخدام الوقائع ونقيضها ،واستخدام دلالات منها تتناقض مع دلالتها الأصلية،ويظل موضوع التاريخ شائكا وحمال أوجه لدي البعض ،بمعني أنك تستطيع استخراج الجواهر والكنوز منه ،كما تستخرج منه في أحوال أخري أشياء تخدم حالة راهنة بمعني تطويعها لصالح أغراض خبيثة ،وأنا ضد هذا النهج ، وأعود إلى التاريخ برؤية اكتشف من خلاها عيون الحقيقة ،والرغبة في إيجاد تفسير مادي ملموس وصحيح ، وعلي سبيل المثال أنا مقتنع إلى حد بعيد بقراءة على الوردي للمجتمع العراقي والذي يذهب في إجماله إلى صراع البداوة والحضارة ، والازدواج في الشخصية العراقية في مرحلة معينة ،وأيضا الموقع الجغرافي ،وطبيعة النفسية التي تكونت للبشر وحكمت سلوكهم .

*أستاذ عبد الرحمن إلى أين يقودنا هذا التزييف؟

إلى بداوة تتمكن منا أكثر ،وإذا لم نراها الآن سنستمر في خطأ فهم التصرفات الراهنة أنا أخشى من البداوة الجديدة التي تزحف على المنطقة ،صحيح نحن نلبس رباطات العنق ،وملابس حديثة تفرق في أناقتها أحينا أزياء فرنسا ،لكن نحمل في داخلنا بداوة كبيرة في السلوك والعلاقات الاجتماعية والنظرة للواقع ،وأخيرا القرار السياسي .

ملحوظة :

كان نجيب محفوظ على قيد الحياة أثناء التسجيل ثم نشر هذا الحوار .. توفي نجيب عام ٢٠٠٦.



عبد الرحمن منيف في اللقاء مع سعيد الشحات ، في منزل منيف بضاحية المزا في العاصمة السورية دمشق



عبد الرحمن منيف متابعا أسئلة سعيد الشحات



ذكريات الشعر والسجن وفلسطين

وقائع جلسة نادرة بين محمود درويش
وسميح القاسم وأحمد دحبور وهارون هاشم
وكرم مطاوع ويوسف القعيد

أطل الشاعر محمود درويش بهيبة ، فرفع الشاعر سميح القاسم يده اليمنى مناديا :«تعال يا محمود»، وجاء محمود .

كانت مفاجأة اعتبرتها أنا وصديقى الصحفى الراحل مجدى حسنين أشبه بكنز يأتينا من السماء، والكنز ليس فقط بلقاء محمود درويش ، وإنما فى جلسة تضمه مع سميح القاسم الشطر الثاني في برتقالة الشعر والحياة التي تقاسمها الاثنان سويا،الحياة التي لخصها سميح في كلمة بليغة قالها بعد وفاة محمود لجريدة العربي لسان حال الحزب العربي الناصري في مصر :«نفرح ونحزن ،نهدأ ونغضب ، وصديقان منذ الصبا ،تقاسمنا رغيف الخبز معا ،لعبنا معا ،كتبنا الشعر في السر والعلن معا ،خفت عليه وخاف علي».

كنا فى الثامنة من مساء الرابع من نوفمبر عام ١٩٨٨ ، وكان فندق شبرد المطل على النيل هو مسرح اللقاء.

كانت القاهرة تستضيف مؤتمر «الحفاظ على المقدسات الفلسطينية» وكان ينظمه اتحاد الفنانين العرب برئاسة الراحل الكبير الكاتب سعد الدين وهبة،أيام كان لهذا الاتحاد حياة.

كان الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات على قمة المشاركين وألقي كلمة مفتوحة الحضور للجماهير في القاعة الكبري بالفندق ، لم يكن وقتها رئيس سلطة فلسطينية بعد ،كان رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

انعقد المؤتمر في أجواء الانتفاضة الفلسطينية الأولي ،التي استخدمت الحجارة وسيلة تعبير ضد المحتل الإسرائيلي ،وتعددت القراءات والاجتهادات معها حول المسارات المستقبلية للقضية الفلسطينية ،بعد أن خفت صوت البندقية التي كانت ترفعها منظمة التحرير الفلسطينية والأنظمة العربية المساندة كوسيلة وحيدة لتحرير فلسطين.

جاء المؤتمر أيضا بعد نحو عامين من الخطابات المتبادلة التي استمرت شهورا بين درويش والقاسم على صفحات مجلة «اليوم السابع» التي كانت تصدر في باريس،وتوقفت فور اندلاع حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠ على أثر غزو العراق للكويت.

كانت الخطابات قمة في النثر الأدبي ، وصدرت في كتاب بعنوان «الرسائل.. لمحمود درويش وسميح القاسم » ،وبواسطتها عرفنا الكثير مما كان يجمع الاثنين في نضالهما ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين ،وعضويتهما في الحزب الشيوعي الإسرائيلي،وعن موهبتهما المتفجرة في الشعر والكتابة من خلال جريدة الاتحاد العربية التي كانت تصدر في حيفا .

جاء سميح القاسم للمشاركة في المؤتمر، وكانت المرة الأولي التي يأتي فيها إلى القاهرة ،ولم يصدق أنه يرى عاصمة عربية خالصة لأول مرة فى حياته .

جاء وفي الخلفية سيرة مناضل وشاعر ،عمل مدرسا في بداية حياته في إحدى المدارس العربية ،لكن الاحتلال الإسرائيلي طرده لنشاطه المعادي ضد الاحتلال.

جاء إلى مصر وفي سيرته التي كنا نتداولها، أيقونة أنه لم يغادر الأرض المحتلة إلى الخارج ،وظل يمارس نشاطه النضالي في الداخل ،ويدفع ثمن ذلك،وكنا نحن المقبلين الجدد على العمل الصحفي ،والمتوهجين بحلم النضال من أجل القضية الفلسطينية ، نجدد النقاش، حول أيهما أصوب ..سميح في بقائه .أم محمود في خروجه ؟ .

كنا نفعل ذلك بجدية برغم انتهاء الحديث بشأن هذا السؤال الذي كان شائكا في بدء طرحه ، وصار مضحكا فيما بعد بفعل السياسة التي جعلت العدو يجلس على موائدنا العربية ،لكن نجومية الاثنين وخصوصية أنهما فلسطينيين كانت تعلقنا بأي سيرة وحديث عنهما ،كان النقاش يستمر وينتهي، وننقسم فريقين، كل على حجته

ورؤيته لا يحيد عنها.

جاء درويش للمشاركة في مؤتمر «حماية المقدسات الفلسطينية»،وذلك بعد نحو سبعة عشرة عاما من قدومه لأول مرة إلى مصر (فبراير ١٩٧١) للإقامة فيها ،وكانت تلك مفاجأة كبيرة في الحياة الأدبية والسياسية، صاحبها جدل كبير حول مشروعية خروجه من فلسطين ، وممارسة النضال من الخارج ، رغم قول درويش في المؤتمر الصحفي الذي انعقد له في مبني الإذاعة والتليفزيون وحضره وزير الإعلام محمد فائق:«غيرت موقعي ولم أغير موقفي»

انضم درويش لكبار الكتاب في جريدة الأهرام ومجلة المصور،لكنه لم يستمر في القاهرة كثيرا حيث غادر مصر إلى لبنان ،وفي بيروت كان ضمن المقاومين لحصار إسرائيل لبيروت عام ١٩٨٢،قاوم بأجمل الشعر ، وأشجانا و وأبكانا وقتها عبر صوت وموسيقي مرسيل خليفة بقصيدته :

«أجمل الأمهات

التي انتظرت ابنها

وعاد مستشهدا

فبكت دمعتين ووردة

ولم تنزوي في ثياب الحداد»

بعد الحصار بأقل من عامين،جاء درويش إلى القاهرة بدعوة من حزب التجمع اليساري المعارض ، وحضر إليه حشد كبير في أمسيتين، واحدة فى حزب التجمع، والتي جاءت بعد ساعات من الإعلان عن موت الشاعر الفلسطيني الكبير معين بسيسو في أحد فنادق لندن ،فألقي درويش في الأمسية كلمة عن الراحل أثرت في الحاضرين إلى حد أن البعض ذرف الدموع، خاصة أن معين بقي ميتا ليومين دون أن يعرف أحد ،لأنه وضع على باب غرفته لائحة مكتوب عليها «الرجاء عدم

الإزعاج».

وكانت الأمسية الثانية في نقابة الصحفيين أمام جمهور حاشد امتلأت به القاعة الأرضية لمبني النقابة القديم، وبلغ الزحام مداه إلى درجة الوقوف في حديقة النقابة، وقدم الكاتب الكبير الراحل يوسف إدريس شاعرنا الكبير،وألقي إدريس كلمة مزجت بين الأدب والحماسة والسياسة،عن الشعر والنضال الفلسطيني، وعن «مصر كامب ديفيد» التي لم تعد لفلسطين والفلسطينيين كما كانت، بدليل أن صحيفة الأهرام رفضت نشر نعيا كتبه إدريس بنفسه - كما قال - لمعين بسيسو.

كان استقبال القوي السياسية وجمهور الشعر لمحمود درويش في أمسيتي التجمع ونقابة الصحفيين له طعم مختلف،يختلط فيه الحنين بالشجن بالشوق،بصورة المقاوم والفدائي الفلسطيني، الذي خرج من بيروت عام ١٩٨٢، موزعا على العواصم العربية البعيدة عن حدود المواجهة ضد إسرائيل ،في مشهد حمل بشائر التقاعد عن نضال البندقية.

جاء الشاعران الكبيران إلى القاهرة وفى الخلفية كل ما سبق ،وما عرفناه عن خصوصية العلاقة الشخصية والشعرية بينهما، ولأنها المرة الأولى لسميح القاسم في القاهرة ،تدافع إليه عشرات الصحفيين منذ اليوم الأول لوصوله ،وكان مع الكل كريما طيبا يلبي رغبة الجميع في إجراء الحوارات،لكن لم يجمعه أحد مع درويش في لقاء واحد،وحملتنا الصدفة وحدها أنا وصديقي مجدي حسنين إلى هذا الإنجاز الصحفي ،وكان الشيخ عبد الحميد السايح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني «وقتئذ» هو كلمة السر في إنجاز هذا اللقاء.

ذهبنا إلى فندق شبرد للقاء الشيخ عبد الحميد لإنجاز حوار صحفي حسب موعد مسبق معه،وبعد نحو عشر دقائق من الحوار جاءه استدعاء سياسي عاجل ،لم يكن في الحسبان،فأبدي لنا الرجل أسفه ،مضطرا إلى الانصراف ،وعلي وعد أن نأتيه

في اليوم التالي،ولدي خروجنا من الفندق شاهدنا سميح القاسم يجلس وحيدا يتناول الشاي،ذهبنا إليه لتحيته فعرض علينا أن نشاركه جلسته».

جلسنا ،وتجاذبنا أطراف الحديث حول الأمسية الشعرية التي كانت في مسرح البالون،ومضي عليها أقل من يوم واحد ،وشارك فيها درويش وسميح وأحمد دحبور ومريد البرغوثي،وكذلك الأمسية التي سبقتها بيومين في مسرح الجمهورية.

ألقي درويش في أمسية البالون ثلاث قصائد ،كانت بالترتيب « عابرون في كلام عابر » ، ثم «أسميك نرجسة حول قلبي»وهي مهداة إلى سميح القاسم،وأخيرا «هي أغنية » .

كان أداء درويش في « اسميك نرجسة حول قلبي » مؤثرا وشجيا ،استمع اليها سميح الجالس بجواره على المسرح ،وعيناه صوب الأرض لا تبرحها،ولا يمر مقطع دون أن يهز رأسه وأحيانا جسده،ولاحظ الجمهور تأثره حين قال درويش:

«اسميك نرجسة حول قلبي

لو كان قلبي معك

وأودعته خشب السنديان

لكنت قطعت الطريق بموت أقل»

قال مجدي لسميح :«التأثر كان واضحا جدا عليك «امبارح» أثناء إلقاء درويش قصيدة «اسميك نرجسة حول قلبي»».

رد سميح:آه ابن.....بكاني»،محمود يكتب شعرا يبكيك من شدة شفافيته.

بينما نحن على هذا الحال ،أطل محمود درويش،فناداه سميح ،ليدق قلبي و قلب مجدي ترقبا ،وفي خيال كل منا تحدي الرغبة في إنجاز هذا الحوار الثنائي ،فكيف سنحققه؟

«أهلا يا سميح، كيف الحال»، هكذا قال درويش وهو يستعد للجلوس.

قبل أن يبادله سميح التحية ، وقبل أن يستقر فى مكانه واصل :«أنا يائس»، قالها بصوت منخفض.

رد سميح ضاحكا :« يأس ..ليه .. فيه سبب».

رد محمود:«لا أعرف».

واصل سميح ضحكه :« فلنتحدث عن الأمل ،وأقدم إليك يا محمود الصحفيين، سعيد الشحات ومجدى حسين».

أسرع محمود بالرد: طبعا الجلسة غير صحفية.

ضحك سميح: لا،لا ،يا محمود، هما أصدقاء محترمين ويعجبوك ،أنا عرفتهما من يومين في حوار صحفي ،شباب واعي في السياسة والأهم في الشعر .

كانت طمأنة سميح ،وطبيعة الجلسة الودية التي وجدنا عليها محمود حافزا لفتح شهيتة للكلام فتكلم:

أتعجب من مطاردات الصحفيين وأسئلتهم الجاهزة التي لا تتغير، ولا تثير أي فضول للكلام، أسئلة من عينة :

ما رأيك فى إعلان الدولة الفلسطينية المستقلة؟

ما رأيك فى الخلافات العربية ؟

ما رأيك في القضية الفلسطينية؟

ما رأيك في منظمة التحرير الفلسطينية ؟

أضاف محمود درويش ضاحكا: المطلوب أن أقول الإجابات عن كل هذه الأسئلة،أكثر من مرة في اليوم الواحد ، وأخذ محمود يعدد نوعية أخري من الأسئلة ، التي يلاحقه بها الصحفيون موجها كلامه إلى سميح:

الموضوع يا سميح لا يقف عند هذا احد، وإنما الأسوأ منه يكون في الإلحاح على الإجابة دون مراعاة حالة عدم الرغبة في الكلام، يا أخي أعطيني رغبة الحق في

عدم الكلام، طبعا والاتصال يكون في أي وقت ،والمطلوب من المصدر التحدث على الفور.

ضحكنا ،وضحك درويش بعد أن اتسع المجال، لنوادر أخرى ذكرها فى هذا الأمر، وكل نادرة يحكيها، يوضح كيف كان يخرج منها بدبلوماسية رغم حصار الصحفيين له.

كنت أتأمله ، وذهنى مشغولا بكيفية تغيير هذا المزاج ، والحصول على موافقته لأن تكون جلستنا صحفية.

استدعيت من ذاكرتى حوارا أجراه معه الإعلامى مفيد فوزى في عمان ،ونشرته مجلة الدوحة في مطلع الثمانينات من القرن الماضي إن لم تخني الذاكرة، وقت أن كان رئيس تحريرها الناقد الكبير رجاء النقاش، و أشار فيه مفيد إلى أنه أكتشف أن أسهل طريق للاقتراب من محمود درويش هو أن يستمع إلى شعره منك، أى أن تكون حافظا لأشعاره.

قررت تطبيق هذه الطريقة، وقربنى منها ما ذكره سميح :«ابن ...محمود بكاني » تعليقا على ملاحظة مجدى حسنين حول قصيدة «أسميك نرجسة حول قلبى».

فقلت متسائلا لدرويش وسميح :«لكل منكما طريقة مختلفة فى إلقاء الشعر فأنت يا أستاذ محمود تضفى شجنا عميقا على المستمع، بينما تميل طريقة إلقاء الأستاذ سميح إلى الأداء «المسر حى»، كما كان واضحا فى القائه لقصيدته «شخص غير مرغوب فيه»، فهل يعود ذلك إلى بنية القصيدة نفسها ،أم طريقة معينة يفضلها الشاعر فى إلقائه؟

كان سؤالى مفتتحا لكلام كثير ومتشعب فى الجلسة التى زادت عن الساعتين، وشملت آراء فى «مسرحة الشعر»، وقصائد لا يحب درويش وسميح إلقاءها، والظرف الذى دفع درويش إلى تأليف قصيدته الرائعة «أحن إلى خبز أمى»، وغيرها

من الآراء التى شارك فيها أيضا ضيوف انضموا لبعض الوقت إلى الجلسة، وهم الكاتب والروائى يوسف القعيد، والفنان الراحل كرم مطاوع ،والشاعر الفلسطينى أحمد دحبور،والشاعر هارون هاشم الرشيد

ولا أنسى أبدا ما حدث من درويش حين بدأ تعليقه على سؤالي ،كنت أضع جهاز الكاسيت فى الجيب الداخلي للجاكيت ، ودون أن يشعر أحد –هكذا تصورت– مددت يدى إلى الجيب حتى أضغط على زر تشغيل الكاسيت،كنوع من المحايلة،والفوز بالتسجيل ،ثم الاستئذان في نهاية الجلسة على نشرها صحفيا ،المهم أن أشياء كثيرة ضغطت على تفكيري ،ودفعتني إلى محاولة «سرقة» الجلسة بالتسجيل، لكن درويش أعفاني من كل ما يترتب على ذلك من ذنوب، وبسرعة بديهية فائقة، فوجئت به يقول لى: «طلع الكاسيت»، ضحكنا، وضحك هو من قلبه كالطفل، وبدا فى لحظة كما لو كان يضحك زهوا بقدرته على كشف مخططي.

أخرجت الكاسيت فرحا ،و قال سميح: «مسموح بالتسجيل؟».

رد درويش: «مسموح، هيّ جلسة حميمية، وأتمني فقط أن ننسي أن فيها كاسيت حتى لا نتقيد بشيء».. وبدأنا ..وانتهيا.

وكلما عدت خلال السنوات السابقة إلى الاستماع لما دار فى الجلسة، أتأكد كم كانت جميلة، وكم كانت جميلة تلك الصدفة التي قادتنا إليها ،وكم كان جميلا هذا الاستدعاء السياسي للشيخ عبد الحميد السايح .

رحل محمود درويش ،ومن قبله بسنوات رحل شريكي الصحفي في إنجاز هذه الجلسة صديقي مجدي حسنين الذي خطفه الموت مبكرا فترك حزنا مقيما في قلبي وقلوب كل محبيه ،ورحل الفنان كرم مطاوع ، فليرحمهما الله، وأنقل هن ما دار فيها بأسلوب «المضبطة»، مع بعض التدخلات بالمعلومات والتوضيحات حول بعض القضايا التي أثيرت ،أملا في الوصول بالموضوع إلى ما يليق بكل المشاركين فيه .

إلقاء الشعر

بدأ محمود درويش كلامه حول سؤالي عن اختلاف طريقة القاء الشعر بينه وبين سميح قائلا:

رد فعل الناس أو انفعالهم سواء كان بكاء أو حماسه لا تقرره القراءة ، وإنما رسالة القصيدة ، وحالتها النفسية التى تحدد رد الفعل وليس الإلقاء ، سميح مثلا لو قرأ قصائد من ديوانه الأخير....

سميح : لو قرأت مثلا قصيدة « تغريبة »...

محمود : نعم .. نعم .. الناس لن يتحمسوا

سميح : القصيدة بتفرض الجو ، وتفرض الإلقاء أيضا

محمود : أكيد ،أكيد ، لكن فيه شعراء لا يفهموا قصيدتهم «كويس» الإلقاء الجيد ، يعنى الشاعر لا يستوعب نفسه

سميح : ممكن يتصور أنه بالصراخ يستطيع السيطرة على الجمهور

محمود : الحزن له وتيرة صوتية تعطى مهابة

سميح : لما تنظر فيها بعد ربما تجد تناقضا بين نص القصيدة من حيث مضمونها وبين نبرة الإلقاء ، تخيل مثلا شعرا مثل :

« من أى عهد فى القرى تتدفق

وبأى كف فى المدائن تغدق »

هذا شعر لا يمكن قراءته كقراءة :« حننت إلى ليلى ...» فمضمون القصيدة يفرض القراءة

محمود : من الضرورى أن نلاحظ أن كتابه الشعر فن ، وقراءته فن آخر ، ولا توجد علاقة بين الاثنين ، .. القراءة شيء له علاقة بالمسرح .. مثلا شاعر عظيم مثل شوقى لم يكن يجيد أو يستطيع قراءة شعره ، و عبد الوهاب البياتى أيضا لا يقرأ

شعره ، على الجارم كان يقرأ لشوقى .

مجدي: قيل إن كامل الشناوى كان يقرأ لشوقى

محمود د: لا ..لا .. على الجارم هو الذي كان يقرأ شعر شوقي

سميح : أشك فى رواية أن كامل الشناوى كان يقرأ لشوقى ، واعتقادى أن من يقرأ لشاعر إلى حد ما يجب أن يكون في مثل حجمه ، وأقول إلى حد ما ، لأنه حين يكون فى حجمه يستوعب ما يقال ،ويعرف صنعة القصيدة ،وطبيعة أجواءها، وكامل الشناوى بالنسبة لشوقى شعريا لا شيء ،ومن هنا أشك في تلك الرواية.

محمود : هناك مذيعون وممثلون مسرح ممتازين يقرؤون الشعر .

سميح : مهما يقرؤون،مهما يقرؤون.

محمود : لا يا سميح ، كرم مطاوع ـه قراءة لقصائد لي ، تحب أن تسمعها منه ، وأنا أيضا ، لأنه يحولها الى مسرح ،أي يحولها من فن الى فن آخر ، وكرم ليس شاعر ، لكنه قادر على تمثيل الشعر وتقديمه بشكل غير معقول، وسهير المرشدي أيضا ، وسميحة أيوب سمعت لها من حوالي ٣٠ سنه تقريبا قصيدة لي لا أحبها إطلاقا ،لا أطيقها وهى « سجل أنا عربى » ، سمعت منها القصيدة في الإذاعة ،شيء غير معقول وأنا أسمعها منها، حين سمعتها صدقوني أنا قلت .. معقول أنها قصيدتى، و الحقيقة أنا كنت أسمع منها ؤأشاهد مسرح ، أسمع منها حاجه غير قصيدتى التي لا أحبها

سميح : يا محمود ، هى لم تأت بشيء من بيتها ، هى قرأت القصيدة اللى انت كتبتها .

محمود : لا..لا يا سميح .. فنان المسرح يضفى جديدا لا يكون في الحسبان

سميح : مهما يضفى ، الممثل بحجم ما هو قدير ، هو يكتشف ما فى القصيدة

محمود : هو يقدم خدمات مسرحية تكبر الصورة أو الحركة ، هو يأتى بخدمات

من خارجها ، أى يستعير من فن المسرح عناصر تسهم أكثر فى إنارة النص الشعرى، وإيصال القصيدة،طبعا هو لا يعرف من جديد .

سميح : هات أعظم ممثل فى العالم ليقرأ قصيدة رديئة ، لن يستطيع أن يقنع أحدا بها .

محمود : فى تلك اللحظة،لحظة قراءتها ، قد يخدع المستمع بأنه يقرأ قصيدة جيدة بينما هي رديئة .

سميح : قد يخدع المستمع العادى أو دون العادى .

سعيد:هذا الجدل المثير وما ذكرته يا أستاذ محمود حول قصيدة «سجل أنا عربي» يدفعني إلى السؤال ما القصيدة التى لدى سميح القاسم ومحمود درويش يتجنبان قراءتها ؟

سميح : قصيدة « تغريبة » قصيدتك يا محمود.. أختنق .. أحب قراءتها ، وأخشى قراءتها .. هى قصيدة فاضحة ، مرهقة أتجنب قراءتها ،هناك قصائد وجدانيا مرهقة

توضيح:تعبير سميح القاسم «قصيدتك يا محمود»،جاء لأن «تغريبة» كتبها سميح عندما اعتقد أن محمود درويش مات بنار القذائف الإسرائيلية أثناء العدوان على بيروت عام ١٩٨٢ وأهداها إليه،ومن مقاطعها:

«فماذا عساني أفعل وحدي

وماذا ستفعل وحدك

وقد صار لحدي مهدي

ومهدك لحدك

أأنشد عنك

وتنشد عني

لصحراء قاحلة قاحلة

يموت على ساعديها المغني

وتتركه خلفهما القافلة»

محمود : « هى أغنية » أتحاشي قراءتها ، ونادرا ما أقرأها .. قرأتها فقط ثلاث مرات ، مرة نجحت ، يعني استطعت مو صلة قراءتها ، وآخر مرة ، أنا تعبت ، لم أكن مستريحا

سعيد: لكن الجمهور استقبلها بالأمس جيدا

محمود : قرأتها .....

سميح : قرأتها بارتياح

محمود : لكن ليس مثل قراءتى الأولى ها فى بغداد

أحمد دحبور يتدخل، مذكرا درويش بأمسية سابقه لهما ، ويذكره بأنه ألقى فيها «هى أغنية » وان أحدا حكى له أنه بكى .

دحبور يسأل درويش عن رأيه فى قصيدته « العودة إلى شاى الصباح »، والتى ألقاها فى أمسية البالون،ويقول في مقطع منها:

« كأنك جمرة فى فحل هذا الليل

حيث تفض يتبع خطوك الشار

كأنك صحوة والنوم هذا المجهض السفر

كأنك فاعل الإعراب وحولك جملة الإعراب

نشامى يملؤن القاع مفعول لأجلهم الدم الغالى

درويش : قصيدتك يا أحمد فيها مشكلة بنائية .. أقول لك : فيه مشكله بناء ، تطلع على الموضوع ، ما فيه شاى ، ولا فيه صباح ، هذه واحدة، والثانية أننى لاحظت أن فيه مقاطع فيها كلاسيكية سلفية ، لا أعرف تزعل منى ولا لأ .. لكن

أنا إمبارح ما حبيتك .. الموضوع فلت منك كبناء ، حاول ترجع له ، حكاية مقطع الإعراب .. وفاعل ومفعول به ، هى لعبه مسرحية

أحد القريبين من الجلسة يسأل : أنت قرأت أكثر من قصيدة يا أستاذ أحمد أمس.

يرد درويش :رأيت الانطباع يا أحمد، بأن فيه أكثر من قصيدة .. فيه مشكلة بناء ، لا أعرف ما هى ..وبعدين مقطع الإعراب ما بيطلع بأي عقلية أخري ،حاول تخفف منه،وبعدين حكاية الفاعل والمفعول به لعبة مسرحية أكثر منها لعبة شعرية غنائية .

سميح: أنت قرأت يا أحمد أكثر من قصيدة إمبارح .

محمود:شوفت الانطباع ،بأن فيه أكثر من قصيدة في القصيدة،لازم تقرأها يا أحمد من جديد ،وتضع إيدك على أن هندسيا فيها مشكلة.

أحمد دحبور : مريد البرغوثى قال لى هذا الكلام ،قال أنا قرأت لك القصيدة ، لكن لما سمعتك وجدت وكأنك تقرأ أكثر من قصيدة

محمود:يجوز.

سميح :يجوز أن القراءة تعطي هذا الانطباع ، وأنا متصور أنك قرأت أكثر من قصيدة .

محمود : القصيدة فيها « كولاج » ،يا أحمد هي غير ملمومة،إقرأها مرة تانية.

سميح:يجوز لما تقرأها..

أحمد دحبور:ويجوز «لأ»،فهي نص جديد أنا غير قادر أن أبعد عنه

*يتقدم « الجرسون » بمجموعه أوراق الى محمود درويش ويأخذها ، وينبهه سميح القاسم ضاحكا :« من الآن فصاعدا كل بطاقة تصلك اقرأها» .

كان محمود يمزق معظم الأوراق ، ويرد ضاحكا : «فيه تسجيل بلا فضائح » .

***

سجل أنا عربي

سعيد: أستاذ محمود ، نعود إلى ما قلته بأنك لا تحب قصيدة :

«سجل

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأطفالي ثمانية

وتاسعهم سيأتي بعد صيف

فهل تغضب»

ألا يعد هذا يا أستاذ محمود قاسيا على قصيدة تحولت إلى نشيد فلسطيني ضد المحتل

محمود : هذه مسألة تتعلق بأني أريد ألاَّ يقف بي الجمهور عند هذه المرحلة ، فأنا لست شاعر القصيدة الواحدة، أحب أن يعرفني الجمهور في كل مراحل تطوري.

سميح : هنا ك قصائد ، للصدفة التاريخية ، ولسبب من الأسباب أصبحت علامات ليست فى حياتنا ،و إنما فى حية قضيتنا كلها ، قصيدة « سجل أنا عربي » ليست قصيدة فى حياة محمود درويش ، بغض النظر عن تقييمه أو تقيمنا الفنى لها ، هى فى دورها ومرحلتها كانت فاصلة ونقطة انتقال ليس فى شعرك يا محمود ، و إنما فى القضية ووعى الجماهير .

سعيد: هل لك يا أستذ سميح قصيد ة لا تحب قراءتها لنفس الأسباب التي ذكرها الأستاذ محمود.

سميح :نعم الجمهور يطالبني كثيرا بقصيدة « سأقاوم » ، أنا مللت منها ، وأقرأها مجامله للناس ، وليس حبا فيها ، الجمهور فى ذهنه أوفي ذاكرته قصيدتين، أو ثلاث ،أو أربع ، شكلوا مفهوم شعر المقاومة عنده ، ولا يحيد عن الرغبة في سماعهم .

سعيد:معني ذلك أن الجمهور لا يتطور ذوقه الشعري؟

سميح : الجمهور لا يتطور ذوقه الشعري ، مثلما يتطور الشاعر نفسه ، هي صنعتنا ، شغلنا ليل نهار، نلهث ، نجرى وراء نفسنا ، لأن قضية التطور تهمنا جدا ، أما الجمهور فلا ، هو لو سمع قصيدة وأحبها وارتبطت بوجدانه، يظل يسمعها حتى لو ٥٠٠ سنة ، وأمام ذلك أتصور أننا حين نقرأ هذه القصائد ،نقرأها مجاملة للوجدان الشعبي ، يعنى هى تنتقل من ملكية خاصة إلى ملكية عامة ، ومن الصعب استرداد هذه الملكية ، وأقول أن هذا الأمر لا ينسحب على كل القصائد ،وإنما كل شاعر مكرس له قصيدة أو إثنين أو ثلاثة صاروا كلاسيك ليس هذا فحسب، وإنما صاروا فلكلورا ، أبو القاسم الشابى عنده قصائد كثيرة، لكن الناس تلخصه فى : « إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد للقيد أن ينكسر » ، وعندنا في فلسطين الشاعر عبد الرحيم محمود له ديوان ، لكن الناس تذكر له بيتين :

« سأحمل روحى على راحتى ....وألقى بها فى مهاو الردى .

فإما حياة تسر صديق .... وإما ممات يغيظ العدا » .

بيتان صارا « ماركة » لهذا الشاعر، الذى يتسامح أمام الوجدان الشعبى ،فيقول القصيدة حتى لو كان لا يحبها.

مجدى:نحن هنا أمام مأزق يتمثل فى الفجوة بين تطور الجمهور، وتطور الشاعر

سميح : نعم ، فيه إشكالية بالنسبة لمحمود ولى، ففي فترة معينه ، كان هناك هجوم علينا ،وشاركت صحافتنا فيها بل قادت هذا الهجوم .

محمود : حملة شديدة كانت ضدنا ، اتهمونا فيها أننا شعراء رمزيين .

سميح : التشكيك وصل إلى القول بأننا شعراء برجوازيين ، وشعراء الفن للفن ، وكل هذا على قصائد تجاوزناها اليوم بمليون سنة ضوئية ، وهنا تكون الأزمة فالجمهور يحبك فى قصيدة ، فيفكر أنه لابد أن تأتى له بقصيدة أخرى مثلها، حاجه

شبه الأفلام العربية القديمة ، الراقصة تكون فى أول الفيلم وآخر الفيلم.

سعيد :بالمناسبة ونحن طلاب في الجامعة ،كنا نستخدم في المعارض التي كنا نعقدها من أجل القضية الفلسطينية قصيدة «سجل أنا عربي»،ومقاطع من قصيدتك يا أستاذ سميح «سأقاوم» خاصة المقطع الذي يقول :

«ربما تحرق أشعاري وكتبي

ربما تطعم لحمي للكلاب

ربما تبقي على قريتنا كابوس رعب

يا عدو الشمس..لكن ..لن أساوم

والي آخر نبضة في عروقي سأقاوم»

سميح :ممكن يكون الاستخدام على هذا النحو، أما أن يصمم الجمهور على حصرنا فيها هذا هو الصعب ،وكما قال محمود نحب أن يعرف الجمهور تطورنا.

سعيد:إذا كان وعينا اقترن به أن قصيدة «سجل أنا عربي» ،جاءت ردا على استخراج محمود درويش لهويته،ورفضه أن يسجلها الاحتلال كي يريد،فهل هناك يا أستاذ سميح ظرف ما اقترن به تأليف قصيدة «سأقاوم»

سميح : قصيدة «سأقاوم»،كتبتها عن قرية دنشواي هنا في مصر ،وجاءت تأثرا مني بالحادث الشهير، الذي وقع فيها عندما حكم الاحتلال الإنجليزي، ظلما بالإعدام على عدد من الفلاحين فيها، نتيجة موت جنود منه بضربة شمس ،وهم يصطادون الحمام ،أنا لم أري دنشواي ،وهي في أعماقي كهيروشيما اليابانية التي دمرها السلاح النووي الأمريكي في الحرب العالمية الثانية،ومن دنشواي إلى هيروشيما ،اختلط كل هذا مع ما حدث لقرانا على أيد الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٤٨ ،من مهاجمة البيوت وتحطيم كل شيء فيها،أواني الزيت والفخار والقمح وغيره، يمكن يكون كل هذا فيه صورة من الميثولوجي «الأسطورة» ،لكنه صار

رمزا في القصيدة لكل ما يفعله المحتل في كل مكان ،في فلسطين ،في مصر ،في أي مكان.

مجدي :ما رأيك يا أستاذ محمود في الجدل المثار حول الحداثة في الأدب؟

محمود : لا،لا،هذه قضية لا أتحدث فيها ،مثلما لا أتحدث عن هجوم عبد الوهاب البياتي .

ملحوظة...يلتفت محمود درويش إلى مائدة مجاورة ويسأل :دكتور وليد ما رأيك في الحداثة ؟...يضحك د.وليد ....الجدل حولها انتهي في الغرب من زمن..يلتفت درويش نحونا من جديد ضاحكا :الأفضل أن نتكلم في قضية أخري

مجدي: أستاذ محمود ، الأستاذ سميح له إنتاج غير الشعر، له رواية ، مسرح ، ألم تفكر فى اقتحام هذه الألوان الإبداعية؟

سميح : بلا فضائح ،محمود لم يقرأ .. « ضحك »

محمود : إنت غير مصدق يا سميح « ضحك »

سميح : قرأت شيء .. « ضحك »

محمود : أخاف أن لا أحبك « ضحك »

محمود : كل واحد يحلم أنه يجارى ويدخل حلبه التحدى للفن الثقافى السائد ، والرواية هى الشكل الثقافى الأول الآن فى العالم ، وأنا أرغب فى كتابه الرواية ، وأغبط الروائيين ، هى غبطة أكثر منها مزاولة ، أتمنى أن أكون قادرا على كتابه الرواية ،لكن بين التمنى والصبر والجلد والمجازفة والتى يحتاجها كاتب الرواية ، مازلت أقف على باب التمنيات ، والحلم بأن أصحو فأجد الرواية بجانبي ، أتمنى أن أكون من أصحاب الروايات الجميلة ،أن أكون روائيا

سميح : محمود يحب الرواية ، وممكن يكون روائيا ، لكن فيه شرط لكتابة الرواية ، غير متوفرة عنده وهو الاستقرار

محمود : استقرار مجتمعى ،الرواية تحتاج إلى ذلك ،والمسرح أيضا

سميح : لا،لا، أنت بحاجه ثانية على الأقل وهى أن لا تغير أمكنة إلى أخري ، أنا عندي محاولتان اسميتهما «حكاية» بدلا من «رواية» ،وهربت يا محمود من مدينه إلى أخرى ، وسكنت في بيت وحدي، وظللت شهرين على هذا الحال ، أنا عندى مزايا أكثر ، شعرى أقل ، عندى استقر'ر نسبى، عكس محمود الذي لا يستطيع الآن نتيجة ظروف عمله ، وأنا متأكد انه لو توفرت له الظروف فى أقرب مناسبة ، سيجد نفسه متورطا فى كتابه رواية ، صح يا محمود

محمود : آه ،آه ،آه، أما الكتابة التى أحبها وأمارسها مع الشعر ، فهى كتابة المقال، أحب كتابة المقال ،أجد متعة في كتابة النثر المتميز بأي صيغ ، وعندي حلم يراودني دائما بأن أكتب عن البيوت التي سكنتها في كل البلاد التي أقمت فيها ، في فلسطين ،في مصر ،في بيروت ،في تونس ،في فرنسا ،في عمان ،هذا حلمي أتمني أن أصحو فأجده حقيقة

مجدي:بمناسبة الحديث عن البيوت،وتنقلك يا أستاذ محمود بين أكثر من عاصمة ، هل تبقى مع ذلك طقوسك واحدة أثناء الكتابة .

محمود:هي واحدة لا تتغير أستيقظ مبكرا ،وأرتدي ملابسي الكاملة بالضبط وكأني أتوجه إلى العمل خارجي ،وأدخل مكتبي، وأنا في كامل هيئتى ، ،أقرأ أو أكتب، وحين أكتب أنصرف عن كل شيء حولي ،لا أنتبه إلى أي شيء آخر،وأفضل الكتابة بقلم حبر على ورق دشت ، أسمع صوت سنه وهو يخط الكلمات،لا أعرف سر ذلك ،ولكن أظن يا سميح أنها من أيام جريدة الاتحاد

سميح :أكيد يا محمود

ملحوظة:بعد سنوات من هذا اللقاء استضافت الجامعة الأمريكية محمود درويش ،وسألته بعد أمسيته الشعرية عن حلمه بالكتابة عن البيوت ،التفت وكأن

السؤال خطفه ليجيب:تسرب الحلم ولم يعد حلما،غادرتني الفكرة للأسف .

سألته:لماذا؟

رد ضاحكا:البعض يكتب الآن عن الشبابيك والأبواب ،لكن ما أستطيع إخبارك به أن المشروع للأسف متوقف.

أمي حرية

أعود إلى جلسة «شبرد» ،وأسأل :أستاذ محمود.. هناك خصوصية تبدو واضحة في قصيدتك الرائعة:

أحن إلى خبز أمي
وقهوة أمى
ولمسة أمى
وتكبر فى الطفولة
يوما على صدر يوم
وأعشق عمرى لأنى
إذا مت ،
أخجل من دمع أمى
خذيني،إذا عدت يومي
وشاحا لهدبك
وغطي عظامي بعشب
تعمد من طهر كعبك
وشدي وثاقي
بخصلة شعر
بخيط يلوح في ذيل ثوبك

عساني أصير
إلها أصير إذا ما لمست قرارة قلبك
ضعيني،إذا ما رجعت
وقودا بتنور نارك
وحبل غسيل على سطح دارك
لأني فقدت الوقوف بدون صلاة نهارك
هرمت ،فردي نجوم الطفولة
حتى أشارك
صغار العصافير
درب الرجوع..
لعش انتظارك.

كان درويش يستمع باهتمام لافت ،ووجدنا أنفسنا جميعا في حالة اقتراب أكثر، وبعد صمت ساد للحظات بدا وكأن درويش يستدعي ذكرياته ،ويقرر ما إذا كان يتحدث عنها أم لا .. قال:

«أمى ، أمى ،أمي، تصحيح وتعديل....أنا كتبت هذه القصيدة في السجن بعد اعتقالي لأول مرة من الاحتلال الإسرائيلي ، والقصيدة موجودة ضمن مجموعة قصائد كثيرة من ديوان « عاشق فلسطين » عام ١٩٦٤ ..لا أعرف .. لا أعرف،كفي ،كفي ،يا أخي لماذا هذه القصيدة بالذات؟.».

بدا محمود متأثرا جدا ،لا نعرف ما السبب؟،لكن سميح القاسم التقط كبد الحالة ليتدخل قائلا:

على العموم ، هناك لحظات تصبح فيها الشفافية الإنسانية فى أقصى درجاتها ، محمود يحب أمه ويخاف حزنها ، الخوف من الموت ليس حبا منه فى الحياة، ولاخوفا

على نفسه ، وإنما كي لا تحزن أمه ، يعني بكلمة أخرى ، أم محمود عنده أغلى من الحياة.

محمود «متأثرا»: هذه جلسة إنسانية حميمية ،ممكن أقول فيها شيئا قاسيا أظن أنني سأقوله أول مرة ،سؤالك رجعني اليه

فرضت هذه المقدمة حالة صمت عزلتنا جميعا عن ضجيج نزلاء الفندق ورواده ، حالة استمرت ثواني، لكنها بدت عميقة وطويلة ومهيبة، حتى بدأ محمود في سرد ذكرياته :

أنا كان عندى مشكلة وأنا صغير ،وهي أنني كنت أعتقد أن أمى لا تحبنى ، وظلت هذه القناعة بكل مرارتها عندى لأسباب معروفة وشائعة فى البيوت العربية ، فأنا الثانى فى ترتيب أشقائى ، أخى الكبير تحميه أمي ، و الأصغر يحميه أبي، وأنا ضائع ، وعند حدوث أى مشكلة كبيرة ، سببها نحن الأبناء ،أنا«أكل علقة» ،أنا الذى ينزل عليه العقاب ، أبى كان رجلا خجولا جدا ، يخدم أولاده بصدق، وكان ممن يعتقدون أن التعبير عن الحنان هو حالة ضعف، وبالتالى كنت ألجأ إلى جدى لأبي، والحقيقة أن جدي كان أبى الحقيقى، كبرت ولا أعرف ما إذا كانت عقدتى نحو أمي لها علاقة بالإحساس أم لا ، المهم استمر الحال هكذا ، حتى اعتقلتني قوات الاحتلال.

يلتفت محمود درويش إلى سميح القاسم : تتذكر يا سميح هذه الفترة.

يهز سميح رأسه مسلما، ويضيف محمود :

في يوم مازلت أذكره، أبلغني سجاني أن هناك زيارة لي ، لم أتوقع أن تكون الزائرة هي أمي على خلفية عقدتي نحوها ، لكنها كانت هي بالفعل ، دخلت في حضنها ،قبلت يدها ورأسها ووجهها ،أمي التي كنت واهما أنها لا تحبني هي الآن أمامي ، أحسست كلية فور أن رأيتها أنها تحبنى ، كان إحساسا مفاجئا ، ليس له

مقدمات ،وأشعر به الآن وأنا أحدثكم ، إحساس هو انفجار من الحب لها ،تأملت القصة كلها بعد الزيارة ،ولم أجد أجمل من الاعتذار لها إلا بكتابة القصيدة،اعتذار عن ظلمي لها سنوات لم أكن أفهمها كي ينبغي أن يفهم الأبناء أمهاتهم.

سعيد:هل تذكر ما قالته لك؟

محمود: التقينا في استراحة السجن ،وقالت كل ما يشد العزم ،وما يعين في مثل هذه المحن ،أوصتني بأن أبقي كما أنا، قالت لي كن أقوي من سجانك،أحببتها وتمنيت أن يعود الزمن لأضع كل تصرف منها في موضعه الصحيح ،أحببتها ..أحببتها.

سميح : لما الإنسان يكبر هو يصحح مشاعره، ومع الكبر نكتشف أننا ظلمنا أهلنا ، ونعيد تفسير الأشياء تفسيرا صحيحا ،أنا مثلا منذ صغري أحب «الكاسكيت» وفي يوم من الأيام اشتري والدي لإخوتي اثنين ولي واحدة ، ورأيت أن «الكاسكيت» الخاص بي أقل جمالا من الاثنين الخاصين بإخوتي،«اتجنيت»، ورغم أن والدي كان يحبني أكثر من اخوتي ،إلا أنني صرت أشكك في هذا الحب ، واتهمته بأنه يحب سامي وسعيد أكثر مما يحبني ،ولما نكبر نكتشف أننا ظلمنا أهلنا ونستوعب ما حدث ،ونفسره التفسير الصحيح ، والدى مثلا كان هوايته الصيد ، وكلما كنت أسافر إلى الخارج ، اشترى أى شيء له علاقه بأدوات الصيد، كان تصرفي هذا هو في حقيقته تعويض واعتذار مني له عن أي سوء فهم سابق منى نحوه .

مجدي :ما عدد إخوتك يا أستاذ سميح

سميح: ٦ أخوة و ٦ أخوات

مجدي :كلكم على حرف السين

سميح:لا،طبعا

محمود:غريبة يا سميح لم نفكر في هذه الحكاية من قبل،انت سميح ،والباقي سامي وسعيد وسامية وسهيل وسهيلة ....مضبوط يا سميح «إيه الحكاية».

سميح :والله صحيح ،تقريبا الحكاية جد

فجرت هذه اللمحة ضحكا متواصلا من الجميع ،وأدخلت الكل في قفشات، لأسأل سميح:ما حكاية اسم «وطن محمد»الذي كان يطلقه محمود درويش على ابنك في رسائله إليك المنشورة في « اليوم السابع ».

سميح ضاحكا :محمود مصر على أنهما اثنين،وأقول له :«يا أخي واحد»،وأرجو حين يقابلك في يوم من الأيام لا تسأله أنت وطن ولا محمد .

كانت إجابة محمود درويش عن قصيدة : « أحن إلى خبز أمي » ، مفاجأة لنا ، فكل حرف في القصيدة ينطق بحب لانهائي منه لأمه«حورية»،كما أن المتتبع للكثير مما يقوله يجدها حاضرة في كل عالمه،وبعد سنوات من هذه الجلسة كتب قصيدته الرائعة«تعاليم حورية»ويقول في إحدى مقاطعها:

«لا نلتقي إلا وداعا عند مفترق الحديث

تقول لي مثلا :تزوج أية امرأة من

الغرباء ،أجمل من بنات الحي

لكن ،لا تصدق أية امرأة سواي

ولا تصدق ذكرياتك دائما

لا تحترق لتضيء أمك ،تلك مهنتها الجميلة»

ظلت حورية عند محمود الأغلي دائما ،وشفرة رئيسية في فك ألغازه، وأن حدثته عنها تشعر أنه يقترب منك خطوات، وأذكر في أمسية له بدعوة من المجلس الأعلى للثقافة ،وبعد انتهائها ،تزاحم حوله الصحفيون والإعلاميون في حديقة المبني الموجود في حي الزمالك،وتشغل جريدة القاهرة جزءا منه، وبينما كان الدكتور

جابر عصفور رئيس المجلس يأخذه من يده للانصراف، سألته بصوت عالي :ما أخبار السيدة العظيمة حورية ؟، توقف ملتفتا،وأجاب في لهفة: «طيبة ،طيبة،رأيتها منذ شهور وقضيت معها بعض الأيام،أعطتني مزيدا من الحنان..لماذا تسأل عنها ؟ أجبت ضاحكا :«لأنها أنجبت محمود درويش»،ضحك من قلبه، وبدا كطفل يريد القفز إليها.

أما حورية نفسها فقالت كلاما كثيرا عن ولدها، لكن أحزنه ما قالته بعد رحيله في حوار لصحيفة العربي :«الحمد لله الذي أراحني من حسرة الغالي على ،أرجوكم يا أولادي ويا بناتي تسامحوني واسمحوا لقلبي أن يموت على عشق الغالي» ،وفي إشارة منها على ما يمكن اعتباره اللبنة الأولي في صرح موهبة محمود درويش تتذكر:«كان الغالي لا ينام إلا إذا رددت بعض الزجل وانتهى ليل على مسامعه ،ولما كان يبكي كنت أنشد له لكي ينام».

السجن

قصيدة«أحن إلى خبز أمي»بكل الشجن الذي حملته قصتها نحو الأم،حملت في جانب منها أيضا حكايات السجن ،الذي يتولد الإبداع منه مهما كانت قسوة جلاديه،فماذا عن السجن في حياة درويش وسميح؟

يتذكر سميح جانبا منه في حوار لجريدة العربي :أذكر أن الشيوعيين نظموا مظاهرة في ١٩٦٧ مناصرة لمواقف جمال عبد الناصر البطولية الداعمة للحق الفلسطيني ،وتشاجرنا بسبب صورة عبد الناصر فقد أراد محمود أن يرفعها في حين قاتلت رفاقي آنذاك لأحملها أنا ،ففي ذلك الوقت لم تتوفر الصور بكثرة كما هو الحال في يومنا هذا،لاسيما أنها كانت ممنوعة أيضا ،وفي نهاية مطاف الشجار تنازل محمود عن رفع الصورة ،بعد أن قلت له الأكبر سنا فينا من سيحملها ،فرفع إشارة النصر من كف يده ،حتى انتهي نهارنا في سجن طبريا.

يضيف سميح :أذكر أنني غضبت على محمود وكدت أصفعه في نهاية الستينيات فقد كان مطلوبا للإسرائيليين ،وكان مختفيا في أحد بيوت أصدقائنا في حيفا ،وأراد أن يطمئن على والدته وأخوته بعد أن علم أن الإسرائيليين داهموا بيت أهله ، وعاثوا به فسادا، وظلوا كل يوم يداهمونه ،فأخبرني بأنه سيخرج من البيت وسيذهب إلى قرية الجديدة التي تعيش فيها عائلته ،فحاولت منعه ،وارتفع صوتنا ، وكدت أضربه غير انه لم يبال ،وخرج ،وما أن وصل إلى قريته إذا بالإسرائيليين ينقضون عليه بالضرب المبرح أمام والدته وأخوته وجيرانه وعذبوه أمامهم ،وانزلوه في بئر القرية ليقر ويعترف لهم بأنه صاحب المنشورات والأشعار التي تحرض على الإسرائيليين.

حديث السجن يمتد ولكن من مصادر أخري أبرزها كتاب «محمود درويش شاعر الأرض المحتلة»للناقد الراحل رجاء النقاش،يقول فيه :

دخل محمود درويش سجون إسرائيل أكثر من مرة،وكانت المرة الأولي سنة ١٩٦١ ،وكان محمود انتقل من قرية الجديدة حيث تقيم أسرته ليعيش وحده في مدينة حيفا سنة ١٩٦٠ بعد أن أتم تعليمه الثانوي ،وكان اعتقال البوليس الإسرائيلي له في المرة الأولي سنة١٩٦١ بدون سبب،ودخل بعد اعتقاله سجن «الجلمة»قرب مدينة الناصرة، وهي إحدى المدن الفلسطينية الكبيرة،وظل محمود في السجن أسبوعين بدون أي محاكمة ،وكان يعيش داخل السجن في «عنبر» واحد مع أربعين من المتهمين كلهم من العرب ،وكان الجميع ينامون على الأرض ،وكان عمره آنذاك عشرين سنة ،ويقول محمود درويش عن هذه التجربة الأولي مع السجن :«السجن الأول مثل الحب الأول لاينسي».

جاء السجن الثاني لمحمود درويش سنة ١٩٦٥ ،بعد أن سافر من حيفا إلى القدس بدون تصريح ،وكان الإجراء المتبع لأي عربي في الأرض المحتلة يريد

الانتقال من منطقة إلى أخري، هو الحصول على تصريح مسبق،ولم يفعل محمود هذا الإجراء في هذه المرة ،حيث ذهب من حيفا إلى القدس للاشتراك في أمسية شعرية نظمها الطلبة العرب في الجامعة العبرية،وفي الأمسية ألقي قصيدته الطويلة «نشيد الرجال» ويقول في مقطع منها:

«لأجمل ضفة أمشي
فلا تحزن على قدمي
من الأشواك
إن خطاي مثل الشمس
لا تقوي بدون دمي
لأجمل ضفة أمشي
فلا تحزن على قلبي
من القرصان
إن فؤادي المعجون كالأرض
نسيم في يد الحب
وبارود على البعض»

تم اعتقال محمود درويش بعد إلقاء قصيدته ،وقدم إلى محاكمة عسكرية،كان قاضيها ضابطا بحريا إسرائيليا،وسأل القاضي محمود درويش:«لمَ أنت ذهبت إلى القدس بدون تصريح »فرد :طلبت التصريح من الحاكم العسكري فوعدني به ، ولكنه لم ينفذ وعده وظل يماطلني ،انه لم يرفض إعطائي التصريح ولكنه كان يؤجل ذلك يوما بعد يوم «وأنا لا أستطيع أن أحضر خيمة لأقيم بجواره حتى يقرر إعطائي هذا التصريح».

سأله القاضي:

هل أنت نادم على ما فعلت،وهل تعتذر عنه؟

رد محمود:لا،لست نادما ولا أعترف أنني متهم

صدر حكم القاضي بسجن محمود درويش مدة ستين يوما مع التنفيذ ،وتسعين يوما مع إيقاف التنفيذ ،والحكم مع إيقاف التنفيذ ينفذ على الفور لو حدثت أي مخالفة من الشاعر خلال سنتين ،وذلك بالإضافة إلى الحكم الأساسي على المخالفة الجديدة.

قضي درويش مدة السجن الثاني في سجن «الرملة»،و كتب فيه معظم قصائد ديوانه الثالث «عاشق من فلسطين»

جاء سجن محمود درويش للمرة الثالثة ما بين ١٩٦٥و١٩٦٧عندما حامت حوله شبهة النشاط المعادي لإسرائيل،وفي هذه المرة انتدبت له المحكمة أحد المحامين ،وحاول المحامي أن يقول إنه يعتذر باسم محمود درويش عن المخالفة التي ارتكبها الشاعر،ويعد ألا تتكرر،فتوجه القاضي بالسؤال إلى درويش:

ما رأيك فيما يقوله المحامي ؟

أجاب درويش «المحامي يعبر عن وجهة نظره ولكنني لا أعترف بما يقول ،ولن أردد هذا القول ،أو أؤيده أبدا».

وقضت المحكمة على الشاعر بغرامة قدرها مائتي ليرة إسرائيلية.

في ٤ يونية١٩٦٧أي قبل نكسة يونية بيوم واحد صدرت أوامر إسحق رابين رئيس أركان الجيش الإسرائيلي آنذاك باعتقال كل المثقفين الفلسطينيين ،واختفي محمود درويش ،ولم تستطع السلطات الإسرائيلية العثور عليه لاعتقاله،وكان هدف الاختفاء هو الإشراف على جريدة «الاتحاد»العربية بعد أن تم اعتقال جميع المحررين فيها ،وكان يوم الاثنين ٥ يونية هو موعد صدور «الاتحاد»التي تصدر مرتين في

الأسبوع ،وأصدر محمود بالفعل من مخبئه عددين من الجريدة ،وكان هو المحرر الوحيد لهذين العددين بما فيها من أخبر ومقالات وتعليقات مختلفة ،وبعد صدور العدد الثاني كان من الواضح أن معركة يونية تحددت نتائجها ،وأن الهزيمة حلت بالعرب ،فترك محمود مخبأه وعاد إلى بيته،وبعد خمسة أيام من عودته إلى البيت تم اعتقاله ،بدون محاكمة ،وظل في سجن «الد مون»لمدة شهر .

ويقول محمود عن هذه المرة«كنت مستريح النفس في هذا السجن ،كان الواقع خارج السجن مؤلما بعد الهزيمة العربية ،وفي مثل هذه الظروف يبدو السجن مريحا للنفس إلى أبعد الحدود»

وكانت المرة الخامسة في عام ١٩٦٩ ،وتمت في سجن «الجلمة» بعد أن نسف الفدائيون عدة بيوت في حيفا ،وبقي في السجن عشرين يوما

أحضان دافئة مع كرم مطاوع

أعود إلى جلستنا في فندق شبرد ، والتي أخذت منحي جديدا بعد حالة الشجن التي أحدثتها ذكريات محمود درويش عن قصيدة « أحن إلى خبز أمي » ، وأما المنحي الجديد فجاء على أثر حضور الفنان كرم مطاوع .

دخل كرم إلى الفندق وحيدا، يرتدي كوفية مزركشة على بدلته البني ،سار على مهل، وعيناه موزعة على الجالسين حول الموائد ،كان يبحث عن شيء ما ، وكنا نحن في جلستنا نواصل حديثنا .

وقف كرم مطاوع بالقرب منا للحظات ،وكان ظهر محمود درويش إليه ،ووضع جاسته لم يكن يسمح لمن يدخل أن يعرفه على الفور ، بينما كان سميح في صدر الجلسة،مكشوفا للكل ،وآنا ومجدي وصديقنا المصور الصحفي محمد السهيتي بين الاثنين .

لحظات قصيرة تلك التي استغرقها الموقف ،منذ أن دخل كرم ،حتي سار في

اتجاهنا. لمح التفاتة من درويش فأسرع الخطا إليه .في لمح البصر دخل الاثنان في أحضان دافئة وعناق حار:

أهلا يا محمود،وحشني

أهلا يا كرم،أنت أكثر

محمود:بالمناسبة كنا نتحدث قبل مجيئك عن إلقاء الشعر وظروفه ، ونجومه، وقلت إن كرم مطاوع حين يقرأ الشعر يعطيه لونا آخر .

كرم ضاحكا:هذا كلام كبير احتمله شخصيا صيفا لكن شتاء ..لا

محمود بحميمية لافتة:«ازيك انت رايق خالص »

كرم:انت وحشني ،ده أنا مغيب (ضحك).. على فكرة يا محمود عرفت أنك بتبحث عن بيت في القاهرة،وان غسان مطر وجد لك مكانًا.

محمود:بالنسبة للبحث عن بيت هذا صحيح ،لكن حكاية أن غسان مطر وجد مكانا فلا تصدق.

كان دفء الجلسة في تألقه بعد عناق كرم ومحمود،وازداد بعد استقرار الكاتب والروائي الكبير يوسف القعيد فيها ،فرغم انضمامه إليها مبكرا لكنه كان يستأذن ويعود بين الحين والآخر لإنجاز شيء ما، وجاءت إذاعة صوت العرب للتسجيل مع الشاعرين،في خطوة كانت دالة على المشهد السياسي الرسمي في مصر، الذي كان يشهد انفراجة رسمية في التعامل مع القضية الفلسطينية،تجاوبا مع الحماس الشعبي في مساندة انتفاضة الحجارة.

أبلغ يوسف القعيد في إحدى مرات تردده كلا من درويش وسميح بأن الروائي الكبير نجيب محفوظ ،ينتظرهما في منزله في العجوزة من العاشرة صباح اليوم التالي وحتى الواحدة ظهرا ، أبدي محمود درويش أسفه واعتذاره لأنه سيغادر القاهرة إلى تونس في نفس الموعد والطائرة ستقلع في التاسعة صباحا،وأوصي القعيد بأن يبلغ

سلاماته الطيبة والحارة إلى الأديب الكبير،ورسالة الاعتذار، مؤكدا أن الظروف لو كانت تسمح لما تأخر عن لقاء سيد الرواية العربية،وقال سميح لمحمود سأبلغه باعتذارك وظروفك.

لم تكن هذه المبادرة هي الوحيدة من القعيد للاحتفاء بالشاعرين،فبعد خبر زيارة نجيب محفوظ ، أبلغهما بأن الفنان الكبير عادل إمام يدعوهما (ليلة جلستنا)الي مسرحية «الواد سيد الشغال»،وأنه في انتظارهما في المسرح ،وأن مؤلفها الكاتب المحترم ناجي جورج في انتظارهما أيضا ، سأل درويش عن عدد ساعات العرض ، ومتي يمكن الذهاب لأنه مرتبط بموعد عشاء ،وتم الاتفاق على أن يذهب درويش في حدود الثانية عشر والنصف

فتح السؤال الحديث عن ظاهرة استمرار العروض المسرحية عدة سنوات كما هو الحال عند عادل إمام ،والسؤال عما إذ كان في مصر فنانون مسرحيون لديهم نفس القدرة ،فأجبنا جميعا :«محمد صبحي»،وعلى الفور قال سميح القاسم :« على بيه مظهر،أرجوكم أبلغوه سلامي وسلام.أهلنا في فلسطين الذين يحبونه كثيرا،هو فنان محترم ، ورصيده الجماهيري عندنا كبير،هو وعادل إمام.

تشعب الحوار لكنه كان بمثابة الإطلالة السريعة حول المسرح ،وشارك كرم مطاوع فيه ،وكانت النقطة التي يتحدث عنها الجميع باندهاش هي ،إلى أي مدي يمتلك الفنان القدرة على تكرار نفس النص طوال عدة سنوات؟ ،وتساءل سميح:ألا يشعر الفنان بالملل ،والضجر ،خاصة أن المطلوب منه يوميا إضحاك الجمهور وتكرار نفس النص المسرحي.

كرم مطاوع صحفيا.

لعب مطاوع والقعيد دور الصحفيين في هذا الجزء من الجلسة ،وبدأ القعيد المهمة بتحفيز مطاوع بقوله:

اقترح على كرم أن يسأل محمود:لماذا يكتب نص روائي اسمه «البيوت»

يرد محمود:مين قال روائي ،هو شعري

توضيح ..كنا عرفنا في بداية الجلسة من درويش أمنيته بأن يكتب نصا عن البيوت،لكنه لم يذكر الشكل الأدبي الذي سيكتبه به

القعيد :أستاذ كرم ، ما الذى تستدعيه من لقاءك الآن بمحمود درويش ؟

كرم مطاوع : اللقاء الآن يستدعى معايا لقاء تم فى عمان من سنتين، ودار حوار بيننا حول تجربه مسرحية مشتركة، وتوظيف الشعر فى المسرح ، وأسأل الأستاذ محمود درويش عن هذا الأمل؟

محمود : دعنى اعترف أن الطموحات مازالت طموحات، لا تزيد ولا تقل عما كانت عليه منذ عشرين عاما ، وكلما التقى بك يا أستاذ كرم أشعر بأننى محرض على تنفيذ طموحاتى ، ولكن ظروف حياتى وعملى وعدم استقرارى ، لم تسمح لى بأن أفي بأي وعد من الوعود التى قطعتها على نفسي وعليك، وعلى جمهور المشاهدين الغائبين ، لذلك أرجو أن لا يصدقنى أحدا إذا وعدت بأننى سأحقق طموحاتي قريبا.

مطاوع : طبعا هذه دعوة لليأس من جديد ، ولكن أنا أصر على أن استلهم من أشعارك كل جذور الدراما التي أستطيع أن استشرفها من الإلياذة والأوديسا ،أو حتى من «إس إليوت» ،وأزعم أنك دون أن تريد ،هناك نبض دراما في أشعارك يا أستاذ محمود، هناك صياغات درامية بإيقاعها الشعري في قصائدك، أردت أم لم ترد، وأنا أزعم أن شعرك كما هو، يستطيع المخرج أن يتناوله بنوع من المسرحة، ويقدمه في قالب درامي ،فهل لديك أمثل قصيدة ترشحها لهذا التصور المسرحي

محمود : أنا سعيد جدا بهذه الملاحظة القائمة على قناعة من فنان كبير، وأتمنى أن يودع شعرى للتصرف من فنان مثلك، فإذا استطعت أن تربط دراما بشعرى، فأنا

أعدك أن أقوم بالتمثيل، ودعنى أرشح لك قصيدة (مديح الظل العالى)، لأنها تحتوى على عناصر مسرحية وحتى سينمائية

كرم مطاوع:عظيم ،عظيم ،مديح الظل العالي،رائع،فيها دراما،كلها دراما ، يا سلام علي المقطع اللي بتقول فيه يا محمود:

«صبرا فتاة نائمة

رحل الرجال إلى الرحيل

والحرب نامت ليلتين صغيرتين

وقدمت بيروت طاعتها وصارت عاصمة

ليل طويل

يرصد الأحلام في صبرا

وصبرا نائمة

صبرا - بقايا الكف في جسد القتيل

ودعت فرسانها وزمانها

واستسلمت للنوم من تعب ،ومن عرب رموها خلفهم

صبرا ،وما ينسي الجنود الراحلون من الجليل

لا تشتري وتبيع إلا صمتها

من أجل ورد للضفيرة»

ألقي كرم هذه الأبيات بصوت منخفض لكنه كان لافتا في جمال نبراته المسرحية ، ثم انتقلت دفة الحديث إلى الكاتب والروائى يوسف القعيد، وملف الذكريات مع سميح القاسم،يقول القعيد:

أنا قابلت سميح القاسم لأول مرة منذ عامين فى موسكو، وقضينا معا ١٥ يوما

ما بين موسكو ولينينجراد، كنا نحضر مؤتمرا، وعدت وأنا مدرك أن في سميح كثير من ظرف وطيبة أولاد البلد المصريين، وهذه هي المرة الثانية التي أراه فيها ،وبالتالي لدينا معا ملف ذكريات جميل وقديم.

سميح: بعضها كئيب.

القعيد: لا ..لا.. ليس كئيبا أبدا،فيها غراميات كئيبة فقط ،وأريد أن أسأل سميح سؤالا..وأسأل كرم سؤالا

..سؤالى لسميح: كيف رأيت مصر، كيف رأيت الآلاف من مصر يستمعون لشعرك ؟كيف مشيت فى شوارع فيها سكان عرب كيف مشيت فى القاهرة ؟

..أما سؤالى لكرم: لماذا لم تقدم «قرقاش» وهى مسرحية شعرية لسميح القاسم على خشبة المسرح المصرى؟

سميح : حقيقة،وجودي هنا في مصر تجربة لم أخرج منها بعد، فطيلة حياتى لم أشاهد عمارة ١٠ أدوار جميع سكانها من العرب، ولم أشاهد شارعا كبيرا كل المارة فيه من العرب، وإلى هذه اللحظة حين أنظر إلى الأبراج الجميلة عبر شرفة الفندق الذي أقيم فيه الآن، يصعب على أن أصدق أن كل القائمين فى هذه الأبراج هم من العرب.

طوال الأربعين عاما الماضية، العرب أمامى فى الواقع أقلية،حيث، أسير فى بلدى وفى أوروبا، وجميع قارات العالم، وأجدهم أقلية، وقد يبدو هذا الكلام سخيفا، لكنها بالنسبة لى تجربة حادة وجديدة ،سأخرج منها بلا شك ،لكن ذلك يقتضي أن تدبروا لي دعوة أخري إلى القاهرة.

القعيد:أستاذ سميح .. أنت ألقيت قصيدة « مصر » في أمسيتك الأولي ،وكتبتها دون أن تراها ،فهل شعرت أن هناك ما تريد إضافته للقصيدة بعد أن رأيتها؟.

سميح:مشاهدتي للقاهرة أضافت بلا شك ،فأنا لم أتخيل أبدا القاهرة بمثل هذه

الضخامة،فالقاهرة في وجداني تكاد تنتهي عند العهد الفاطمي ،وأود أن أقول شيئا أرجو أن يساء فهمه ،وهو أن المباني الأثرية في القاهرة ...

القعيد:تقصد أن لا يساء فهمه؟

سميح:لا..لا..أرجو أن يساء فهمه ،وهو أن المباني الأثرية وهي جواهر حقيقية بالرؤية،هي أنقي وأنظف بكثير ،أتمني أن يكون هناك مزيد من الجهد لصيانة هذه المباني الأثرية،فكل حجر هو عمر ،هو فن حضاري عظيم ،وآلمني جدا أن الكثير من المباني الأثرية وكأن أحدا لا يلتفت إليها.

كرم مطاوع:الأستاذ سميح يطرح قضية غاية في الأهمية والدقة تتعلق بالتراث وملامحه ،ومخلفات التاريخ ،وهي ليست قضية تشكيلية أو تاريخية ،وإنما قضية هوية ، تعني التمسك بالأصالة ،والملمح الشخصي الذي يميزنا عن كثير من الأمم ، والاهتمام بالتراث هو ملمح حضاري ومخرج وحيد أمام التحديات التي تواجهنا من غزو ثقافي وخلافه،وأعتقد أن هذه الوقفة التي يدعم إليها سميح ليست مفاجأة،والفترة الماضية أعتقد أن هناك حالة استنفار واعية جدا لترميم كل الآثار، ليس فقط الإسلامية ،وإنما القبطية والرومانية ،والقبطية ،هناك اهتمام بذلك وإعطاءها ما تستحق من اهتمام ،لتكون نادرة ليس فقط لجذب السياح ،وإنما لإعطاء دروس لشبابنا،وأطفالنا الذين لديهم من الماضي موروثات حضارية هائلة.

يضيف كرم مطاوع :أما بالنسبة لما قاله الأستاذ القعيد عن المسرح الشعري،هي للأمانة قضية ثقافة ،فالاقتراب من المسرح الشعري هو في جوهره الاقتراب من جوهر الثقافة،وكلما ابتعدنا عن الشعر كلما ابتعدنا عن أصول الثقافة،فابتعادنا عن المسرح الشعري هو محصلة لابتعادنا عن الشعر، الشعر كأسلوب تعبير وصياغات ورؤى ،الشعر كارتقاء باللغة المتدنية التي تغزو التليفزيون أو المسرح أو الإذاعة،وسيظل دوما المسرح الشعري مرتبط بالثقافة والارتقاء بها كما قلت ،

ولعلك تشاركني الرأي يا أستاذ يوسف أنه في لحظات ازدهار الثقافة كان الشعر في الكتاب أو في المسرح أو في الإذاعة والمصنفات الفنية المختلفة ،كان في منتهي الارتقاء، لأن كان فيه نبض ثقافي عام يوحي بذلك.

*محمود درويش يداعب كرم مطاوع والحاضرين مستأذنا لارتباطه بموعد عشاء عند المناضل والسياسي الفلسطيني جمال الصوراني قائلا:«ممكن أحضر أربعة فصول فقط» ، ويقصد - مداعبا - تلبيته دعوة الفنان عادل إمام ، وحضوره جزء من المسرحية.

درويش يلقي بالتحية على الجميع ،ويخص كرم مطاوع الذي واصل حديثه قائلا:

لعلك تذكر يا أستاذ يوسف أن المسرح المصري في الستينيات شهد أعمالا كبيرة وخطيرة ومتعددة لمسرحيات شعرية،وأعتقد أننا بصدد الصدام مع الواقع رغم مراراته وقسوته من الصدام معه، بغرض فرض لغة الشعر في المسرح ،وهذه لا تحتاج جهودنا فقط كمسرحيين ،وإنما إلى جهودكم كنقاد وشعراء وكتاب ورأي عام ، حتى نوازن بين الغثاثة والرداءة والسطحية في استخدام مفردات اللغة،وتوظيف استخدام المسرح توظيفا دوني ونفعي واستهلاكي ،وبين أن يكون شيئا موضوعيا وايجابيا ،واعتقد أن الأستاذ سميح يريد أن يعلق

سميح :القاهرة تغنيني عن كل مدن العالم التي رأيتها ،هي تمتاز عن باقي المدن بأنها تجمع أقصي العراقة ،وأضخم ما أنتجت الحضارة البشرية في عصورها القديمة إلى آخر المنتجات المعمارية ذات الطابع الإنساني ،أرجو أن لا تشيدو في القاهرة ناطحات سحاب ،علي غرار ما هو قائم في لندن وباريس ونيويورك.

الشيء الأخير الذي أود أن أقوله في ذلك أن أحد الصحفيين كان معي أمس في جولة في القاهرة،فقلت : إن القاهرة في وضعها الراهن هي أجمل مدن الدنيا ،

ولكنها بحاجة إلى مليار دولار حتى تكون القاهرة الحقيقية،التي أراها بخيالي ، القاهرة التي ينبغي أن تري ،إذا كانت اليوم هي أجمل مدن الدنيا بدون منازع،فكيف يمكن أن تكون هذه القاهرة بما هو فيها بدون استيراد ،فقط تكون بكنوزها،وأعتقد أن مهمة ترميم المواقع الحضارية في المدن العربية،والقاهرة في الطليعة يجب أن تكون مهمة قومية،تشترك فيها الجامعة العربية ،والمؤسسات ذات الطابع القومي والدولي لأنني أعرف الوضع الاقتصادي.

يضيف سميح :الصحفي الذي كان معي رد على :«نحن إما مليار دولار لرغيف الخبز ،أو مليار دولار للآثار»،قلت له :أنا أعني ما أقول،المليار دولار أن ذهبت إلى الآثار فهي ستأتي بمليارات الدولارات،للخبز والورد والسعادة ،وثقة بالمستقبل واعتزاز قومي ووطني وكرامة حضارية.

كرم مطاوع:الحقيقة الكلام عن المعمار ليس بعيدا عن الكلام عن الشعر،استكمالا لكلام الأستاذ يوسف القعيد،والحفاظ عن المعمار الإنساني والتاريخي،هو أيضا مداخل للحفاظ عى الشعر بصيغه ومعماريته في الصور الجمالية والأخلاقية،ويحضرني هنا مسرحية «السؤال » التي قدمناها في السبعينات على مسرح الجمهورية،ومن حسن الحظ أن مؤلفها موجود معنا هنا وهو الأستاذ هارون هاشم الرشيد ،واترك الأستاذ هارون يتحدث عن هذه التجربة

هارون هاشم الرشيد:قبل أن أتكلم عن تجربة مسرحية «السؤال»،أحيي أخي وصديقي سميح القاسم ،الذي التقي به ،ولا أنسي ما قاله لي أن أهلنا كانوا يستمعون عام ١٩٦٨ إلى مسلسل إذاعي لي في إذاعة القاهرة ،و ظني أنه كان أول تعريف حقيقي وواضح وكامل عما يحدث ضد أهلنا في الداخل ،وزادت سعادتي عندما قال لي سميح أن هذا المسلسل ترك تأثيرا إيجابيا على الفلسطينيين في الأرض المحتلة في الوقت الذي كان وقع الهزيمة السيء والصعب يخيم على كل شيء، وأنا

تمكنت بفضل كتابات سميح أن أقدم صورة عن الوضع هناك.

سميح :شكرا يا حبيبي،لكن لحسن الظن أن عام ١٩٦٨ لم تكن مسلسلات كرم مطاوع على الشاشة ،وإلا كان قضي علينا

كرم مطاوع:الشعر لا يقضي عليه أحد

هارون هاشم الرشيد: بالنسبة للمسرحية الشعرية « السؤال » وهي المسرحية التي تحدث عنها كرم ، حاولت فيها أن أؤرخ للثورة الفلسطينية منذ بدايتها ،وذلك بالتنوير عبر العلاقة بيني وبين بعض الذين قاموا بهذه الثورة ،وما أسعدني أن أخي كرم كان هو بطلها ومخرجها ورجلها ،والمسرحية تمكنت فعلا من أن تضع الكثير من الحقائق في مجالها،وأتمنى أن نري المسرح الشعري مرة أخرى على خشبة المسرح في مصر مثلما كان

القعيد :بالنسبة لاستعادة مصر للمسرح الشعري والتي تحدث عنها بوضوح الأستاذ كرم مطاوع ،أقول إنها قضية ترتبط بالمناخ الثقافي العام ،وأعتقد أن هنا في مصر في الوقت الراهن قد لا يكون الظرف مناسبا ،لكن في الأيام القادمة بالتراكم وبقوة الدفع من الممكن أن نستعيد مرة ثانية المسرح الشعري ،وبالتحديد المسرح الشعري الفلسطيني ،الوضع الراهن الآن في المسرح المصري وفي الثقافة المصرية يشير إلى ظروف أفضل قد تأتي في الغد أو بعد غد.

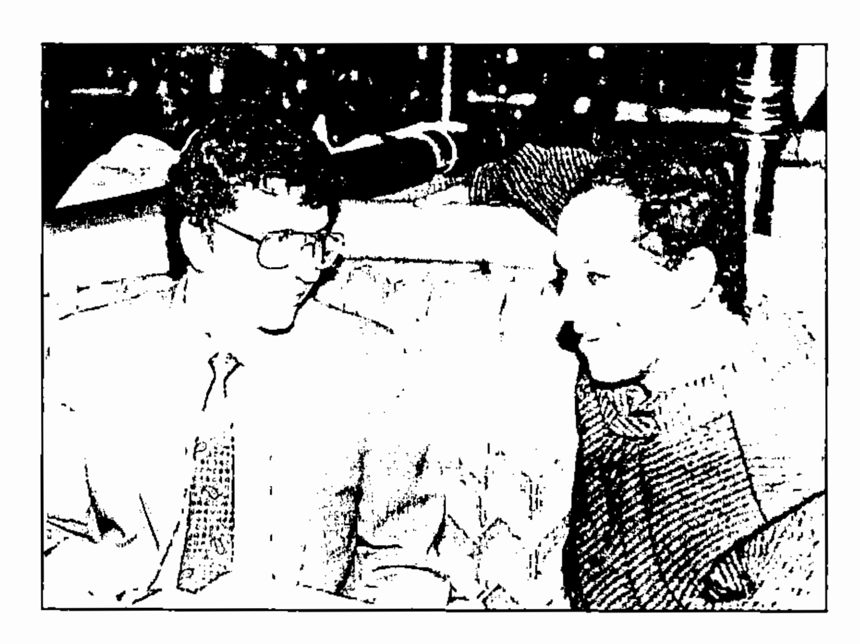
سميح :اسمح لي بملاحظة أخيرة في قضية المسرح الشعري ،الحقيقة أنني كتبت عددا من المسرحيات الشعرية ،ولكن توقفت فيها بعد لسبب واحد،وهوانه لا يمكن أن يكون هناك مسرح بدون خشبة وجمهور وممثلين ومخرجين وإضاءة وهندسة صوت،وديكور ..الخ،وفي بلادنا لم تنشأ حركة مسرحية يمكن أن تخلق لي المناخ اللازم ،خذ على سبيل المثال كبار مسرحي الشعر في أوربا يكتبون في المسرح ، ويعيشون حياة مسرحية،وعلي هذه الخلفية من خلال علاقة مباشرة بالمخرج

وبالممثـل،وبمادة المسرح،وبـدون ذلـك لا يـمكـن أن يتطـور مسرح،وإذا أتـيح أن أمارس هذه الرغبة المدهشة كشاعر لا أستطيع ،لأن الشعر يقوم في الأساس على تكثيف الحياة ،ولكننا كبشر في حاجة أحيانا إلى تحليل الحياة ،إلى الخروج من الخاص إلى العام ، وهذا لا يتم إلا من خلال المسرح،أو الرواية ،لذلك كان انتقالي من الهوس المسرحي في الستينيات والسبعينيات إلى الهوس الروائي ،لكن يظل لدي حلم بأن أتمكن من تقديم شيئا للمسرح الشعري ،وهو تحد كبير للشاعر لأنه يتطلب جهدا خاصا فالكتابة للمسرح ليست أمرا سهلا .

* يهز كرم مطاوع رأسه موافقا ،لينتهي النقاش ، وينصرف الحاضرون إلى مناقشات ثنائية ،استغرقت دقائق قليلة ،لنترك يوسف القعيد يدبر لأمر مع سميح القاسم حول تلبية دعوة الفنان عادل إمام لمشاهدة مسرحية « الواد سيد الشغال »



الشاعران أحمد دحبور وسميح القاسم، ويتوسطهما سعيد الشحات



سميح القاسم وسعيد الشحات



محمود درويش مع سميح القاسم في جلسة فندق شبرد بالقاهرة



محمود درويش وسميح القاسم يستمعان إلى الزميل مجدي حسنين



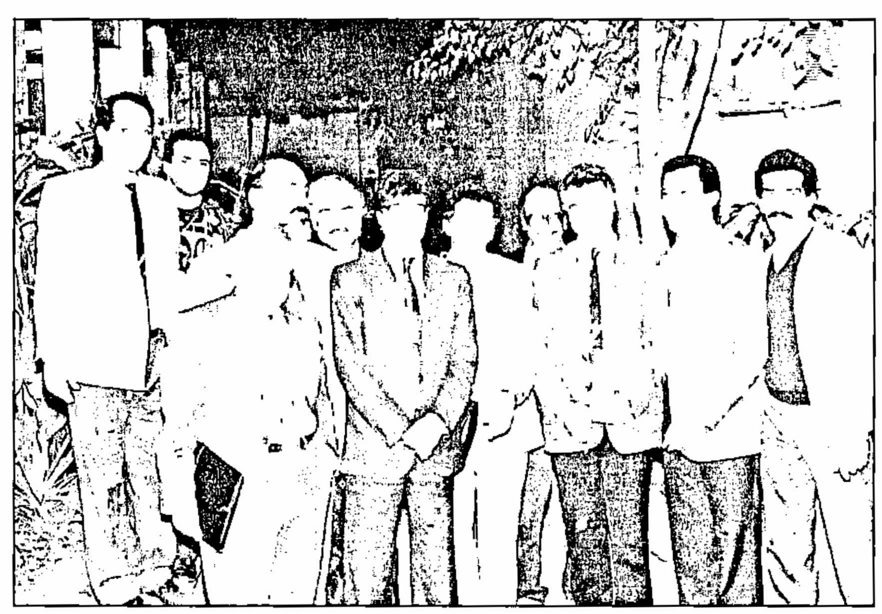
الفنان كرم مطاوع يتحدث ودرويش والقاسم يستمعان



درويش وسميح وسنوات من الذكريات



محمود درويش يستمع إلى سعيد الشحات



صورة جماعية بعد أمسية مسرح البالون .. وفيها من اليمين .. الشخص الثاني الفنان محمد أبو الـهب الذي قدم الأمسية ، وبجواره الشاعر مريد البرغوثي ، وفي الخلفية الروائي صنع الله إبراهيم ، ثم الشاعران سميح القاسم ، ومحمود درويش ، وفي الخلفية وجه الشاعر أحمد دحبور ، وبجوار درويش الشاعر هارون هاشم الرشيد ، وسعيد الشحات في آخر الصف

ملحوظة : الصور الخاصة بجلسة درويش وسميح تصوير وأرشيف محمد السهيتي .



جلال أمين الذي علمته الحياة

بيني وبين المفكر الكبير الدكتور جلال أمين حوار دائم حتى لو لم يكن متصلا ، عرفته منذ عام ١٩٨٧ ..وكانت المناسبة إجراء حوار صحفي معه ضمن سلسلة كانت تعدها صحيفة « صوت العرب » بعنوان « سيناريوهات مستقبل مصر في التسعينيات » ،وتنبأ جلال في هذا الحوار بأن :« مصر في طريقها إلى التخلي كاملا عن دولة الدور لصالح دولة الخدمة» ، أي تترك مصر دورها التاريخي كقائد لمحيطها العربي ،وتصبح دولة تنفذ خدمات للغرب بمصالحه وتوجهاته »

ولفت جلال النظر إلى الأبراج المرتفعة والمباني الشاهقة الجديدة على كورنيش النيل ، وتلك التي تحت الإنشاء ، قائلا :« أري أن هذه المباني الشاهقة هي من لزوم الدور الجديد لمصر .. دور الخدمة » .

قال د. جلال في هذا الحوار كلاما كثيرا ، وكلما ذكرته به بقولي :« كلما مررت على كورنيش النيل ورأيت المباني الشاهقة والأبراج العالية ، مع تراجع دور مصر فعلا .. تذكرت نبؤتك يا دكتور جلال»، فيرد ضاحكا :« والله يا سعيد أنت بتفكرني بحاجات حلوة.. وطالما أنت شايف نبؤتي تحققت يبقي خلاص ».

لم يكن السيناريو الذي تحدث عنه د.جلال في حواري الأول معه ،والذي دار في فيلته بالمعادي ،هو الحدث الوحيد الهام بالنسبة لي معه ، وإنما ظروف أخري أحاطت بالحوار، أعطتني شفرة من شفرات شخصيته العظيمة ، فبعد أن أنجزت الحوار طلب مني أن أعود إليه به ليري صورته النهائية قبل نشره ، ونفذت مطلبه لكنه وبعد أن قرأ الحوار طلب تمزيقه ، قائلا :« فيه حاجات كتير تحتاج إلى تعميق »، وقام بإحضار ورق أبيض من مكتبته طالبا مني الكتابة ورائه من جديد ، وعدم اللجوء إلى الكاسيت ، وبالرغم من بساطة هذه الحكاية إلا أنها أعطتني مفتاحا مبكرا لفهمه ،حين يتحدث ،وحين يكتب ، ففي الحالتين يتأمل بعمق ، ثم يبدأ رحلة الغوص التي تمتزج فيها حكايات الواقع بخيال الكاتب وصرامة الباحث ، ثم

تأتي النتيجة في مقال أو كتاب أو رأي يؤيده البعض، ويعارضه البعض ، فيبدأ الجدل حوله .

يمتلك جلال أمين قدرة مدهشة في مزج آرائه بالحالة الإنسانية للبشر ، كما أنه يتمتع بقدرة لافتة في التقاط تصرفات سلوكيات فردية أو جماعية، تمر على مثله مرورا عابرا ، لكنه هو يلتقطها ليضعها في سياق عام ،مؤكدا لنا أن التصرف حتى لو كان فرديا خالصا إلا أنه في حقيقته انعكاسا أمينا لمشهد سياسي واجتماعي يعيش في ظله الوطن ،ولهذا تنفذ سريعا إلى الوجدان ، ومن خلال تحليله العميق هذا ،نفهم منه، ماذا حدث للشخصية المصرية؟ .

تواصل إنتاج جلال أمين الفكري ، كما واصل هو شخصيا انغماسه في الجدل حول القضايا السياسية ، وأعطي هذا الانغماس تأكيدا على أنه من نوعية المفكرين الذين لا يجلسون في أبراج عاجية ، وإنما هو دائم الانتباه إلى اختبار اجتهاداته الفكرية في الواقع مباشرة ، وأعظم ما في أطروحاته الفكرية والسياسية أنه يتخذها دائما برؤية مستقلة وليدة قناعاته حتي لو اختلف معها الآخرون ، ويبحث في جميعها عن العدل للفقراء الذين تنساهم الحكومات وتتاجر بهم الأحزاب ، ولا يعرفهم أصحاب الثروات إلا في الأوقات التي يحلو لهم أن يعرفهم الآخرون بوصفهم الذين يقدمون الحسنات والهبات .

كان جلال أمين هو مفتاحي أيضا إلى عائلة كبيرها الوالد أحمد أمين المفكر العظيم الذي أثري المكتبة العربية بمؤلفات هامة في مجال الفكر الإسلامي ،أبرزها « ضحي الإسلام ، وظهر الإسلام ، وعصر الإسلام » ، فمن خلاله ذهبت إلى بيت شقيقه حافظ بعد رحيله ،وتعرفت على شقيقه السفير السابق والكاتب المتألق حسين أحمد أمين ، وكانت البداية في سياق بحثي عن الظروف التي تؤدي إلى تواصل الاهتمام بالمجال الواحد من جيل إلى آخر في الأسرة الواحدة ، بمعني .. ما

هي الشروط التي تؤدي إلى أن يكون المفكر وريثا لوالده في مجال الفكر ، والرياضي في مجال الرياضة ، والسياسي في مجال السياسة ، والمبدع في مجال الإبداع ، وطرحت سؤالا :« هل تأتي الوراثة في ذلك لأسباب جينية ، أم لأسباب اجتماعية وبيئية ؟.

وكانت عائلة أحمد أمين هي نموذج في بحثي عن إجابة لسؤالي ، فمن بين أعضائها مفكرا بوزن جلال ، ومفكرا بوزن حسين ، ولما ذهبت إلى جلال لفت نظري إلى أن شقيقه الراحل حافظ كان له الاهتمام بالفكر والإبداع أيضا وخاصة في مجال المسرح ،وفي منزل شقيقه حسين بمصر الجديدة ، تحدث في حوار طويل عن الكثير من القضايا ، لكنني لا أنسي قوله لي :« أخي جلال والمستشار طارق البشري هما أعظم مفكرين في مصر » ، قالها أكثر من مرة وبقطع واضح لا لبس فيه .

لم يفارق ذاكرتي أبدا رأي حسين في شقيقه جلال ، ومع كل مؤلف جديد كان يهديه جلال إلى المكتبة العربية ،ثم أقتنيه منه بإهداء رقيق ، أتأكد أن شقيقه حسين لم يبالغ في رأيه ، وبالرغم من حواراتي الصحفية المتعددة معه ، و الكثير من الآراء الجانبية التي سمعتها منه ، إلا أن سيرته الذاتية التي صدرت عن دار الشروق في كتابين :« ماذا علمتني الحياة؟ » و« رحيق العمر » ، كلما نقلب في صفحاتها ، ونجد فيها حشدا من الوقائع التي يرويها جلال بجاذبية متناهية ، نتأكد أننا أمام حالة صدق خاصة ، لا يقلل منها اعتماده حسب ما يذكر في مقدمة « ماذا علمتني الحياة ؟» ، على مالا يخالف الحقيقة ، لكنها في نفس الوقت لا تحتوي على كل الحقيقة ، ويقصد بذلك أن ذكر كل الحقيقة لابد أن ينطوي على ذكر بعض الفضائح المتعلقة بنفسه أو بغيره وهو ما لم يفعله.

مهام كبيرة

في مذكرات جلال نعرف كيف أعد نفسه لمهامه الكبيرة ، مفكرا ، كاتبا ، أستاذا جامعيا ، سياسيا ، ونعرف كيف أدار كل هذه المهام الكبيرة كإنسان جعل من

الصدق والصراحة جسرا بينه وبين الناس، فاحترموه عظيم الاحترام.

ولد جلال أمين في ٢٣ يناير عام ١٩٣٥، بعد معركة بين الأم والأب على تقرير مصيره، فالأب صمم على أن تجري لأم عملية إجهاض لهذا الحمل الذي جاء ختاما لسبعة إخوة، لكن الأم واجهته بالرفض، واتبعت من أجل ذلك مناورات وأساليب ملتوية كهروبها من منزل أخيها في العباسية أو منزل أختها في قرية زاوية النقلي بمحافظة المنوفية، ومرة بتخلفها عن ركوب قطار المترو بعد أن ركبه الأب، حتى استسلمت الأم لرغبة الأب، وذهبت إلى الطبيب الإيطالي. ومع بدء عملية الكشف عليها دفعته بكل قوتها صائحة: «روح يا شيخ، هو أنا حبلي في الحرام»، فتراجع الطبيب خائفا وقال بلكنة أجنبية: «يا خبيبي أنا مالي؟، عايز تسقط، تسقط، عايز تخبل، تخبل» وخرجت الأم واستسلم الأب ليجيء جلال إلى الحياة.

يحكي جلال هذه القصة في سياق العلاقة المعقدة بين الأب والأم، تعقيدا مستمدا من زمانه ومكانه، ويتجلي في خصوصية العلاقة التي كانت بين الرجل والمرأة، ويذكر عشرات الحكايات في علاقة الأب بالأم بصراحة واضحة، وهي حكايات قد يبدو منها أنه يضع الاثنين على كفتي الميزان، وأن كفة الأب ستميل بكل سهولة، لكن المتأمل لها يقول إنها هي معادلة الحياة بكل ظروفها التي تعطي لكل من الطرفين ميزة خاصة في شيء، ثم تتضافر الميزات لتسير المركب في بحر الحياة.

ويتساءل جلال: «لا أعرف كيف أفسر لماذا استقر في ذهن أبي منذ وقت مبكر في حياته انه من الواجب، ومن الممكن أن يكرس حياته لعمل عظيم؟، ويجيب: «أن التفسير الذي أميل إليه أكثر من غيره لهذا الطموح القوي عند أبي ومنذ وقت مبكر إلى القيام بعمل عظيم فيه نفع أمته، هو حسه الأخلاقي البالغ القوة».

يوضح جلال أن والده كان من أسرة متوسطة الحال، لكنه كان ارستقراطي

الأخلاق والحس ، ويقول ، أن الوالد كان دائم التساؤل عن الموقف الأخلاقي الصحيح ، وكأن المسائل كلها في أمور الحياة تتحول عنده في نهاية الأمر إلى مشكلات أخلاقية.

أما الأم فيقول عنها جلال :« كانت أخف ظلا ، وألطف معشرا ، ولكنها كانت أكثر مكرا وأشد دهاء ، ولم تكن بخيلة بخلا منفرا ، ولكنها كانت بلا شك حريصة على المال ، ويؤكد أن حصوله هو وإخوته على بضعة قروش منها كان أشبه بمحاولة استخراج الماء من الصخر .

يغوص جلال في تفاصيل العلاقة بين والديه ، وهي علاقة تبدو محسوبة إلى الدرجة التي نتخيل معها وكأنها علاقة حرب بين طرفين ، فالأب الذي كان في رأسه أفضل الأفكار عن الأسرة السعيدة ، لم يكن قادرا على التخلص من دور الزوج الديكتاتور، ولم يجد في نفسه القدرة على ملاطفة امرأته ، ولم يناداها باسمها مرة واحدة ، بل يصيح مناديا :« يا ولد» فتفهم أنها المقصودة ، وكانت تتندر أحيانا إذا أحست منه ببعض الرضا فتسأله عما إذا كان من المحتمل ترقيتها بأن يخاطبها بـ« يا بنت » ، كما تصطدم في أول أيام زواجها بانشغاله بكتبه وأوراقه وتدخل عليه مرة لتخبره بأن الغذاء جاهز فيشير بإصبعه على رأسه علامة على انشغاله بالتفكير ، وترفض أن يكون هذا هو معني الزواج قائلة لنفسها :« لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ، فقد رأيت خالي يكلم زوجة خالي أحيانا » .

كان أقصي ما يستطيع الأب (أحمد أمين) أن يفعله نحو زوجته إذا شعر نحوها بمنتهي الرضا أن يناديها بأم حمادة ، مستخدما اسم التدليل لأكبر أبنائهما ، ولكن هذا كان أمرا نادرا للغاية ، لا يتذكر جلال أنه سمعه من والده أكثر من مرة أو مرتين أو ثلاث ، ويذكر جلال قصة طريفة عن ظروف نادي فيها والده لأمه بـ« أم حمادة » وكان فيها مضطربا وخجولا ، وفي المقابل كانت الأم تروي هذه القصة

بشعور فيه فخر واعتزاز ، أما القصة وكما يقول جلال :« أبي كان يخطر نه أحيانا في لحظة من لحظات سأمه من القراءة والكتابة ، أن يقوم بعمل غير مألوف لديه ، من باب الترويح عن نفسه ، كصنع المربي مثلا ، كانت أمي في زيارة لأخيها عندما خطر لأبي مثل هذا الخاطر فأتي ببعض البلح وشرع في صنع المربي ، فوضع البلح مع بعض السكر على النار، ونسي أن يضيف الماء ، ثم خطرت له فكرة مقال جديد فغادر المطبخ واتجه إلى حجرة مكتبه ليشرع في الكتابة ونسي أمر المربي برمته . وصلت إليه بعد مدة رائحة حريق ، فإذا به يجد البيت كله وقد امتلأ بالدخان بينما كانت أمي تصعد السلم عائدة من زيارتها .استقبلها أبي في أعلي السلم وهو مضطرب ، وقد اعتلت وجهه ابتسامة عريضة وقال لها مرحبا على غير عادته : « أهلا بالست أم حمادة » ، وأصابت أمي دهشة عظيمة ، إذ تستقبل هذا الاستقبال الحافل ، وبهذا التعبير الودي غير المألوف : فنظرت إليه نظرة ملؤها الشك قائلة : «والله إنت عامل عملة » ، وسرعان ما اكتشفت قصة المربي التي لم يكن من الممكن إخفاؤها فاتضح لها كل شيء » .

يذكر جلال قصة في حياة الأم لم تكن تمل من تكررها له ، وهي قصة حبها مع ابن خالها وتعاهدهما على الزواج ، لكن الخال الثاني الذي كانت تعيش في بيته رفض تزويجها وهي البنت اليتيمة قبل أن تتزوج بناته ، فمرض ابن الخال ، أما هي فتركت البيت وقصدت محمد عفيفي باشا أحد أقاربها ، وظلت في بيته محاطة بالحب والرعاية حتى تزوجت من أحمد أمين .

استمع جلال كثيرا من أمه إلى روايتها لقصة حبها لابن خالها ، وظل يتعامل معها كقصة مسلية لكنه في مرحلة لكبر اكتشف أن الأمر مأساويا بكل معني الكلمة ، ويستدل على ذلك بما حدث بعد وفاة والده بعامين ، وأثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، حيث قرأت الأم في صفحة الوفيات بالأهرام ما

يفيد بأن ابن « المعشوق » القديم توفي ضمن ضحايا العدوان الثلاثي ، واسترعي انتباه جلال الأثر القوي لهذا الخبر على الأم أكثر من أي أخبار أخري ، وعبرت عن ضرورة ذهابها لأهل الشاب المتوفي للتعزية .

ولما عادت من العزاء بدا عليها التأثر والحزن الشديدان ، يتذكر جلال أنه بعد شهور قليلة جاء الرجل ليشكر الأم على قيامها بالعزاء ، وجلسا معا يتبادلان الحديث في شرفة البيت ، وكان الرجل مهيب الطلعة في نحو الخامسة والستين من العمر أو أكثر ، فارع الطول وأنيقا أناقة واضحة ، ويقول جلال أنه لم يعلق أهمية وقتها على هذه الزيارة لكنه عندما تذكرها بعد وفاة أمه بسنوات بدت له وكأنها نهاية مؤثرة لقصة حب ظل مكتوما لعشرات السنين .

ويضيف جلال إنه كان يدرس في إنجلترا عندما توفيت أمه ، لكن أخته الكبرى قالت له أن أمها قبل وفاتها بأسابيع قليلة جاءها خبر وفاة ابن خالها فلم تعلق عليه ، وإن كان قد بدا عليها حزن عميق لعدة أيام قبل أن تمرض المرض الذي أودي بحياتها .

بين قصص الأب والأم يذكر جلال أمين كيف كانت تربية الأبناء ، وكيف كان الأب يحسبها في سياق الموقف الأخلاقي والتربوي النبيل الآتية من نبل أخلاقه ومواقفه ، لكن على الرغم من ذلك خرج كل منهم بحياته المختلفة عن 'الآخر .

حسين وعلي مختار ورفعت المحجوب

من الأخوة إلى الأصدقاء إلى الأساتذة ، إلى كل هؤلاء الذين قابلهم جلال أمين في حياته وأثروا فيه أولم يؤثروا نسبح في المذكرات سياحة ممتعة ، عن الأشقاء السبعة نقرأ عنهم منذ صغرهم وحتى كبرهم بمفهوم يقوله جلال :« نشأنا في نفس البيت ، وذهبنا إلى نفس النوع من المدارس ، وقضي كل منا فيها عدا احدي شقيقاتي وأخي أحمد عدة سنوات في أوربا ، فإذا بكل منا عالم مختلف تماما عن بقية الأخوة » .

ويضيف :« قد يكون من الممكن اكتشاف علاقة القرابة بيننا من مقارنة شكل العينين ، أو حجم الأنف ، أما الشخصية والميول فلا يشبه أحدنا الآخر فيها قيد أنملة » ويتحدث جلال عن أشقائه برؤية واعية لمناخ النشأة والتكوين ، ومن بين كل الإخوة يتوقف عند أخيه حسين ، والذي يكبر جلال بعامين ونصف العام .

يقول جلال أن حسين هو أكبر أخوته أثرا فيه ، ويعيد سبب ذلك إلى أن حسين كان لديه منذ بدايته ميل بالغ القوة للاعتقاد بأنه شخص فريد من نوعه ، لم يأت أحد مثله من قبل ، ولن يأتي أحد مثله في المستقبل ، وكانت وسيلته لإثبات أنه أعظم الناس هي تحصيل أكبر قدر من الثقافة ، ويؤكد جلال أن حسين نجح بالفعل في تحصيل قدر من الثقافة يتجاوز بمسافة تاسعة ما حصله أي أخ أو أخت ، بل ومعظم المثقفين المصريين ، وأن ثقافته الواسعة اقترنت بموهبة حقيقية لديه في الكتابة والتعبير عن النفس بسلاسة جاذبية نادرين ، جعلا والده يعلق عليه آمالا في أن يخلفه ككاتب وأديب أكثر مما علقه على أي ولد آخر من أولاده ، لكن الأب كان يعتريه الخوف من أن يجابه حسين في حياته الكثير من الصعاب من جراء اعتداده المفرط بنفسه .

ويتذكر جلال تصرفا مدهشا لحسين وهو طفل، حدث في عيادة طبيب الأنف والأذن والحنجرة ، حيث اصطحب الوالد أبناءه الثلاثة أحمد وحسين وجلال لاستئصال اللوز ، فدخل أحمد في البداية دون اعتراض وأجريت الجراحة ، ولما جاء دور حسين رفض رفضا باتا أن تجري له العملية ، غير متصور أن يجري عليه ما يجري على الآخرين ، وأخذ يجري من حجرة إلى أخري من حجرات العيادة ووراءه الطبيب والمرض يحاولان الإمساك به ،وهو يصيح بصوت عالي :« أنا قلت مش حاعمل عملية اللوز ،والله العظيم ما أنا عملها ، شوف ، والله العظيم يعني إيه » .

ظل أثر حسين على جلال متشعبا.وفي كتابه « رحيق العمر » كتب له جلال

إهداء معبرا قال فيه :« إلى أخي العزيز حسين أحمد أمين .. عرفانا بجمائله التي تظهر في صفحة بعد أخري من هذا الكتاب ، واستكمالا لمراسلات بيننا استمرت أكثر من نصف قرن ».

عرف جلال عن طريق حسين قراءة الأدب الإنجليزي والأدب الروسي وأسماء بارزة في الفكر والأدب الفرنسي مثل سارتر وأندريه جيد وألبير كامي ، ورغم كل هذا التأثير من حسين إلا أن جلال لم ير الحياة ومشاكل المجتمع وفلسفة الأشياء بعين أخيه ، فكلاهما شق طريقه الفكري برؤية مختلفة، ومما يوضح ذلك ، المراسلات المتبادلة بين الاثنين والتي يأتي بها كتاب « رحيق العمر » ، ويقدمها جلال بقوله :« كان أخي حسين هو الذي عرفني بأهمية المسرح الإنجليزي وألح على في أن أتابعه (أثناء فترة البعثة من عام ١٩٥٨ _ ١٩٦٤) للحصول على الدكتوراه ، ولكن بمجرد أن رأيت مسرحية أو اثنتين في لندن ، أصبح الذهاب لرؤية مسرحية جديدة مهمة ، أو إخراج مهمة قديمة ، شيئا له أهمية الاشتغال على رسالة الدكتوراه ، وعندما أستعيد ما فعلته في لندن خلال سنوات البعثة لا أتردد في اعتبار أن ما رأيته من مسرحيات جديدة على المسرح الإنجليزي كان له أثر في تكويني العقلي والوجداني لا يقل عن أي شيء آخر قمت به في هذه الفترة ».

يضيف جلال :« كنت إذا اشتعل حماسي لإحدى المسرحيات كتبت إلى حسين على الفور لأعبر عن هذا الحماس ، فيرد على حسين موافقا أو معارضا ، ومضيفا معاني جديدة لما فهمته ، أو ينبهني إلى بعض الوقائع المتصلة بتاريخ كاتب المسرحية ، ولم يكن حسين يتعاطف دائما مع موقفي ، بل كان أحيانا يبدي قسوة مدهشة في استسخاف رأيي في بعض المسرحيات . من ذلك موقفه من حماسي الشديد لمسرحية يونسكو « الكراسي » إذ كتبت له مادحا لها بشدة ، فكتب يهاجمني بشدة أيضا .

عشرات الأسماء مروا في حياة جلال أمين ، منهم أساتذته ، ومنهم زملاء

الدراسة منذ الطفولة وحتى الجامعة ثم في الدراسات العليا ، ومنهم الأصدقاء الذين يعدون الأهم في تصنيف من يعرفهم جلال ، وهؤلاء موزعون على مجالات شتي في العمل والحياة ، ويري من خلال تجاربه مع هؤلاء ومشاهداته لهم :« أن الحس الخلقي للمرء يولد مع الطفل بدرجة معينة من القوة » ، ويدلل على ذلك بأن كل أصدقائه دخلوا الجامعة وحصل معظمهم على وظائف محترمة ، وبعضهم على الدكتوراه ، لكن ظل كل منهم على حاله الذي بدأ عليه عقليا وخلقيا ، وتأكدت قناعة جلال بعد بذلك بعد أن التقي بالزملاء القدامي بعد نحو ٦٠ عاما في عشاء نظمه أحدهم ، فوجد أن كلًا منهم كان كما هو عقليا وخلقيا ، فهذا المهندس محمود كشك « ملح الأرض » الذي يعطي في صمت ويرحل في صمت ، حمي الإذاعة المصرية من العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، وأنشأ التليفزيون الأسود ، ثم الملون ، والمحطة الفضائية نفسها ، وعلي النقيض من نموذج المهندس محمود كشك ، يذكر جلال نموذج الطيب الوسيم الذي كان يذكر المرضى الفقراء بأسي وحزن ، وأخيرا ترك البلد وهاجر ليعيش حياة مريحة ، وهناك الزميل البخيل الذي عشق المال وسافر لأمريكا لدراسة الطب ثم العمل ، وبعد أن بلغ الستين عاد بثروته ، وحين مات وجد أخوه أنه لا حاجة لنعيه في الصحف لأن لا أحد يعرفه في مصر وأمريكا ، وبفيض من الحب والتأثر يتحدث جلال أمين عن صديقه الفذ على مختار ، فعن طريقه عرف جلال السياسة ، ويصفه جلال بأنه كان نموذجا في كفاءة إدارة شخصيته ومواهبه الفذة.

يمكن القول : إن سيرة حياة جلال أمين هي في نفس الوقت سيرة لأشخاص آخرين ، ورغم أن حديثه عن هؤلاء الأشخاص يعبر بسرعة ، إلا أننا نفهم من هذا الحديث سمات وخصال هؤلاء الأشخاص ، هو يعطينا عنهم خطوطا عريضة تقودنا إلى فهم عميق لمجمل تصرفاتهم ، ومن هذه الأسماء ، أستاذه الدكتور سعيد

النجار المفكر الليبرالي الراحل ، فرغم الاختلاف الفكري بينهما والذي أدي إلى التباعد في العلاقة لسنوات ، إلا أن الشهور الأخيرة من حياة النجار شهدت تقاربا بينهما ،وتميز النجار بأنه لم يتملق السلطة قط ، ولا دافع عن فكرة غير مقتنع بها ، وبنفس الدرجة من الاحترام والمحبة يتحدث جلال عن شخصيات أخري مثل ، الدكتور زكي الشافعي ، وإسماعيل غانم ، وحافظ غانم ، ويتحدث عن قصة أستاذين صديقين قاما بالتدريس له ،وارتبطا بثورة يوليو ، وجمعهما الطموح السياسي ، وهما الدكتور لبيب شقير، والدكتور رفعت المحجوب ، اختار جمال عبد الناصر، لبيب شقير وزيرا للاقتصاد ، وكان أصغر وزير يتولى شؤون الاقتصاد أو المالية في مصر، ثم أصبح رئيسا لمجلس الأمة ، قبل أن يتم اعتقاله من الرئيس السادات في قضية الصراع بينه وبين العديد من رجال حكم عد الناصر ، وهي القضية التي أطلق عيها السادات « مراكز القوي » ، وكانت في ١٥ مايو ١٩٧١ ، يتحدث جلال عن شقير بحب ، فهو ذكي ونشيط محاضر جذاب ،واسع الثقافة ، يتحول الاقتصاد على يديه إلى علم وثيق الصلة بالحياة ، ولما خرج من المعتقل ، وجد نفسه بلا عمل بعد أن كان في قمة السلطة السياسية، وعمل لفترة قصيرة في المحاماة ، ثم سافر إلى أبوظبي للعمل مستشارا لإحدى المؤسسات المالية ، وبالرغم من هذه الوظيفة لم تتناسب مع قدراته ، إلا أنها أبعدته عن أهواء السياسة المصرية ، وكان يعود كل عام ليقضي أجازته في مصر ، فيجلس على شاطئ البحر في المنتزه بالإسكندرية ليقرأ الروايات ، وفي إحدى هذه الأجازات ، وبينما كان يستعد للسفر إلى مصر ليقضي أجازته أصابته أزمة قلبية ومات على الفور ولم تطل الصحف المصرية في نعيه ، ولا كتب عنه أحد مقالة .

أما الدكتور رفعت المحجوب الذي تولي رئاسة مجلس الشعب (١٩٨٦ - ١٩٩٠)، فيراه جلال أمين ، شخصا ثقيل الظل بطيء الحركة ، يتظاهر بالعمق

وسعة الثقافة دون أن يكون هناك أي دليل على ذلك ، لم يمنعه شيئا من الاستمرار فيما كان فيه ، هزيمة كان أم انتصارا ، رأسمالية أم اشتراكية ، ومنذ أن كان مدرسا في كلية الحقوق ، لم تكن له آراء ثابتة في أي شيء ولا معتقدات قوية ، وتم اغتياله في عام ١٩٩٠ ، ويري جلال أن السبب الحقيقي لاغتياله يعود إلى قلة حظه من الحنكة السياسية ، ومن الفهم لطبيعة المرحلة التي كان يقدم نفسه لخدمتها ، ومنعته إغراءات بسيطة للغاية ، كالحصول مثلا على فيلا فخمة في الصف الأول من الفيلات المقامة على شاطئ مارينا ، من أن يري الأمور على حقيقتها، ويقول جلال أن المحجوب عومل في حياته المعاملة التي يستحقها ، أخذ من الحياة ما كان يطمح فيه بالضبط ، وانتهت حياته نهاية فيها بعض سمات المأساة وبعض سمات المهزلة .

يطرح جلال أمين سؤال حول السبب الحقيقي لاهتمامه بالسياسة ومتي بدأ الاهتمام بها ، ويجيب بأنه يتذكر كيف كان في سن مبكرة أكثر اهتماما بحال الفقراء من بقية إخوته ، وأكثر استعدادا للإنفاق عليهم من ماله من بقية أفراد أسرته باستثناء أبيه ، وأنه كان يدافع عن خادم أو خادمة عوملا بقسوة أو ظن أنهما عوملا بقسوة أكثر مما كان يفعل أي أخ أو أخت ، ويقول :« قد يكون مصدر اهتمامي بالسياسة هو هذا الاستعداد للتعاطف مع المظلوم أكثر من مجرد كراهيتي لتعرضي أنا شخصيا للظلم مع بقية إخوتي ، ولكن من الممكن جدا أيضا أن يكون هذا التعاطف مع المظلومين سببه شعوري المستمر بأني واحد منهم »..

ويحكي جلال أمين عن تجربة له مع حزب البعث عبر أصدقاء من الطلاب العرب أثناء دراسته الجامعية تميزوا بالجدية والاهتمام بالسياسة والقضايا العامة بدرجة أكبر من اهتمام المصريين ،وانضم إليه عام ١٩٥٤ ، بعد انضمام صديقه على مختار ، كما انضم عدد آخر من المصريين يقترب عددهم من المائتين ، ويذكر أن قيادة الحزب في سوريا اختارته مسئولا عن الحزب في مصر بعد تخرجه من كلية الحقوق ،

وتعددت اللقاءات في القاهرة مع ميشيل عفلق مؤسس الحزب واستمر ذلك حتى عام ١٩٥٧، ويؤكد أنه يشعر ببعض الفخر لما بذله من نشاط في الحزب، وعلي الأخص قيامه بإعداد بعض أحاديث ميشيل عفلق وطباعتها على نفقته الخاصة من مرتبه ،الذي كان يتقاضاه من عمله في مجلس الدولة قبل أن يسافر للحصول على الدكتوراه.

استمر جلال في « البعث » ثلاث سنوات ،وكان ذلك قبل أن يصعد الحزب إلى الحكم في سوريا والعراق ، وسارت هذه الفترة في اتجاهين ، الأول مع روحانية وميتافيزيقية الفكرة البعثية وقائدها عفلق ، والثاني مع صلابة وقوة الفكرة الماركسية التي بدأ في مطالعتها ، وانتهي مسار الاتجاهين بعد حوارات متعددة مع ميشيل عفلق إلى ترك «البعث »نهائيا واستقالته منه عام ١٩٥٨ ، ويعتبر جلال هذه التجربة « صبيانية أكثر منها جادة في العمل السياسي »، وسار جلال باتجاه الماركسية كفكرة أكثر إقناعا له ، لكنه تركها هي الأخرى بعد سنوات من بعثته إلى إنجلترا للدراسات العليا عام ١٩٥٨ ، والمفارقة أن كل هذا كان يتم في وقت صعود زعامة جمال عبد الناصر ، وهي الزعامة التي التبست مشاعر جلال نحوها مابين الحب والكره .

ويحدد جلال فترة تعاطفه مع ثورة يوليو بتأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ ، وبلغت أوجهها مع تأميمات ١٩٦١ (قرارات يوليو الاشتراكية) ثم بدأ أول شرخ فيها عام ١٩٦٣ ، حين هاجم عبد الناصر ميشيل عفلق ، ويحشد جلال عشرات الوقائع التي ساهمت في عدم استقامة مشاعره على طول الخط مع الثورة ، منها ما هو أمني ،و ما هو سياسي ، فعلي الصعيد الأمني ظل انضمامه إلى البعث تهمة تطارده ، كما حدث في محاولة عرقلة سفره إلى إنجلترا لحضور مؤتمر وبصحبته زوجته الإنجليزية عام ١٩٦٦ ، ولما أخذه خالد محيي الدين (عضو مجلس قيادة ثورة يوليو

ومؤسس حزب التجمع التقدمي المعارض) إلى شعراوي جمعة وزير الداخلية للاستفسار عن الأمر ، ذكر شعراوي أن جلال « بعثي » وأنه قال ما يسيء إلى النظام في إحدى محاضراته في كلية الاقتصاد ، ورغم أن شعراوي لم يعط وعدا في هذا اللقاء مما أفقد جلال الأمل ، فإنه فوجئ قبل موعد سفره بقليل بالسماح له دون أن يعرف ما الذي أدي إلى ذلك .

يحكي جلال واقعة نفهم منها عدم استقامة مشاعره نحو ثورة يوليو ، يقول فيها ، أن أستاذا زميلا له في كلية الحقوق جامعة عين شمس أبلغه عام ١٩٦٥ أن شخصا مهما يريد أن يقابله ، وهذا الشخص كان حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم الأسبق وأول مسؤول لمنظمة الشباب وهي التنظيم الشبابي الذي أسسه عبد الناصر في الستينيات، ودار في المقابلة حديثا طويلا عن الرأسمالية والاشتراكية ، ويعتقد جلال أن الحوار ترك أثرا طيبا لدي حسين بدليل إصراره على توصيله بسيارته إلى منزله في المعادي ، لكن ما لم يفهمه جلال حتي الآن أن حسين لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال رحلة التوصيل من جاردن سيتي إلى المعادي ، كما لم يبد له أي سبب لعدم إسناد ه إليه أي مسئولية في المنظمة ، لكن زميله أستاذ الحقوق ووسيط اللقاء كشف له المستور فيما بعد حين أبلغه أن المسئول الكبير (حسين كامل بهاء الدين) قال له أن جلال لا يصلح للعمل معهم لأن له تاريخا وهم يريدون أشخاصا بلا تاريخ.

على أثر ذلك تلقي جلال خبر وفاة جمال عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ بهدوء شديد ، ومشاعر فيها من دهشة المفاجأة أكثر ما فيها من حزن ، وظل على هذا الوضع حتى منتصف السبعينيات ، عندما رأي حجم تنازلات أنور السادات لإسرائيل والولايات المتحدة ، فبدت إنجازات عبد الناصر إيجابية للغاية ، ويتحدث جلال عن مشاعره بوضوح نحو السادات :« كان يتكلم عن نفسه كلاما

يثير النقد الشديد لكثرة ما يحتويه من فخر لا مبرر له بنفسه وتاريخه ، فإذا سئل مرة عن أهم ما قرأه من كتب ، ذكر كتاب أبي « فيض الخاطر » ، ويذكر اسم الكتاب خطأ فيسميه « خواطر » ، ولكي يدلل على سعة إطلاعه يقول أنه قرأ المراجع التي ذكرها أبي في نهاية الكتاب ، والكتاب بحكم طبيعته لا بذكر اسم أي مرجع على الإطلاق».

أدت شخصية السادات وما انتهجته من سياسة بجلال إلى أن يكون على استعداد لنسيان كل ما ارتكبه عبد الناصر من أخطاء ، وفي نفس الوقت جعلته « مبتهجا » بمقتل أنور السادات في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ ، ويرى أن هذا « ليس عجيبا » ويقول : فضلا عن الارتياح الذي بعثه في نفسي اختفاء هذه الشخصية التي لم تكن تثير لدي إلا مشاعر الغضب والنفور ، بدا لي هذا الذي حدث للسادات وكأنه عقاب لائق لما ارتكبه في حق مصر والعرب من أخطاءه، وعن عهد مبارك يقول جلال :« نفس أسباب السخط على سياسات السادات استمرت في عهد مبارك ، وأن الفرق الوحيد بين العهدين هو في أسلوب التطبيق »، ويضيف :« كان السادات يطبقها بجرأة قد يحسده البعض عليها ، ويعبر عنها بطلاقة لسان ، وكثيرا ما يطبقها بصفاقة ، أما في عهد مبارك فكانت نفس السياسات تطبق دون ضجة ودون تهييج للناس » .

يستعرض جلال أمين حياته بعد أن تجاوز السبعين من عمره ، فيجدها مليئة بالأمثلة على خيبات الأمل ، وهكذا وجد حياة كل من عرفهم عن قرب حتى من كان أكثرهم نجاحا ، ومن الأب إلى الأم إلى الأحفاد ، يطرح جلال خيبات الأمل متسائلا : « ما السر في هذا الحزن الشديد الذي كان يخيم على أبي في سنواته الأخيرة ، وكأنه لم يعد هناك شيء قادر على إبهاجه ، وعن الأم يقول أنها وبعد أن أصبح لها أملاك ، وقدر أكبر من الحرية في اتخاذ القرارات ، اشترت لوحة مكتوب عليها الآية القرآنية : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾، وعلقتها فوق سريرها ، وكانت كثيرا ما تكررها، وكان هذا التكرار ينطوي على إشارة خفية إلى أبيه ، فكأن الله لم ينصرها إلا عليه ، أوكأن العلاقة

بينهما كان لابد أن تنتهي بغالب ومغلوب ، مما يثير التساؤل عما إذا كانت العلاقة الزوجية هي دائما علاقة بين شخصين متحابين ، أم بين متصارعين؟ .

أما عن نفسه فيقول :« عندما تقدمت في السن فقدت الثقة في أشياء كثيرة كنت أعلق عليها الآمال كمصدر من مصادر السرور ، ثم تبينت أنني بالغت في قدرتها على تحقيق ما كنت أتوقعه».

يرصد جلال وبشفافية مؤثرة وحزينة الفرق بين جيلين ، فيما يتعلق بخيبات الأمل التي تظهر في فشل حالات الزواج ، ففي جيله وهو تقريبا نفس جيل إخوته انتهت زيجتان بالطلاق ، ويؤكد كم كانت هناك جهود تبذل من أجل عدم الإقدام على الطلاق ، ويذكر في أسي ، أنه مثلا لم يري ابنة شقيقه محمد من مطلقته على مدي ٥٠ عاما سوي أربع أو خمس مرات ، و لأكثر قسوة أنه لم ير ابنة شقيقه حافظ من مطلقته منذ أن كان عمرها أسبوعين ، ويقول في أسي :« لا أعرف وقد بلغت الخمسين من عمرها في أي بلد تعيش » .

أما الأبناء وهم الجيل التالي للآباء ، فيقول جلال : إنه من بين عشرين ولدا وبنتا للثمانية أشقاء تزوج منهم ثماني عشرة انتهت ثماني زيجات بالطلاق ، وكلهم مازالوا في مقتبل العمر ، ويقول جلال أنه في آخر حفلة من حفلات الكريسماس التي اعتاد أن يقيمها للعائلة نظر إلى جيل الأولاد والبنات، وقد انتشرت بينهم حالات الطلاق ، وأعمار معظمهم تتراوح بين الأربعين والخمسين ، فوجدهم أكثر ميلا للحزن والاكتئاب مما كان عليه الآباء والأمهات في مثل سنهم ، وأقل تفاؤلا بالحياة ، ويري أن الطلاق لم يكن هو السبب الوحيد أو الأساسي لكل هذا الحزن ، فالميل للحزن والاكتئاب في المتزوج والمطلق موجود على السواء ، ويستخلص أن هذا لا يرجع إلى سبب فردي يتعلق بهذا الشخص أو ذاك ، أو بهذه الأسرة دون غيرها ، بل يتعلق بما حدث لمصر بوجه عام ، وربما يتعلق أيضا بما حدث في العالم كله .



أسامة أنور عكاشة

تحت شجر البرتقال

في عام ١٩٨٤ كان لقائي الأول بالكاتب الكبير أسامة أنور عكاشة ،وبعدها تعددت اللقاءات ،بعضها في شقته بالجيزة قبل أن يرحل منها ، وأخري في أماكن كان يهجر المنزل إليها من أجل الكتابة .. ذهبت إليه أكثر من مرة في فندق يقع في بداية شارع الهرم ، ولم يكن يطلع أحد بمكانه إلا بعد عودة أهل بيته له ، فيبلغهم بما إذا كان يوافق على إعطاء رقم التليفون لمن يطلبه في البيت أم لا ، كما تجولت معه في ندوات كان يعقدها في أعقاب النجاح المدوي لرائعته « ليالي الحلمية » ، ذهبت معه إلى كلية الزراعة بقرية مشتهر بمحافظة القليوبية ، وإلى معهد الكفاية الإنتاجية بجامعة الزقازيق ، كما لبي دعوتي لندوة حاشدة في قريتي « كوم الآطرون – طوخ – قليوبية » ، و بصحبته جاء الفنانان سيد عبد الكريم ، وسيد عزمي .

كنت وقت لقائي الأول به في نهاية دراستي الجامعية ،وأمارس العمل الصحفي بالكتابة لبعض الصحف العربية مثل « الخليج » .. وكان أسامة بالنسبة لي نموذجا للمبدع الذي تمنيت لقاءه ليس لغرض صحفي وفقط ، وإنما لمعرفة من أي منبع تأتي موهبته الفذة ،التي بشرت بأننا على موعد قادم مع موهبة متفجرة سترفع من شأن الدراما التليفزيونية ليس في مصر وفقط ، وإنما في كل أرجاء الوطن العربي .

جاء اللقاء بعد أن شاهدت له مسلسله الجميل « وقال البحر » بطولة عزت العلايلي وفردوس عبد الحميد ، لكنني كنت مسكونا بمسلسل آخر له هو «أبواب المدينة » إخراج فخر الدين صلاح صديق عمر أسامة وصاحب الفضل الأول عليه في التحول من الأدب المكتوب إلى الدراما التليفزيونية، ومات فخر مبكرا في حادث سقوط طائرة كانت متوجهة إلى العاصمة اليونانية أثينا، فخسره إبداع أسامة الذي فاض نهره لاحقا ، كما خسره الإخراج التليفزيوني عامة .

لعب صلاح السعدني والفنانة المعتزلة نسرين وسيد عبد الكريم والراحل عبد الله محمود وصلاح عبد الله ومحمود التوني بطولة « أبواب المدينة » ، وكان المسلسل

هو الأول تقريبا في فضح الفساد الذي بدأ في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، بفضل سياسة الانفتاح الاقتصادي التي أقرها الرئيس أنور السادات بعد انتصارات حرب ٦أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وأدت إلى تراجع سلم الأولويات عند شرائح من المصريين ،ليصبح الكسب السريع وبأي وسيلة هو الهدف الرئيسي لهذه الشرائح ، وتم ذلك وسط نهج سياسي عام على النقيض من النهج الناصري الذي ساد في مرحلة الخمسينات والستينات ؛ وعاش أسامة في ظله .

دق أسامة في « أبواب المدينة » ناقوس الخطر مما هو قادم من ريح عاتية تؤججها سياسات قفزت بالمفسدين إلى الواجهة ، وأعادت الحالمين بوطن أفضل إلى الخطوط الخلفية ،وفي المسلسل تجلت براعة أسامة في نسج حدوتة تشمل كل فئات المجتمع ، من فقراء مكافحين ، إلى أثرياء فاسدين ، ومن سلطة تشجع على بيئة الفساد ، إلى مثقفين حالمين مقاومين ، ودارت الحدوتة بحوار بارع ينفذ إلى القلب والعقل في أن واحد .

بلغ إعجابي ب« أبواب المدينة » حد حفظي لمشاهد كاملة فيه ، وأخضعته لاجتهادات نقدية كنت أمارسها وقتئذ تحت تأثير حلمي بأن أكون ناقدا أدبيا ، وفي اللقاء شعر أسامة بذلك .

تم لقائي الأول عبر الفنان الجميل سيد عبد الكريم الذي يعمل أستاذا في كلية الزراعة بقرية مشتهر القريبة من قريتي ، التي زارها أسامة فيها بعد، للقاء جمهور مختلف يختبر من خلاله قيمة ما يقدمه ، وفي مطعم « بابريكا » المجاور لمبني اتحاد الإذاعة والتليفزيون جلسنا نحن الثلاثة ، ليدور حوار طويل .

كان أسامة في مطلع الأربعين من عمره ،وكنت أنا أزيد قليلا عن نصف عمره .. كان متدفقا بتوهج في حديثه.. يدخن «البايب »، ونقطع الحديث بحوارات عن الزمالك والأهلي ، فهو كان زملكاويا غاضب وقتها من مستوي فريق الزمالك لكرة

القدم ، وكان الدكتور سيد عبد الكريم أهلاويا وأنا معه .

التأثر بثورة يوليو

كان الحوار باكورة لحوارات عديدة مع أسامة ، وأحاديث مشتركة في ندوات ، ولم يكن الهدف منها النشر الصحفي ،بقدر ما كانت محاولة دائمة من الاقتراب لعالم هذا الموهوب الفذ ، وكلما عدت إلى حوار مطعم «بابريكا » اكتشف أهميته من زاوية أنه يمثل ما يمكن تسميته ب«المرحلة الأولي » في إبداع أسامة أنور عكاشة ، وهي المرحلة التي كان فيها متأثرا بثورة يوليو وبقائدها جمال عبد الناصر ،وقدم فيها أعماله الرائدة ، وهي ، « الشهد والدموع» ثم « ليالي الحلمية »، و«الراية البيضا » ، وامتدت هذه المرحلة حتى غزو العراق بقيادة الرئيس العراقي صدام حسين للكويت عام ١٩٩١ ، وما تلاها من حروب قادتها أمريكا ضد العراق ، أدت إلى خروجه من الكويت ،وتواصلت بحصار دولي طويل على الشعب العراقي ، ثم انتهت باحتلال العراق عام ٢٠٠٣ وسقوط نظام صدام حسين .

أدي هذا الفصل البائس في تاريخنا العربي إلى تغيير كبير في قناعات أسامة أنور عكاشة ، وبعد أن كان ممن يؤمنون بالقومية العربية ،انقلب عليها مطالبا بالبحث عن أصل هوية المصريين ، لأن القومية العربية حسب رأيه: « دفنت في بحر الباطن »، وكان موقفه المضاد للقومية العربية ، ثم عدوله عنه قبل رحيله ،هو نموذج صادق وحقيقي لقلق المثقف المهموم .

مع بدء أسامة مراجعة قناعاته «القومية العربية» ورفضه التمسك بها كأساس أيدلوجي ، هناك من حاول استثمار ذلك لأغراض سياسية خبيثة ،بمعني جره إلى الهجوم على جمال عبد الناصر ، وتأييده للسلام مع إسرائيل ،إلا أنه ظل على مواقفه المبدئية حتى رحيله في العداء لإسرائيل والتطبيع معها ، وظل على تقديره وحبه لجمال عبد الناصر مع اختلافه مع نظامه، وفي ظل هذه الحالة من حياة أسامة ،

جاءت أعماله المعبرة عن قلقه في البحث عن هوية ، وشملت مسلسلات «أرابيسك» ، و«زيزينيا » و« المصراوية » التي خطط لأن تكون خمسة أجزاء ، لكنه توفي بعد أن قدم جزئين فقط منها.

وأعود إلى جلستي الأولي مع أسامة ، وحواري معه الذي تطرق فيه إلى بداية تجربته الفنية ، قائلا :« بداية تجربتي كانت أدبية ، فأنا كاتب قصة ، وظللت أنشر لفترة حتى جاءت حرب ١٩٦٧ ، وتلاها فترة إحباط ، ومع الإحباط العام ، كان إحباطي الخاص متمثلا في عدم وجود حركة نقدية تتابع وتناقش ما أكتبه ، وبالطبع فإن الكاتب لا يحس بقيمة ما يكتبه إلا إذا كان هناك قارئ وناقد ، وكان الحل في الدراما التليفزيونية التي أتاحت لي الفرصة إلى الوصول إلى القارئ المصري ، بأسلوب مختلف لا يشمل شروط شراء كتاب والتفرغ لقراءته ، وبانتشار التليفزيون في أعماق الريف تمكنت من التواصل مع شرائح واسعة في المجتمع لم أكن سأصل إليها أبدا ، والنتيجة أنني هاجرت أرض الأدب إلى التليفزيون ، وبدأت بإعداد قصص منشورة لي ، ثم تلاها كتابة المسلسلات مباشرة منذ عام ١٩٧٦ ، ورغم الشهرة التي تحققت بفضل اللجوء إلى الدراما التليفزيونية . إلا أن الأدب لم يفارقني ، وطموحي أن أصل إلى ما يمكن أن نسميه ب«أدب التليفزيون » ، وأعمل لتحقيقه منذ ٨ سنوات ،قدمت فيه عددا من المسلسلات والسهرات ».

سألت أسامة عن سمات أدب التليفزيون الذي يطمح إليه ، فأجاب :« أتخيله أدبا أولا ، وتليفزيونيا ثانيا ، بمعني توفير مقاييس الأدب في النص الدرامي التليفزيوني ، وتتم المعالجة الفنية بناء على مقاييس قد يستعيرها التليفزيون من دراما أرسطو ، ولكن بنص يستمتع به المشاهد كما لو كان قارئا ،وبعد ذلك يتحول إلى مادة مكتوبة يكون الإقبال على قراءتها بنفس درجة الإقبال على رواية لنجيب محفوظ أو يوسف إدريس وكما قلت لك هذا طموح ، وتحقيقه يحتاج إلى حركة عامة فيها أدباء ونقاد ،

وأدعو النقاد بشكل خاص إلى الالتفات لهذا الجانب ، بمواكبة الدراما التليفزيونية بحركة نقدية رصينة تقوم على معايير صحيحة ».

كان أسامة يطرح طموحه عن « أدب التليفزيون » بحيوية الشباب المقترنة بطموح التغيير الذي يملأ قلبه وعقله، وبصرف النظر عما إذا كان هذا « الأدب » قد تحقق أم لا ، إلا أنه كان يبشر بمؤلف للدراما التليفزيونية من طراز مختلف ، مؤلف استطاع أن يجعل ارتفاع نسبة المشاهدة للدراما التليفزيونية مقرونا باسم مؤلفها ، قبل النجم الذي سيلعب بطولتها ، كما استطاع أن يحقق جانبا من طموحه بجذب نقاد أدب كبار إلى الالتفات لهذه الدراما، وكان الناقد الراحل الدكتور عبد القدر القط أبرز من فعلوا ذلك ، حيث قدم اجتهادات نقدية سعي من خلالها إلى التأصيل لـ « أدب التلفزيون » الذي طمح اليه أسامة .

انتقلت مع أسامة إلى طبيعة الموضوعات التي تفرض نفسها عليه ، فجاء الحديث منه مباشرة عن ثورة يوليو عام ١٩٥٢ قائلا :« هناك مسائل لابد أن تضعها في الاعتبار وهي ، أنني واحد من جيل ثورة يوليو ، ليس من الذين قاموا بها ، ولكن ممن تربوا على مبادئها وشاهدوا قيامها ، وعاشوا معاركها ، وللثورة بصمة أساسية في تاريخنا ، تتمثل في تنمية الحس الاجتماعي واقتحام مشكلة التفاوت الطبقي والاختلال الاجتماعي الموجود في مصر ، وكمية الوعي الاجتماعي وتنميته نشأ عندنا جميعا بهذه الصورة ، ومن خلال معارك الثورة التي عشناها شبابا ، والفنان أو الأديب الذي شرب قيم ومعتقدات هذه الفترة ،لاشك أن مجتمعه سيكون هو اهتمامه الأول ، يدخل فيه أسئلة يعاني منها ، ويعاني من تدبير السبل للوصول إلى أجوبة عليها ، وهذا هو مدخلي الأول إلى طبيعة الموضوعات التي تفرض نفسها على في التأليف ».

ينتقل أسامة إلى ما يعتبره المدخل الثاني والذي يرتبط عنده بتاريخ مصر ، قائلا :

« مـا يلفـت نظـري أن الحـد مـن انطـلاق المجتمـع المصري يعـود إلى التركيبـات والتناقضـات الموجـودة داحلـه ، والقوالـب التـي فرضـت عـلى تطـوره الاجتماعـي، بالإضافة إلى أن تاريخ مصر يتمثل بداخلي دائما ، فأنا قارئ جيد لهذا التـاريخ ، ومـن خـلال هـذه القـراءة أتصـور أن هنـاك ديمومـة واسـتمرارية للـروح المصريـة مقترنـة بمشاكل مجتمعها من قرون ، وهذه ظاهرة يتفرد بها المجتمع المصري ،والتفرد هنا لا يقتصر على الحفاظ على الأصـالة وبقـاء الطبقـة فقـط ، ولكـن هنـاك ظـاهرة ديمومـة المشاكل وعراقتها ، فمازالت مشكلة المصريين هـي نفـس المشـكلة مـن ٤٠٠ أو ٥٠٠ سنة ، وهذه مسألة تبعث على الأسف ، لكنها تـدل في الوقـت نفسـه عـلى أن التطـور الكبير أو الحدث الأساسي أو الجذر في تاريخ مصر لم يأتي بعد ».

زاد أسـامة في طرحـه السـابق بالتأكيـد عـلى أنـه مهـتم بمسـألة موقـف المثقـف وانحيازه في مجتمع مثل مجتمعنا ، والدائرة التي يتحرك فيها لكي يو'ئم بين ما يـراه في أرض الواقع ، وما يحلم به لبلـده أو وطنـه، فهـذه مشـكلة أعـاني مـن التفكـير فيهـا ، وتجدها في معظم أعمالي ، فأنا دائم التفكير في طبيعـة العلاقـة بـين امثقـف ومجتمعـه ، وعتد ومشاكل المثقفين التي تحكم انحيازهم، والعلاقة الجدلية بـين المثقـف ومجتمعـه ، والي أي مدي يكون المثقف صادقا وهو يتعامل بشعاراته مع المجتمع .

الفرد والمجتمع

احتلت قضية العلاقة بين الفرد والمجتمـع مسـاحة كبـيرة في حـواري مـع أسـامة أنور عكاشة ، وكانت أعماله الفنية حاضرة في المناقشة حول هذه القضية بالتحديـد ، كما جرت أسامة إلى الحديث عن جانب من تكوينه الفكري الـذي مر بـه ، وضـبطه على قناعة محددة فيها ،وللتذكير فإن الحوار جـري قبـل انهيـار التجـارب الاشـتراكية وفي المقدمة انهيار الاتحاد السوفيتي حيث يتعـرض أسـامة في جانـب مـن كلامـه عـن غياب الديمقراطية في هذه الدول ، قال أسا'مة :« مـن ضـمن المعـارك الفكريـة التـي

ارتبطت بالتغيرات السياسية في مصر ، كانت مشكلة الفرد لصالح الجماعة أو الجماعة لصالح الفرد ، والحقيقة أن تناول هذه القضية بهذا الشكل كان تلخيصا مخلا لمسألة النظام الاجتماعي رأسماليا أو اشتراكيا ، وأنا أعتقد أنه ليس هناك تعارض حتمي بين الفرد والجماعة ، فبعض المجتمعات الاشتراكية عانت في فترات التطبيق من بعض السلبيات التي تتصل مباشرة ببعض الموضوعات المتعلقة بغياب حرية الفرد والديمقراطية ، وهذا الغياب هو من ضمن السهام القوية التي توجه إليهم ، ولكن أنا أري أن الفرد في المجتمعات الرأسمالية المفتوحة بالكامل ليس حرا بالدرجة التي يتصورها الناس ، فلا يوجد فرد في أي مجتمع الآن حرا حرية كاملة أيا كان مذهبه وعقيدته ، وهذا يقربني من جزء من الشخصية ، حيث تأثرت بالمذهب الوجودي كفلسفة ، وهو يعتمد على شيئين أساسيين هما الحرية والمسؤولية ، أي تحقيق الذات من خلال الحرية وحدودها ، ومسئولية الإنسان الذي يحاول أن يمتلك حريته ، أو يمتلكها بالفعل، وأذكر أن هناك محاولة كانت لسارتر تتمثل في المزاوجة بين الوجودية والماركسية وهرب منها في النهاية ، وأعتقد أنها تصلح لحل التناقضات داخل المفكر الملتزم ، وأتذكر كلمة قالها الميثاق الذي وضعه جمال عبد الناصر عام ١٩٦٢ :« أن العبيد هم القادرون على حمل الأحجار ، أما الأحرار وحدهم فهم القادرون على التحليق إلى آفاق النجوم » ، وهذه العبارة تقودني إلى مسألة الحرية وقدرها من ناحية متي تبدأ للفرد ومتي تنتهي ؟، وكيف يكون هناك حرية اجتماعية وحرية سياسية في أن واحد ، وقصدي بالحرية الاجتماعية تلك التي تقوم على توزيع عادل للثروة بين طبقات المجتمع ، ومجمل هذه القضايا لابد أن تكون ضمن الاهتمامات الشخصية لأي مثقف لأنها تمسه مباشرة ، و أحيانا يكون المثقف في صراع بين التزامه بالقيود الاجتماعية الموجودة حوله وبين حريته الشخصية ، وأنا أعتبر تاريخ الإنسان مجموعة من المحاولات التمردية على القيود،

بصرف النظر عن أن المقصود بهذا هو الإنسان المصري ،أم الإنسان في كل مكان بالعالم يحاول التمرد على القيود التي تكبل حركته دائما .

كانت أعمال أسامة الدرامية حاضرة في حواراتي معه ، ومع تكرار اللقاءات خرجت هذه الحوارات من صلب اهتمامي الصحفي، لتتحول إلى مناقشات ثرية كنت حريصا على تدوين جانب منها كي احتفظ به للتذكرة ، تحدث عن لرمز في مسلسله «وقال البحر » الذي يقوم على فكرة البحث في البحر عن كنز عبارة عن عقد خرز وكيف يتم الصراع وتدور الدسائس من أجل الوصول إليه ، قال : « عندما حاولت أن أتكلم عن موضوع النفط على اعتبار أنه أحد المشاكل العربية ، أو بالتدقيق جلب لنا المشاكل . اضطررت إلى اللجوء للأسلوب الرمزي والأسطوري ، لكي أصل إلى ما أريده ، وأحمد الله أن ما أريد قوله وصل بالفعل إلى الكثير من شعوب بلدان الخليج ، واستطاعوا تفسير هذا الرمز ، وقالوا :« أن المسلسل يتكلم عن كيفية أخذ ثرواتنا وإعطائنا قشور يضحكون بها علينا ، مثل الخرز الملون الذي ضحك به البيض على الهنود الحمر ».

وعن مسلسل « سلمي » الذي لم يعرض في مصر، قال : إنه تعرض لفترة مبكرة من الحرب اللبنانية التي تفجرت في أواخر السبعينيات من القرن الماضي ، واستمرت حتي قيام صدام حسين بغزو العراق عام ١٩٩٠ . ولما سألته من خلال هذين العملين عما إذا كان يقصد الخروج من قضايا مصرية الطابع إلى قضايا عربية ، أجاب :« مشاكل الواقع العربي ككل تتقارب إلى حد كبير مع مشاكل الواقع المصري ، لكونه مجتمعًا واحدًا وجغرافيته وحدة ومشكلته واحدة وهي التخلف ، فنحن نحاول الوصول إلى العصر الذي نعيشه ، لكن تقف محاولتنا عند العيش بأجسادنا فقط في ركاب التقدم ومظاهره ، وتبقي الحقيقة عند أننا متخلفون بما لا يقل عن قرنين أو ثلاثة عن التحضر والمعايشة الفكرية الحقيقية للعصر ، بمعني

قدرة هذه المعايشة على أن تضعنا على خط واحد مع الدول المتقدمة .

تطرقنا إلى مسلسل « أبواب المدينة » ، والذي احتوي على شخصية عاشور الملط وكانت ترمز إلى الطبقة الطفيلية التي تولدت بفعل قرار الانفتاح الاقتصادي الذي اتخذه السادات ، وانتهي المسلسل بالقبض عليه مما أعطي إيحاء بأنه تم القبض على هذه الطبقة الطفيلية بالكامل بالرغم من أن السادات مات وتركها تترعرع على حساب الفقراء ، كان هذا هو فهمي لنهاية المسلسل الذي قلته لأسامة أنور عكاشة وقتها ، فرد قائلا، أن الفن في شروطه لابد أن يحتوي على تبشير ، بمعني أنه إذا اعتبرنا أن عاشور الملط في « أبواب المدينة» هو رمز للطبقة الطفيلية ، فإن القبض عليه هو تعبير عن انتصار قوي الشارع في حربها ضد الاستغلال ، وهذا يعني أننا يجب ألا نطفئ جذوة الأمل عند الناس ، وأنا أصررت على القول في المسلسل أن مصر تتحرك وتمشي في طريقها ، وكلما جاء عاشور الملط وأمثاله ، كلما انتصر عليهم الناس .. أمثال عاشور الملط فترة لابد أن تزول ، قد يطول بقاؤها لكن لابد أن تنتهي .

كانت نظرية « الواقعية والاشتراكية في الأدب والفن » ما تزال على نضارتها وقت أن كان أسامة يتحدث عن « أبواب المدينة » ، ومنها جاء رده على سؤالي حول نهاية المسلسل والقبض على عاشور الملط رمز الرأسمالية الطفيلية ، قال أسامة مضيفا على ما سبق :« يجب ألاَّ أكون من خلال ما أكتبه أداة تولد الإحباط واليأس لدي الناس ، وأحذر من التصوير بأن الفقراء والمقهورين لا يمكنهم مقاومة « الغيلان » ، مما يؤدي إلى الإحساس باليأس وعدم الجدوي وعبثية المقاومة، وأعود بالتذكير إلى أنه وقت عرض هذا المسلسل ، ظهرت لوحة مكتوب عليها :« هذا المسلسل خيالي والأشخاص والأحداث التي وقعت فيه ليس لها صلة بالواقع » .

أضاف أسامة :« كان هذا التصرف هو الأول من نوعه في طريقة التعامل مع

المسلسلات التليفزيونية في مصر ، ولو كان هناك جزء ثالث من المسلسل كان من الممكن الحديث عن عودة عاشور الملط إلى مزاولة أعماله مرة ثانية ، كما حدث مع أسماء عديدة تمت محاكمتها بعد موت السادات وفقا لقانون العيب ومحكمة القيم ، وكانت العقوبة محدودة مما ساعدهم على التهرب والعودة إلى نشاطهم مرة أخري».

الشهد والدموع

يمكن القول أن مسلسل « الشهد والدموع » الذي قام ببطولته يوسف شعبان وعفاف شعيب وخالد ذكي ومحمود الجندي ،ونوال أبو الفتوح والفنانة المعتزلة نسرين وعبد العزيز مخيون وعبد المنعم إبراهيم وسيد عبد الكريم وآخرين ، كان هو الفرشة لـ « ليالي الحلمية » هذا العمل الخالد لأسامة ، والخالد في تاريخ الدراما التليفزيونية العربية .

في « الشهد والدموع » كان هناك اقتحام مباشر إلى حد ما لقضايا السياسة ، فبعد سنوات السبعينيات التي شهدت هجوما كاسحا على الفترة الناصرية، وجدنا عملا دراميا لا يخفي تعاطفه معها بالرغم من انتقادات يوجهها لها ، لكنها الانتقادات التي تتم على أرضية التأييد لمرحلة بمشروعها السياسي ، وجاء المسلسل في وقت انتهي فيه منع إذاعة الأغاني الوطنية التي اشتهرت في فترة الخمسينيات والستينيات بصوت عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ، والتي شهدت حجبا متعمدا مع بدء حملة الهجوم المنظمة ضد جمال عبد الناصر بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ،وكان انتشار هذه الأغنيات عبر شرائط الكاسيت لافتا ، كان الحنين إلى عبد الناصر وزمنه يطل من كل شيء ، وفي هذا المناخ جاء مسلسل « الشهد والدموع » الذي تحدث عن محطات كبري في المرحلة الناصرية مثل قوانين التأميم ، ونكسة ٥ يونية عام ١٩٦٧ ، وشق المسلسل طريقه إلى كل المنتديت والتجمعات السياسية وبين الأسر المصرية ، أصبح محل حديث الكل خاصة أنه كان نجم

الدراما الرمضانية ، ولم تكن الدراما وقتها بالازدحام الموجود حاليا .

كانت أسرة زينب في المسلسل ،نموذجا للأسر المصرية التي عاشت العذاب بعينه ، بعد أن أكل العم ميراث أخيه زوج زينب ، الذي توفي تاركا وراءه أسرة محرومة من كل شئ ،وفي نفس الوقت هي الأسرة الموعودة بتقديم التضحيات في سبيل الدفاع عن مصر ، فابنها حسين يدخل الجيش ويعيش مرارة نكسة ٥ يونية ١٩٦٧ وعلي يديه يستشهد رفاقه من الجنود على الجبهة ، أما الإبن الأكبر أحمد فهو البكر الذي شرب مرارة الحرمان وقسوته ، ووضعت الأم فيه كل أملها ، وظلت تسقيه معني الانتقام من العم بعد أن يشتد عوده .

وفي المقابل كانت أسرة العم تنعم بكل شيء ، ورغم نعيمها يهرب الابن من الخدمة في الجيش ببقائه في الخارج ، ويستمر بعيدا حتى يعود ليحاول أن يفرض نمطه الرأسمالي المستغل على الأسرة تساعده الأم في ذلك .

كان هذا هو الخط العام للمسلسل الذي فرض نفسه على الجميع وقت عرضه ، ولما سألت أسامة عن قصده من أسرة زينب ، أجاب ، أن « الشهد والدموع » عمل تاريخي ليس بمعني الأعمال السردية ، وإنما محاولة تأصيل لأسرة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة ، التي اعتبرها حاكمة التطور في مصر ، وتعطي لحركة النضال المصري كوادره ، حاولت من خلال المسلسل البحث عن كيف نشأت هذه الطبقة ، وكيف واكبت الأحداث السياسية التي عاصرتها مصر حتى عام ١٩٧٥ ، وكيف تغرس الرغبة في أفرادها للصعود إلى الطبقة الأعلى ، والخوف من السقوط للطبقة الأدنى ، ومن هذا الطموح إلى الخوف من نقيضه يأتي ما أسميه « عذابات الطبقة الوسطي » ، أسرة زينب نموذج لهذه الطبقة ، ومن خلال معاركها الكثيرة مع العم آكل ثرواتها في الميراث تتضح رؤيتي ، فالأسرة تستميت في نضالها من أجل استرداد هذا الميراث الضائع ، الذي باسترداده سترتفع إلى الطبقة العليا ،وفي نفس الوقت تناضل نضالا

مريرا في البحث عن وسيلة آمنة لإيجـاد لقمـة العيـش ، وتـأمين مسـتقبل الأولاد في التعليم ، وكل هذا يصب في الخوف من السقوط إلى الطبقة الدنيا ، وبـين هـذا وذاك تعيش الأسرة « عذابات الطبقة المتوسطة .

يواصل أسامة : أوضحت أن زينب تستمد قوتها من إيمانها الشخصي وحقـدها على الطبقة العليا ، وجاء هذا نتيجة الظلم الـذي وقـع بهـا ، فكراهيـة الظـالم والحقـد عليه شيء مهم لابد أن تتواجد عند المظلوم حتى يستطيع اسـترداد حقـه ، أمـا أولاد زينب فهم يمثلون اتجاهين ، اتجاه يمثله حسين ويتجلى في التعامـل السياسي ،حيث يخترع وسيلة للتداخل في العلاقات الإنسانية مع أسرة عمـه حـافظ ، وذلـك بهـدف ضرب عمه في عقر داره ، أما الاتجاه الثاني فيتمثـل في النضـال المبـاشر ويمثلـه أحمـد الذي ينظر إلى عمه وما فعله من ظلم لهـم ، بنظـرة أحاديـة عـبر عنهـا بقولـه :« اللي إتاخد غصب يرجع غصب ».

كـان مسلسـل « الشـهد والـدموع » وكـما قلنـا هـو الأول مـن نوعـه في إظهـار التعاطف مع ثورة يوليو ومشروعها ، وذلك بعد سنوات من الهجوم المتواصل عـلى جمـال عبـد النـاصر سـينمائيا وإعلاميـا ودراميـا ، ولهـذا كـان السـؤال المطـروح في المنتديات ودوائر الرأي العام :« كيف مر هذا العمل مـن الرقابـة ؟» ، وهـو السـؤال الذي حملته لأسامة فأجاب: مررنـا بمـرحلتين مـع الرقابـة ، المرحلـة الأولى خـارج مصر مع الشركـة المنتجـة ، وكانـت تطلـب بصريـح العبـارة حـذف التطـورات التـي جاءت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وخاصة الجزء الذي كان يحتوي على التأميمات التـي تمت على أثر قوانين يوليو الاشتراكية عام ١٩٦٢ ، واختلفنـا مـع الشركـة ولم نكمـل الجزء الثاني عندها ، وجئنا إلى التليفزيـون المصري تبـدأ المرحلـة الثانيـة مـع الرقابـة ، فبعد أن حصلنا على الموافقة على الـورق ،ثـم حـاولوا تفريـغ العمـل مـن مضـمونه ، وامتد ذلك إلى الشريط المسجل فهناك أشياء حذفوها في المونتاج وكان مسموحا بها

على الورق مسبقا ، وأمام هذه التصرفات كان أمامنا ، إما الإصرار على موقفنا كما في الورق الذي كتبته ، وفي هذه الحالة لن يعرض العمل ، وإما العمل بمبدأ ما لا يؤخذ كله لا يترك كله ، وعملنا بالمبدأ الثاني وكانت نتيجته أننا اضطررنا إلى حذف أشياء هامة مثل ، الانفصال بين مصر وسوريا ، ومقدمات نكسة ٥ يونية ١٩٦٧ ونتائجها ، وكما في ورق المسلسل كنت أناقش ما إذا كانت النكسة وقعت بسبب سلبيات داخلية أو تآمر قوي خارجية ، ورؤيتي كانت أن ما حدث هو نتيجة تضافر عوامل خارجية مع عوامل داخلية ، وظننت بذلك أنهم سيأخذون الأمر على اعتبار أنه خط هجوم على جمال عبد الناصر وبالتالي سيتركونه ، لكنهم كانوا أذكي فقد أحسوا أن عرض التجربة في حد ذاتها بسلبياتها وإيجابياتها شيء خطير مما اضطرهم إلى حذف ما يخص ذلك والاكتفاء بالإشارة إليه فقط دون تأصيله دراميا ، ووصل الأمر بهم أيضا إلى رفض ذكر اسم عبد الناصر وتعليق صورة له ، رغم أننا علقنا صورة في الجزء الأول للملك فاروق ، وامتد التعسف إلى منع الأغاني الوطنية التي صاحبت فترة ثورة يوليو ، حيث هددوا المخرج إسماعيل عبد الحافظ بأنه إذا لم يتخل عنها فسوف يتم وقف التصوير ، لكننا تحايلنا على الأمر قبل تركيب الصوت ، واستطعنا وضع بعض الأغاني في الخلفية ، أما حرب أكتوبر فتم حذف ما يشير إلى أن انتصاره العسكري تم تفريغه من مضمونه عند استبداله بالحل السلمي ، مما اضطرنا إلى استبدال هذا المعني بمعني آخر غير مباشر وهو التفسخ الاجتماعي الذي عم مصر نتيجة الخط السياسي الذي تم إتباعه بعد حرب أكتوبر .

ديكتاتورية السادات

كنت في هذا الوقت أتردد على أسامة أنور عكاشة كثيرا في منزله بالجيزة ،لم تكن شقته السكنية كبيرة ، وفي إحدى حجراتها الصغيرة كانت صومعته التي تحتوي على كتب في التاريخ والأدب ، فهو قارئ لتاريخ مصر بنهم بالغ ووعي لافت ، وعرفت

منه ملامح البدايات من حيث ولد في كفر الشيخ عام ١٩٤١ لأب كان يعمل في التجارة ، وفي مدارس كفر الشيخ تلقى تعليمه حتى التحق بكلية الآداب جامعة عين شمس قسم الدراسات الاجتماعية والنفسية حتى تخرج منه عام ١٩٦٢ ، وفي هذه الفترة كتب القصص القصيرة ، وبعد تخرجه عمل أخصائيا اجتماعيا في مؤسسة لرعاية الأحداث ثم انتقل إلى للعمل في إدارة العلاقات العامة بمحافظة كفر الشيخ ، ثم في إدارة رعاية الشباب بجامعة الأزهر حتى استقال عام ١٩٨٢ للتفرغ من أجل الأدب ، ومن خلال

توقف مسلسل « الشهد والدموع» عند عام ١٩٧٥ ، أي قبل بدء تبدل الخط السياسي مع إسرائيل ، وتحوله من العداء إلى الصداقة على أيد أنور السادات الذي زار إسرائيل يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، وهي الزيارة التي أحدثت زلزالا في الوطن العربي بتاريخه وجغرافيته ، زلزالا أظن أننا لم نفيق منه بعد، خاصة أنه وبعد سنوات من الحروب ضد إسرائيل ، أصبح لها علم وسفارة في مصر ، ولم يكن أسامة أنور عكاشة بعيدا عن هذا الزلزال ، وفي عام ١٩٨٧ وبعد عشر سنو ت من هذه الزيارة ، وبينما كان أسامة يواصل كتابته لرائعته الخالدة « ليالي الحلمية » ، سألته عن ذكرياته حول هذا اليوم الذي رأي فيه السادات يهبط بطائرته في مطار « بن غوريون » بتل أبيب ، والتأثير الذي تركه عليه ، فأجاب :« قصة هذا اليوم ، أصلها يبدأ من حرصنا على سماع خطب السادات من باب التسلية، ربما نجد فيها مادة ترفيهية تثير الضحك ،واستمرار لهذا الحرص كنت مع مجموعة من الأصدقاء ، نستمع إلى خطابه في مجلس الشعب الذي قال فيه :«أنه مستعد للذهاب إلى أي مكان في العالم من أجل السلام حتى لو كانت إسرائيل» ، ورغم ترجيح أصدقائي بأن هذا الكلام فيه مبالغة ، وأنه ربما يكون ناتجا عن فرط الحماسة في الخطاب ، إلا أنني توجست ، وأحسست بشيء ما قادم في الطريق ، شيء لا يبعث على الارتياح ، لكن لم يصل

إحساسي أبدا إلى إمكانية أن يذهب رئيس مصر إلى إسرائيل ، وأؤكد أن هذا كان هو نفس إحساس المصريين جميعا حتى بما فيهم الذين أيدوا هذه الخطوة وقت إتمامها .

يضيف أسامة :« حينما تداعت الأحداث بعد ذلك ،وفوجئنا بتوجيه دعوة من مناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى السادات لزيارة إسرائيل ، أحسست أنني أتفرج على فيلم فانتازيا ذروته الدرامية كانت في مشهد هبوط طائرة السادات في مطار بن غوريون ، واصطفاف قادة الدولة الصهيونية لاستقباله ،وسلامه عليهم بحرارة بالغة ..كان يوما غريبا ومريبا ،وفي تقديري أنه كان أكثر الأيام حزنا في تاريخ مصر ،بعد الحزن على وفاة جمال عبد الناصر» .

يواصل أسامة :« جلسنا أنا وأصدقائي أمام أجهزة التليفزيون نتابع كل حركة يفعلها السادات في مطار بن غوريون .. شعرنا بانتهاك أعراضنا غصبا ، كان الصمت يسود بيننا أكثر من الكلام ، ولما علق أحد الأصدقاء عفويا :« اللي بيحصل ده ولا حاجة جنب اللي حصل في نكسة يونية ١٩٦٧ » انتبهنا إلى كلامه لتدور مناقشات سارت كلها على خط ، أن ما فعله السادات هزيمة حقيقية لأنه ذهب إلى العدو يحمل كفنه على يده ».

يضيف أسامة :«كان موقفا يمثل فظاعة الديكتاتورية الحقيقة ، فرئيس مصر بكل ما تمثله يذهب دون استشارة شعبه ، ليتسول السلام مع كيان مدجج بالسلاح ، وبآلاته العسكرية الغاشمة قتل وشرد منذ وعد بلفور عام ١٩١٧ وحتى الآن ، أحسست يومها أن النصر الذي تحقق في أكتوبر عام ١٩٧٣ بدم الشهداء تم تصفيته وتحويله إلى لقطة تليفزيونية يمشي فيها أنور السادات على بساط من جماجم الشهداء ليصافح مناحم بيجين سفاح دير ياسين .. خيمت الكآبة علينا ، وتجمدت الدموع في أعيننا ، وتحول الغضب اليائس إلى طاقة انفجرت في وجه السادات فيما بعد» .

أطل موقف أسامة أنور عكاشة المعارض بشدة للسادات ، والمعارض للسلام

مع إسرائيل ، في مسلسل « ليالي الحلمية » ، كما فضح السلبيات الناتجة من تطبيع العلاقات مع إسرائيل في مسلسله « آرابيسك » ، ولم ينسي له ذلك الكاتب الصحفي إبراهيم سعدة رئيس تحرير أخبار اليوم : والذي نظم ضده حملة صحفية عنيفة فتحت لها صحيفة أخبار اليوم صفحاتها ، بعد أن نقلت وسائل الإعلام أن أسامة بصدد كتابة فيلم كبير يخلد حرب أكتوبر ، وأنه أقدم على هذه الخطوة بموافقة وزير الدفاع المشير حسين طنطاوي ، ولم يعجب إبراهيم سعدة هذه الخطوة، فأطلق قلمه هجوما على أسامة في حملة مغرضة وسخيفة ،وكانت حجة سعدة الجاهزة ، أن أسامة يحب عبد الناصر ويكره السادات ، وبالتالي كيف سيكتب عملا دراميا مجردا من مشاعره العدائية ضد السادات الذي صنع حرب أكتوبر ، ولم يصمت أسامة على حملة سعدة ، بل رد عيها بعنف ،موضحا أنه عمله الدرامي سيبدأ من رصد بطولات الجيش المصري في حرب الاستنز ف ، بوصفها الحرب التي هيأت الفرصة لانتصارات أكتوبر ، وظل السجال بين سعدة وأسامة أسابيع حتى توقف ، وللأسف لم يري المشروع 'لنور رغم تأكيد أسامة على أنه لن يستسلم ، وقوله أن : «المشير حسين طنطاوي وزير الدفاع راجل جدع وشهم وقال لي استمر ولا يهمك » ، لكن مع كل أسف لم يكتب أسامة ، وهكذا أفسد إبراهيم سعدة فرصة خروج عمل درامي كبير عن حرب أكتوبر ، وللعلم فلم يكن هذا الموقف من سعدة هو الوحيد ، ضد مشروعات وأفكار فنية عملاقة تحمل تأصيلا قوميا ووطنيا ، فهو فتح صفحات أخبار اليوم أسابيع للهجوم الضاري علي فيلم « ناجي العلي » ، بطولة نور الشريف ، والذي تناول سيرة فنان الك'ريكاتير الفلسطيني ناجي العلي ، من مولده في فلسطين حتي تهجيره ثم اغتياله في لندن .

ليالي الحلمية

كنت على مواعيد جديدة مع أسامة أنور عكاشة في مسلسل « ليالي الحلمية »

بأجزائها الخمسة ، ومن الجزء الثاني تحديدا استطاع هذا العمل أن يفرض هيمنته على المشاهد المصري والعربي ، رأي فيه الكل تاريخا للتضال الوطني ضد الاحتلال الإنجليزي ، ونضالا من أجل البناء والاستقلال الوطني بعد ثورة يوليو ، وجد الناس مسلسلا يحدثهم عن أحلامهم التي ضاعت ، بعد أن ظنوا أنها بين أيديهم أثناء الفترة الناصرية .

مزج أسامة بصورة مدهشة مأساة انكسار الحلم الوطني بمأساة انكسار حلم أبناء الوطن في أحلامهم الخاصة ، فبينما كانت معارك عبد الناصر الوطنية تسير من جولة إلى أخري ،وكانت الجماهير من المحيط إلى الخليج تعيش وهج الحلم بوطن واحد ، وتوزيع عادل للثروة ، كانت علاقة الحب تطل ببراءتها بين على البدري وزهرة غانم ، وتطل بين قمر السماحي وابن عمها ناجي السماحي ، ومع انكسار الحلم وضياعه في مرحلة السبعينيات دخلت التجربتان نفقا مظلما ، لتنكسر في مشاهد حزينة أبكت المشاهدين وكأنهم هم الطرف الأصلي فيها، كان المشاهدون يتلقون كل خلاف بين على وزهرة ، وقمر وناجي بتأثر بالغ يصل إلى حد « الزعل » من أسامة نفسه ، وأذكر أنه قال لي : إنه سمع شتيمته بأذنه تعليقا على مشهد كانت فيه الخلافات محتدمة بين على وزهرة ، وذلك في مقهى شعبي نزل إليه دون أن يعرفه أحد ليتعرف عن قرب تفاعل الناس مع المسلسل

أضفي أسامة طابعا رومانسيا حالما على علاقة على بزهرة ،وناجي وقمر ، ودارت هذه الرومانسية في إطار بناء وطني شامل كان انعكاسا لحلم وطني كبير ، وكان ترجمة لجيل عاش عصر الأحلام الكبيرة ، والانكسارات العظيمة ، ولم يكن هذا الملمح هو الوحيد في « ليالي الحلمية » ،فمن خلالها شاهدنا كيف يكون العطاء عظيما من بسطاء الناس ممثلة في عائلة زينهم السماحي ، وبسطاء حي الحلمية حين يجدون أمامهم قضية وطنية تستحق العطاء ، عطاء دون مقابل كما عبر عن ذلك

عاصم السلحدار ، المثقف اليساري الذي وقف أمام المرآة يعلق على خبر استشهاد ناجي السماحي :« ناجي السماحي ..ابن طه السماحي ..أخو زينهم السماحي ..هم دول الناس الحقيقيين .. سلسال بيدي ومبيخدش »، فعل عاصم السلحدار ذلك بالرغم من أنه المثقف اليساري الذي ساهم في تشكيل وعي بعض أبناء الحلمية ، ودفع ثمن موقفه السياسي ،لكنه في لحظة صدق رأي أن ما قدمه لا يمثل شيئا لو تم مقارنته بما قدمه ، طه وزينهم وناجي السماحي .

كانت الندوات واللقاءات الجماهيرية تتلاحق حول المسلسل . وكان هو حريصا على تلبية كل الدعوات التي تأتيه ، و تجولت معه في بعضها خاصة الجماهيرية منها ،وكان أبرز ما يلفت النظر فيها أن أسامة كان هو نجم هذه اللقاءات بلا منازع ، وليس نجوم العمل من الممثلين الذين هم في العادة يخطفون الأضواء في مثل هذه اللقاءات .

ذهبت معه إلى ندوة في كلية الزراعة بمشتهر جامعة بنها ، وكان معه الفنان سيد عبد الكريم الذي جسد دور المعلم زينهم السماحي صاحب مقهي السماحي ، وحضر عبد العزيز مخيون الذي جسد دور الفدائي طه السماحي في المسلسل ، والذي خطف قلوب المشاهدين كمقاوم للاحتلال الإنجليزي ، أعطي كل حياته من أجل بلده ، وراح شهيدا تاركا طفله الذي سيشتد عوده ليصبح أيضا مقاوما بطريقة أخري .

وحين دعوته إلى ندوة في قريتي ، لبي على الفور وكان متحمسا لها لأنها حسب قوله لي ستعطيه فرصة ذهبية للتحاور مع جمهور مختلف ، جمهور في قرية يريد أن يعرف ما إذا كان يصله المعاني الأساسية التي يريد هو توصيلها من أعماله الدرامية أم لا ؟ ، وأذكر أنه قال لي مداعبا :« هيحضر الندوة فلاحين بجلاليب ، ولا الحكاية فيها أفنديات » ، قلت له ضاحكا :« هتلاقي من ده ومن ده ».

كانت الندوة بمثابة حدث جديد على أهل القرية والقري المجاورة لها ، فالنجوم الذي تقتصر الفرجة عليهم في التليفزيون سيأتون أمامهم بشحمهم ولحمهم ، وتهيأ الآلاف لاستقبال النجوم .

قبل موعد الندوة ذهبنا إلى حديقة البرتقال للاحتفاء بأسامة ومعه سيد عبد الكريم وسيد عزمي الذي جسد دور الأسطى زكريا في « ليالي الحلمية » ، وهو نموذج النقابي العمالي الذي بدأ حياته عاملا صغيرا في مصانع سليم البدري وشارك في المقاومة ضد الاحتلال الإنجليزي في منطقة القناة ، وأصبح نقابيا في عصر عبد الناصر الذي يعد العصر الذهبي لتاريخ العمال في مصر ، وصار رئيسا لاتحاد عمال مصر في مرحلة من عصر السادات ، واتهمه رفاقه القدامي من العمال والذين شاركوه في مقاومة الاحتلال بأنه باع تاريخه من أجل الوصول إلى المنصب ، لكنه عاد بعد ذلك إلى سيرته الأولي .

كان الأصدقاء من الكتاب ،عبد الحليم قنديل وعزازي على عزازي وسيد زهران(رحمه الله)، ضيوفا آخرين ، وفي مزرعة الصديقين الشقيقين والناشطين السياسيين الطوخي والسيد الطوخي ، وتحت شجر البرتقال بلون ثماره التي تزين الأرض الخضراء ، جلس الجميع لتناول الغذاء ، وكان عبارة عن فطير مشلتت وجبن قديم ،ورغم أن أسامة أبدي في البداية عدم رغبته في أكل الفطير لظروف مرضه بالضغط ، وحرصه على نظام غذائي معين ،إلا أنه وأمام إغراء الفطير ومداعبات سيد عبد الكريم له :« فرصة مش هتتكرر تاني يا أسامة » ، أمسك بالفطيرة قائلا : « ضغط .. ضغط .. الدواء يعالج الضغط ..لكن الفطير مش قادر أقاومه » .

ومع تبادل التفشات والضحكات ، كان الكلام ينتقل من قضية إلى أخري ، حتى جاء على قضية « ثورة مصر » ، وهي القضية التي كان متهما فيها الدكتور خالد

جمال عبد الناصر ، ومحمود نور الدين وآخرين ،بتكوين تنظيم مسلح ، قام باغتيال إسرائيليين يعملون في السفارة الإسرائيلية بالقاهرة ، وخرج بسببها خالد عبد الناصر إلى يوغسلافيا(قبل تفكيكها) . وظل في عاصمتها بلجراد ثلاث سنوات حتى عاد عام ١٩٩٠ ، وحصل على حكم قضائي بالبراءة .

أفاض الكل في الحديث عن القضية ، وبدا النقاش وكأنه يتجه إلى حبكة درامية ، وبالفعل التقط سيد عبد الكريم الخيط موجها كلامه إلى أسامة :« إيه رأيك يا عبقري .. موضوع كله دراما »، كان سيد يحرض أسامة بالفعل على إنجاز عمل درامي ، وأثني الصديق الدكتور عزازي على اقتراح سيد عبد الكريم ، وضحك أسامة معلقا باقتضاب :« الموضوع محتاج تفكير » ، لكن العجلة دارت فيما بعد ليكتب أسامة قصة فيلم : «كتيبة إعدام » بطولة نور الشريف، ومعالي زايد، وممدوح عبد العليم، وسيد عبد الكريم ، إخراج عاطف الطيب، وأذكر أن سيد عبدالكريم قال لي أثناء عرض الفيلم في السينما ، واشتداد الجدل حوله :« الفيلم ده مولود على حجري .. كنت كل يوم اسأل أسامة عليه واستعجله ، والأصل من أكلة الفطير والبرتقال عندكم » .

من تحت شجر البرتقال ، اصطحبنا أسامة وسيد عبد الكريم وسيد عزمي في السيارة ، إلى مكان انعقاد الندوة بمركز الشباب ولم يصدق الثلاثة أن كل هؤلاء الآلاف في انتظارهم ، ووسط زغاريد النساء والشيكولاتة التي ترميها السيدات القرية من على سطوح ديارها ، استوقف أحد البسطاء من أهلها السيارة أمام المسجد الذي كان يتم تجديده ليقول:« يا أسامة باشا .. يا معلم زينهم ..وانت كمان يا أسطي زكريا انزلوا بالصلاة على النبي عشان تقروا الفاتحة على سيدنا عثمان (صاحب ضريح المسجد) ، وبعدين تدفعوا قرشين تبرع عشان ربنا يبارك لكم في ليالي الحلمية» ، وبعد أن تدخلت لإنهاء الموقف ، انفجر أسامة وسيد عبد الكريم

وسيد عزمي في ضحك هستيري، وانطلقت السيارة في اتجاه مركز الشباب ، والثلاثة يواصلون ضحكهم ، وعلق أسامة : « مشهد طبيعي في مسلسل جديد » .

استمرت الندوة ما يزيد على ثلاث ساعات ، وشهدت حوارا راقيا لم يتعالى فيه أسامة على تفاوت الوعي بين الحاضرين ، وكان أكثر حرصا على سماع فلاحين من أصحاب الجلاليب والطواقي ، سأله شباب عن الهدف الحقيقي من استدعاء التاريخ في «ليالي الحلمية »وسأله فلاح عن السبب في تجاهله لوجود الفلاحين في المسلسل ،والتقط شاب هذا السؤال ليكمل عليه :« كان العمدة سليمان غانم والذي قام بدوره الفنان صلاح السعدني هو نموذج الفلاح في المسلسل وابنه زاهر، فلماذا اقتصرت على ذلك ، ونسيت الفلاحين الحقيقيين ،وأكمل آخر :« ليه المسلسلات بتصور الفلاحين على أنهم سذج؟» ، وسأله آخر معاتبا :« ليه يا أستاذ خليت الست سماسم (زوجة زينهم السماحي) تهرب ؟، وتوالت الأسئلة، وكان بعضها مكتوبا ، ورد أسامة عليها جميعا على حدة ومن إجاباته : « لم تكن شخصية العمدة سليمان غانم في المسلسل نموذجا للفلاح الحقيقي ، فهو ترك كل شئ في قريته وسافر إلى القاهرة للثأر لوالده الذي خسر أمواله على أيدي والد سليم البدري ، والفلاح الحقيقي لا يترك قريته وأرضه بهذا الشكل ، أنا لم أتحدث عن الفلاحين في المسلسل كنمط حياة ، أو دراما تخص قضاياهم ، ولهذا أدعو كل من يفهم شخصية سليمان غانم على أنها نموذج للفلاح الصحيح أن يراجع نفسه لأن هذا بعيد عن الحقيقة تماما ، أما المسلسلات التي تتحدث عن الفلاحين بوصفهم سذج ، فأنا أرفضها مثلكم تماما ، وأؤكد لكم أن تاريخ مصر هو تاريخ قراها وفلاحيها ، هو تاريخ البسطاء في الحواري والأزقة ، هو تاريخكم الذي يحاول البعض تشويهه ، فانتبهوا له ، طه السماحي وزينهم السماحي والأسطي زكريا هم من البسطاء الذين قدموا حياتهم ثمنا لبلدهم ، وأدعو الشباب الواقف أمامي أن يتخذوهم قدوة لهم ، ثقوا في أنفسكم ، ولو عدتم إلى تاريخكم ستجدون أن صناعه الحقيقيين هم منكم

أنتم ، أحمد عرابي جاء من الفلاحين ، وجمال عبد الناصر جاء من الطبقة المتوسطة .. الذين يكتبون عن الفلاحين على أنهم سذج ، لا يعرفون الحقائق كاملة عن الريف ، وأنا حتى الآن لم أكتب عملا عنهم ربما لأن الفكرة لم تأتي بعد ، ولأنني أمام عطائهم لمصر مازلت أبحث عن كيف أكتب عملا يخلد هذا العطاء ،وأصارحكم أنني وجدت هنا في هذه القرية جمهورا واعيا ، ورأيت فلاحين نفتخر بهم جميعا ، وكل هذا ساهم في تأصيل الصورة الإيجابية المحترمة الموجودة عندي من الأصل عن الفلاحين ، وأعدكم لو كتبت عملا عن الفلاحين ستكون صورتكم أمامي».

تحدث سيد عبد الكريم في الندوة كما تحدث سيد عزمي ، لكن أسامة كان في كلامه أشبه برسول يحرض الذين أمامه على العمل من أجل التغيير ، وأن ذلك لن يبدأ إلا بالثقة في النفس ، ولهذا كانت كلماته تتم على إيقاع من التصفيق المتواصل ، وحرص على الاحتفاظ بكل الأوراق التي كانت تحمل الأسئلة المكتوبة من بعض الحاضرين ، ومن فرط إعجابه بما حدث طوال اليوم قال لسيد عبد الكريم ضاحكا : « لازم نغيظ صلاح السعدني ، مش كان أحسن لو حضر معانا ، كان هيلاقي الجمهور اللي بيحب يشوفه بجد »

إلى الزقازيق

كانت جولتي الأخرى في الندوات مع أسامة أنور عكاشة إلى معهد الكفاية الإنتاجية في جامعة الزقازيق ، ولجأ إلى عدد من طلابه لدعوته التي لباها على الفور ، واصطحبته من القاهرة إلى هناك في سيارة تبعة للجامعة ، وجاءت بعد أسابيع من الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠ ، وهو الحدث الذي ساهم إلى حد كبير في حدوث مراجعات كبيرة لقناعات أسامة العروبية ، والتي كانت واضحة في أعماله الدرامية السابقة ، وطوال الطريق من القاهرة إلى الزقازيق ذهابا وإيابا ، لم ينقطع الحديث عن الغزو العراقي وهجومه الحاد عليه ، أبدي أسامة خلال حديثه تعجبه

الشديد ممن شبهوا صدام حسين بجمال عبد الناصر ، وقال بحدة طالبا مني أن أنقل إليهم كلامه :« كيف يري بعض الناصريين أن صدام سيقاوم التحالف الدولي الذي يتكون الآن لإجباره على الخروج من الكويت ، وسيكون كعبد الناصر أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، الظروف تختلف الآن .. عبد الناصر كان يواجه استعمارا حقيقيا ،ويحارب من أجل قضية عادلة ، واحتشدت من ورائه الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج ، عبد الناصر كان أملا جديدا في معركته ومقاومته .. عبد الناصر صدقته الجماهير ومقارنته بصدام افتراء وكذب .. صدام لا يصدقه أحد بعد ما فعله بغزو الكويت .. الظرف الدولي مختلف ويجب قراءته بوعي .».

واصل أسامة : « نحن أمام أفدح حدث عربي بعد كامب ديفيد ، وستظهر نتائجه على المدي الطويل ، الكل سيدفع الثمن ، القضية الفلسطينية سيتم دفنها ، لن يكون هناك مجال للحديث عن القومية العربية والوحدة العربية بعد الآن ، فالوحدة التي يتم فرضها غصبا وبقوة السلاح ليست وحدة وإنما هيمنة غزو الكويت جاء بالقوي الخارجية على حجرنا ، بعد أن رفضناها ، و ناضل عبد الناصر من أجل طردها ، علينا أن نعي وهم الكلام عن إعادة توزيع الثروة العربية التي تحدث عنها صدام بعد غزوه من أجل إضفاء شرعية على ما فعله .

بدا أسامة أمامي في هذا اليوم أنه يعيش مرحلة مراجعات كبيرة ، ولاحظت منه تراجع الطابع الأيدلوجي الناصري في طرحه ،والذي استمعت إليه منه كثيرا قبل ذلك وفي أعقاب أعماله الدرامية الرائعة :« أبواب المدينة » و« الشهد والدموع » ، و« ليالي الحلمية»حتى الجزء الرابع ، وبعد سنوات قليلة خرج عمله الكبير «آرابيسك » الذي عبر عن قلقه في البحث عن هوية لمصر، ورمز في ذلك إلى فيلا كان من المفترض أن يقوم فنان الأرابيسك حسن (صلاح السعدني) بتشييد أعمال الديكور فيها ، وبعد أن قطع شوطا كبيرا في عمله ، وكاد أن ينتهي منه ، قام بتفجير

الفيلا ، ولما سأله صاحب الفيلا (كرم مطاوع) عن السبب ، تحدث حسن آرابيسك عن أنه لابد من التفكير في شيء جديد ، والمثير في هذا المسلسل أنه بالرغم من أن أسامة يدعو صراحة إلى التفكير في هوية جديدة إلا أن ذلك لم يقوده مثلا إلى تغيير نظرته في إسرائيل ، فالمسلسل شمل على قصة مطاردة « الموساد » للعالم المصري صاحب الفيلا ، وشهدت شوارع القاهرة جانب من هذه المطاردة .

انتقد البعض وقتها أسامة على اعتباره أنه يدعو صراحة إلى التخلي عن عروبة مصر ، ولما سألته عن ذلك ، أجاب ، بأنه يقدم اجتهادا ، لم يدعو فيه صراحة إلى تخلي مصر عن عروبتها ، وإنما يدعو إلى التفكير فيما إذا كانت العروبة هي هويتنا الخالصة أم أن الشخصية المصرية مرت بحضارات مختلفة أعطتها طابعا خاصا يختلف عن باقي العرب .

دخل أسامة بعد آرابيسك في جدل عنيف بعد أن أعلن أن القومية العربية تم دفنها في حفر الباطن ، في إشارة منه على حرب الخليج (١٩٩٢) التي أخرجت العراق من الكويت ، وظل يتراوح بين الهجوم على القومية العربية ، ثم العودة إليها ، وفي عام ٢٠٠٦ ومع تفجر الجدل حول هجوم جديد منه ضد القومية العربية ، كتبت في « المصري اليوم » مقالا ، قلت فيه :« فلنترك أسامة يختار ما يشاء من قناعات فكرية ، ويكفينا منه أنه رمزا قويا وصلبا في محاربة الفساد وحاربا صلبا من أجل الديمقراطية ، ومقاتلا شرسا ضد إسرائيل والمنادين بالتطبيع معها » ، وحدثني تليفونيا متأثرا وهو يقول لي :« أشكرك يا أصيل » ، وبعدها بشهور جاء عمله الدرامي الكبير « المصراوية » الذي حاول من خلاله التوصل إلى إجابة شافية على سؤال الهوية الذي عذبه طويلا ، وكان يعتزم اعتزال الكتابة الدرامية بعد الانتهاء منه ، لكنه رحل قبل أن يستكمله ، وقبل أن يقدم لنا الإجابة على سؤال الهوية .



في ندوة مركز الشباب عن مسلسل «ليالي الحلمية » .. أسامة أنور عكاشة يتوسط الفنانين سيد عبد الكريم وسيد عزمي في مركز شباب كوم الأطرون ، وسعيد الشحات بجوار سيد عبد الكريم ، وبجوار سعيد يجلس الأستاذ سامي أحمد (رحمه الله) ، وبجواره الدكتور عزازي علي عزازي ، وفي الخلفية اثنين من أبناء القرية هما جمال مرتضي (رحمه الله) ومحروس عطالله .

الفهرس

الموضوع **الصفحة**